مجموعة من الكتاب اليمانيين

الزبيري
شاعرا ومناضلا

دار العودة - بيروت

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة
مكتبتي الخاصة
على موقع ارشيف الانترنت
الرابط
https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

الزبيري شاعرا ومناضلا

12.9.1991م
صنعاء - اليمن

مجموعة من الكتاب اليمنيين

الزبيري
شاعرا ومناضلا

دار العودة - بيروت

حقوق الطبع محفوظة
لدار العودة

١٩٨٦

كورنيش المزرعة - بناية ريفييرا سنتر

تلفون : ٣١٠٨٤٠ - ٣١٨١٦٥ - ٨١٥٣٣٥

تلكس AWDA 23682 LE

ص. ب ١٤٦٢٨٤

تقديم

بقلم : الاستاذ عبد العزيز المقالح

الرجال العظام في تاريخ الشعوب قلة ، وهم في تاريخ كل شعب قد يعدون بالعشرات ، لكنهم في تاريخ شعبنا – لاسباب ليس هنا موضع الحديث عنها – يعدون بأصابع اليدين ، ولا شك ان من بينهم الزبيري ، الشاعر الوطني والانسان ٠ وعندي من اليقين الموضوعي والعلمي ما يجعلني أثبت – رغم ان الانسان قل ما يخلص من غبار الواقع ويدرك النقاء الكامل – ان الزبيري في سلوكه الشخصي وفي تعامله الاجتماعي قد كان في عصره وفي ظروفه انسانا على درجة عالية من النقاء المطلق ٠ وكانت تصرفاته النقية لغرابتها موضع الدهشة لدى الكثيرين من أصدقائه وخصومه على السواء ، وسببت هذه التصرفات النقية لصاحبها كثيرا من المتاعب والهموم ٠

واليوم وقد ذهب الزبيري بعد أن نال في حياته وبعد مماته التزكية الشعبية الشاملة والاجماع المنقطع النظير ـ اليوم بل ومنذ حين يتعرض الزبيري الانسان المثال والنقاء بالغمز واللمز ، ويحدث ذلك احيانا من تلاميذه كما يحدث من تلاميذ خصومه ، ويصل الامر في كثير من الاحيان عند هؤلاء وهؤلاء الى حد تضيع معه المقاييس ويصبح النهار ليلا والشمس بقعة سوداء • وهذه هي الادلة :

أولا : أدان الزبيري ـ في حياته كلها ـ التعصب والعرقية والطائفية والاقليمية لكن لم يعدم ـ من بين المثقفين مع الاسف ـ من يدينه بالتعصب ويتهمه بالتنظير للقحطانية ، هل صحيح انه قد كان كذلك وهو الانساني النزعة الصوفي السلوك الذي يحب كل خلق الله ، ويرى الناس في مختلف اجناسهم وألوانهم صورا من الله وروحا منه ؟•

انها ردود افعال التخلف وردود افعال الاحقاد التاريخية!!

ثانيا : أحب الزبيري بلاده الى درجة العبادة •• دخل السجن في سبيلها ، وتغرب من اجلها ، حملها في قلبه ، ونقشها على عينيه وفي أشعاره •• لكنه قد وجد من بين تلاميذه من يتهم شعره بفقدان الهوية اليمنية ، وأنه ـ أي شعر الزبيري ـ لم يتمثل المعالم الجغرافية لليمن ••!

هل كان الزبيري شاعرا أم جغرافيا ؟• لقد أجاب الكثيرون عن مثل هذا السؤال •

ثالثا : ناضل الزبيري من اجل الجمهورية قبل ظهورها وقبل أن يسمع بها الكثيرون في شعبنا ، واعلن قبل قيام

الثورة بسنوات انه لن يتعاون مع أي فرد أو جماعة لا تؤمن بالجمهورية كنظام حكم مستقبلي لليمن بديلا عن اغراق اليمن في الصراعات الجانبية الناجمة عن الانتصار لامير على حساب أمير أو التحزب مع طائفة لحساب طائفة أخرى ٠

كان هذا هو موقف الزبيري ، لكننا قد سمعنا — ويا للهول ! — من يقول انه قد عمل ضد النظام الجمهوري !!٠ كيف ؟ ومتى ؟! الحقيقة في بطون الحواة وعلى ألسنة أولاد الافاعي !!

رابعا : أحب الزبيري السلام لانه قد كان بطبيعته المتصوفة المسالمة ٠٠ يكره الحرب ، كما كان يخشى ويحاذر أن يخرج اليمني من قبر الامام ليعود الى القبر مرة اخرى مقابل حفنة من الدولارات أو قطعة صغيرة من الذهب البراق ٠ لقد أراد الزبيري أن يخلص اليمن من الموت دون أن يفرط في حق من حقوق الشعب ، ودون أن يساوم على صغيرة أو كبيرة في ثورته ٠ لقد أراد السلام لليمن في ظل النظام الذي اختاره الله والشعب ، واختارته — كما يقول « دماء الشهداء » — ٠٠ لكن الزبيري مات وكلمات السلام على شفتيه ودمه يكتب اللعنة الاخيرة لاله الحرب ٠

خامسا : كان الزبيري مع الاحزاب ٠٠ كل الاحزاب ، ومع الافكار ٠٠ كل الافكار ٠ كان مع كل شيء يسعى الى اخراج اليمن من العزلة التاريخية ومن السكونية القاتلة ، وتحت معطفه الواسع الحنون اختفى عشرات الحزبيين من مختلف الاتجاهات ، من أقصى اليمين الى أقصى اليسار ، في

أقسى الظروف وأحرج الايام ، ثم لا نفتأ نسمع ـ من حين الى اخر ـ بعض الاصوات المشبوهة ترتفع لتجعل الزبيري من نصيب هذا الحزب أو ذاك حتى تهدم الجسور القائمة بينه وبين مختلف الانتماءات والافكار ، وكم أتمنى ان يقرأ كل يمني وأن يكرر قراءة الوثيقة التي تظهر في هذا الكتاب لاول مرة بعنوان « من نحارب ومن نسالم » ٠

٠٠ ذلك هو الزبيري الموقف والانسان ، الشاعر والقديس ، وفي الصفحات التالية بعض نماذج من الكتابات التي تذكرته بعد رحيله متبوعة بنماذج حية من كتاباته الشعرية والنثرية ، يقدمها جميعا هذا العدد من كتاب الكلمة بمناسبة الذكرى الثانية عشرة لوفاته ٠ ومن حق جامعة صنعاء علينا ان نذكر لها بالتقدير أولى مبادراتها في المشاركة بجزء من تكاليف طبع هذا الكتاب ، تقديرا منها ووفاء لاول وزير معارف يمني كان يحلم منذ ما يقرب من ثلث قرن ان يكون أول المؤسسين لاول جامعة في اليمن الحر السعيد ٠

عبد العزيز المقالح

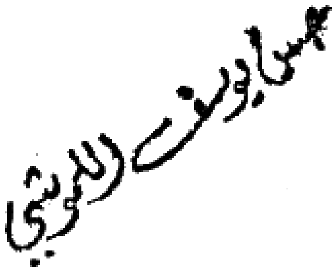

الزبيري شاعرا ومفكرا

الدكتور ابو بكر السقاف

لم يلق الزبيري الى الان مـا يستحـق من الدراسـة والبحث ، فنحن الى يومنا هذا لم نجمع مؤلفاته لنعيد طبع ما نشر ونطبع المخطـوط منهـا وهـو كثير ، وهـذا أضعـف الايمان (١) • والحديث عن الزبيري ذو شجون ، فقد تحسس ابناء جيلنا كوامن الوطنية وخلجات الثورة في نفوسهم فـي ظلال قصائده وبين سطورها • ففي عهد الامامة كانت قصائده هي المنشور والدعوة •

---

(١) الكلمة ، ابريل ، ١٩٧٦ •

(١) ان نشر مؤلفات شاعر كالزبيري ودراستها ، بل وتقديم اعمال فنية عن حياته ضرورة لتوضيح صورة الماضي القريب في اذهان ابناء الجيل الجديد والفرق بيننا والامم الحية ، ان ابطال هذه الامم يظلون معاصرين لكل جيل، لانهم يقدمون الى كل جيل بصورة ادبية وعلمية جذابة ، بينما يكاد يفكر شبابنا ابطال امسه لا نقول الماضي العربي البعيد •

ودراسة انتاج الزبيري يحتاج الى بذل جهد ليس باليسير ، اذا ما أردنا لهذه الدراسة ان تكون منهجية تحليلية، لا نكتفي بالوصف والاستطراد والتجميع • فدراسة انتاجه تعني عمليا دراسة نشوء وتطور الحركة الوطنية وتطور الشعر والنثر ، والمناخ الثقافي في يمن الائمة والانكليز والمؤثرات العربية في كل هذه الظروف • والى إن تكتب هذه الدراسة رأيت ان أدون هذا المقال ، الذي لا أعتبره بديلا لها ولكن مقدمة ضرورية ، وسأحاول جهدي ان لا يكون وصفيا تقريريا •

والمقال ينقسم قسمين • سأعرض في القسم الاول منه لحياته وفكره • وأما القسم الثاني فسوف أحاول فيه أن أحدد بعض الخصائص العامة لشعره ونثره • واذا كان شعره في غنى عن التعريف ، فاني أقصد بنثره تلك الصفات الرائعة من النثر الفني في « واق الواق » ومقدمة ثورة الشعر •

القسم الاول

في يمن الامام يحيى كانت الحياة متشحة بالسواد • والشعر « الفصيح » فيها كان استمرارا لمرحلة الانحطاط (٢)

---

(٢) وليس ادل على هذا من قراءة ما نشر من الشعر في مجلة «الحكمة»، والنثر الفني فيها ايضا كان ما زال يعاني من وطأة الزخارف اللفظية • فالتجديد في الشعر والنثر في ذلك الزمان جاء على يد الشعراء الوطنيين ؛ الذين اشتغلوا بالسياسة ، ونالوا حظا من المعارف الحديثة في الشعر والادب والتاريخ ، سواء بالاطلاع او بالدراسة في الخارج •

التي سادت كل أرجاء الوطن العربي ، الذي شهدت اجزاء منه بعثا للشعر العربي الكلاسيكي بلغ أوجه في شعر شوقي والرصافي وغيرهما ٠

غير ان الشعر ايضا كان النافذة التي نفذت منها رياح التطور في يمن الامام يحيى ٠ فالعلوم التقليدية في تراثنا العربي الاسلامي ظلت حبيسة مؤلفات كئيبة جل همها في التاريخ أنساب الائمة وأخبارهم ، وفي الفقه والاصول اجترار رتيب لشروح تدعي الجدة والطرافة ، تضاف الى الشروح القديمة ، مثقلة متون كتب كانت تنبض بالحياة وتمثل جهدا فكريا خلاقا جاهد ليصحب سير الحياة ، ويساير التطور ٠

في هذا الجو الآسن نبغ شاعرنا واحدا من جيل الرواد: ونحن اذا تجاوزنا فترة التكوين الاولى التي تحدث عنها في مقدمة كتابه ثورة الشعر « القاهرة ١٩٦٢ » نجد ان الفكر الديني قد قاد خطاه في هذه الفترة ، فساهم في تكوين جمعية الامر بالمعروف والنهي عن المنكر (٣) ، بعد ان بانت ضرورة الاصلاح العاجل لكل من يهتم بالامور العامة ، وذلك على اثر

---

(٣) من المعروف ان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر اصل من الاصول الخمسة للاعتزال ، وأثر المعتزلة في الزيدية معروف ، وما تزال قضية انتشار وتطور الفكر المعتزلي في اليمن بحاجة الى دراسة مستقلة ، فقد كان الاعتزال مزدهرا فيها في الوقت الذي كان يطارد اصحابه في كل اصقاع دولة الخلافة ، بل ان بعض كتبهم الاساسية ظلت محفوظة في اليمن الى ان نشرت في الستينات من هذا القرن مثل كتاب « المبين » في العدل والتوحيد للقاضي عبد الجبار المعتزلي ٠

« هزيمة اليمن في الحرب السعودية الامامية . لقد كشفت هذه الحرب عيوب الحكم المتوكلي ، ومدى ما يحمل في طياته من اسباب الفوضى والفساد » .

« ومن يومئذ وجدت الخميرة الاولى لحركة اليمنيين الاحرار وأخذت تنمو رويدا رويدا » ، (الخدعة الكبرى في السياسة العربية بيروت بدون تاريخ ص ٧٥ ـ ٧٦) .

وعند قيام جمعية الاحرار في عدن ظل الفكر الديني يشكل الملمح البارز لا في فكر الزبيري وحده ، بل وفي تفكير جميع اخوته في النضال ضد الامامة . فلا نجد لديه تمييزا بين العروبة والاسلام ، وشأنه في ذلك شأن الكثيرين من الادباء والمفكرين في الوطن العربي . فنحن لا نجد الفكر القومي واضحا ومستقلا عن الفكر الديني حتى لدى مفكر كالدكتور طه حسين ، لا سيما في المرحلة التي تلت اصداره « للادب الجاهلي » بدلا من « الشعر الجاهلي » (١٩٢٦) وحتى فهم الوريث للوحدة العربية رغم انه يميزها عن الوحدة الاسلامية لا يمكن ان يكون استثناءا لهذه القاعدة ، فالوحدة العربية في نظره مقدمة لازمة للوحدة الاسلامية لان العرب قلب الاسلام . والوحدة الاسلامية بلا شك قبس من تراث جمال الدين الافغاني تأثر به الوريث فيما تأثر به من تراث هذا الرائد العملاق .

فلا غرابة ان يكثر الحديث عن ارتباط حركة الاحرار وانقلاب ١٩٤٨ بجمعية الاخوان المسلمين فقد اشتركت شخصيات معروفة بارتباطها الشديد بهذه الجمعية في تلك

الاحداث ، مثل الفضيل الورتلاني وعبد الحكيم عابدين ، وهو عضو معروف في هذه الجمعية ، وغيرهما • بيد ان هـذا لا يعني بأي حال من الاحوال ان التفكير الديني لدى الزبيري ، وفي صفوف حركة الاحرار كان نسخـة مـن فكرة جمعيـة الاخوان المسلمين • فما أبعد هذا الحكم عن الحقيقة • فرغم الوشائج التي تربط فكر الزبيري بفكر الاخوان ، الا ان الانتماء العربي والاحساس به عميق الجذور في وعيه وعند أبناء اليمن عموما ، وتقاليده واضحة في صفحات الحكمة ، رغم اختلاطها بالفكر الاصلاحي الديني • وذلك بحكم البيئة الثقافية والموروث الثقافي الذي ينحدر من القرون الوسطى •

وهذا الشعور العميق بالانتماء العربي وبوحـدة المصير العربي ، تجلى في صورة الاحساس بالعجز امـام اوضـاع الامامة • ولا أدل على هذا من الاهابة المستمرة بالاشقاء الى أن يمدوا يد المساعدة • وقد بلغ الامر ، كما اشار الزبيري فـي الخدعة الكبرى (ص ٥) الى اعلان « الاحرار » استعدادهم لقبول حكم عربي تشرف عليه الجامعة العربية •

وهناك رافد اخر من روافد فكر الزبيري لا بد من الاشارة اليه ، لتأثيره القوي لا في فكر الزبيري وحده بل وفي فكر الاحرار ودعوتهم ، وهو فكر الثورة الفرنسية الكبرى • وان كان هذا الرافد لم ينحدر مباشرة من منبعه الى فكر الاحرار فقد عرفوه وبينهم شاعرنا ، وأثر فيهم من خلال ما روجـه دعاته وانصاره في الفكر العربي الحديث والمعاصر •

والزبيري كان طالبا في دار العلوم ، التي تمثل شيئا

وسطا بين جامعة القاهرة بمفهوماتها الجديدة والازهر بمفهوماته ومناهجه القديمة ·

وكان عقد الثلاثينات قد طلع على الناس بكتابات طه حسين الرائدة في مناهج البحث الادبي ، والتي أراد أن يطبق فيها منهج ديكارت الفلسفي في الادب · وكان طه حسين يملأ سمع الحياة الفكرية وبصرها في تلك الايام · كما شهدت هذه الفترة اولى المحاولات لدراسة مسألة هامة في التاريخ الاسلامي، وهي مسألة الخلافة ، من وجهة نظر عقلانية تفحص النصوص بقدر كبير من الحرية والاجتهاد · كانت تلك محاولة الشيخ علي عبد الرازق في كتابه « الاسلام وأصول الحكم » ·وشهدت الفترة ترجمات لطفي السيد وجهوده لتأسيس فكر ليبرالـي يدعم جهود « سراة البلاد وأعيانها لحكم مصر » فربط الاحرار لحركتهم بفكرة القانون والنظـام والحكـم العصري والادارة الحديثة واطلاق صفة الدستوريين على انفسهم ذو دلالـة هامة ، فكل هذا يشير الى ان شعارات الثورة الفرنسية الكبرى في الحرية والرخاء والمساواة ، التي كانت ثورة جذرية ضد حكم القرون الوسطى الاقطاعي ، قد مدت الاحرار بزاد فكري وسياسي يستعينون به على مقارعة مفهومات الامامة وتقاليدها وشعاراتها ·

ولكن التخلف الحضاري لم يتح لمبادىء الثورة الفرنسية الكبرى ان تؤتي أكلها في واقع عرب الشـام ومصـر ، لان البرجوازية الوطنية « المحلية » التي تصدت لقيادة الثورة ضد الاستعمار وتصفية النظام الاقطاعي ، لم تكن مؤهلة تاريخيا، لانجاز ثورة حاسمة وجذرية ضد الاستعمار والاقطاع فـي

المجالين السياسي والفكري ، وذلك لعدم توفر ظروف نمو طبيعية لها ، في ظل سيطرة الاقتصاد الاستعماري العالمي ، وقوة الاقطاع المحلي ، ولذا جاء فكرها مترددا وملفقا ، وسياستها تقبل بأقل من انصاف الحلول • واذا كان هذا حال الاقاليم العربية التي سبقت اليمن في الاخذ ببعض وجوه التطور والحداثة الهامة ، فلا يستغرب وجود امام (٤) على رأس حكومة الدستوريين ، فقد كان هذا تعبيرا بليغا عن طبيعة القوى التي تحالفت لاسقاط حكم الامام يحيى الفردي • وكانت مسألة البيعة محور البرقيات التي تبودلت بين الجامعة العربية و « الامامين » عبد الله بن الوزير ، واحمد حميد الدين •

- ٢ -

ترك شاعرنا اليمن وراءه بعد ان شاهد « مصرع الابتسامة » ، وراح يبحث عن منفى ، وأوصدت الابواب العربية في وجهه ، فكانت دولة الباكستان ، منفاه و « محط كل آماله » •

وهي دولة كانت وما زالت تعتمد على الاسلام لتحديد هويتها وتثبيت قواعدها ، وقد كان حجتها الكبرى للانسلاخ عن الكيان الهندي الكبير •

---

(٤) لقد عمت الامامة كل مظاهر الحياة ، فقد نصب مقدما ديوان الانسي « ترجيع الاطيار •• » الرافعي اماما للادب ، وصرح احدهما بعد سنوات انه معجب بالعقاد وطه حسين وهما خصما الرافعي في المعارك الادبية المعروفة •

وكان شعر فترة المنفى مزيجا من الحنين الممض الى الوطن والتملي في أفكار الرائدين محمد اقبال ومحمد علي جناح • أولهما : الاب الروحي للدولة الاسلامية والثاني مؤسس دولة الباكستان • ولعل النزعة الروحية لدى اقبال وروح الجموح وايمانه العميق كمفكر وشاعر بدور الفكر في صنع اقدار الامم والتاريخ ، وروح التجديد التي تشيع في شعره ونثره حببت الى روح الزبيري هذا الشاعر العملاق ، فعرب بعض قصائده ونشرها عند انتقاله الى القاهرة في مجلة « المسلمين » • وفي هذه الفترة ساد الطابع الاسلامي وشعر المناسبات في شعره ايضا • فنجد قصيدة بمناسبة الذكرى الاولى لتأسيس الباكستان (٥) وقصيدة تحية عبد الوهاب عزام (وهو من ممثلي الاتجاه السلفي في فكرنا العربي المعاصر) وغير ذلك من الموضوعات التقليدية التي نجدها في شعر ممثلي مدرسة دار العلوم ان جاز التعبير •

لم يكن الحنين الى اليمن وسائر أقطار العرب في ذلك المنفى البعيد في شبه القارة الهندية مجرد عاطفة عادية بل كان يمثل نزوعا عميقا في وجدان الشاعر الى كل ما هو عربي وقد اقتنع بأن « حواجز اللغة » (ثورة الشعر ص ١٥٩) جعلت قضية اليمن مجهولة في الباكستان • فهذا الحاجز

---

(٥) من الطريف ان نذكر هنا ان البيت الذي نتغنى به كثيرا في المناسبات الوطنية وهو :

يوم من الدهر لم تصنع اشعته
شمس الضحى بل صنعناه بايدينا

قد ورد في قصيدة الزبيري بمناسبة العيد الاول لقيام دولة الباكستان •

بالنسبة للشاعر كان المنفى الثاني داخل المنفى الكبير • وليس هناك ما هو أقسى على الشاعر من « غربة اللسان » فاللغة غايته ووسيلته في آن واحد •

وما ان سطع نجم ثورة ٢٣ يوليو حتى توجه الشاعر الى أرض الكنانة • وقد عمقت سنوات المنفى شعوره بالانتماء العربي فكرا ومصيرا فأقبل على حياته بآمال كبار تزيد صقل سيف المقاومة ومسح الصدأ الذي علق به • وكان ميلاد الاتحاد اليمني •

وفي هذه المرحلة تخلى الشعر عن مكان الصدارة وتوالت الكتب والكتيبات ، ويبدو ان الشاعر أحس وأدرك بأن الشعب قد دخل المرحلة العقلية « وبلغ فيها رشده » وهي مرحلة كان يراه بعيدا عنها عندما كان يرزح في مـا أسماه « المرحلـة البدائية » (ثورة الشعر ص ٢٣ ـ ٢٦) وهو وصف جائر لعرفهم فهما حرفيا • ولذا آثر في هذه المرحلة ان يخاطـب عقله في « الخدعة الكبرى » « واق الواق » و •• الخ • ولو أمعنا النظر لوجدنا ان خط تطور الشاعر نفسه ينطبق على خط تطور عقلية الشعب • وهذا الخط نفسه يرسم بوضوح تدرج وتطور أشكال المقاومة ، فمن التململ والانين والاماني الرومانطيقية المجنحة التي نجدها في شعر الكثيرين من الاحرار الى تبصر واع بالسياسة ومسالكها ، ثم الى التخطيط والتدبير لكل ما يتطلبه عمل سياسي يقدم نفسه ممثلا للجديد ومبشرا به • اننا لا نجد هنا فهما حديثا للحزب والتنظيم والنظرية كما تعرفها الاحزاب الاشتراكية وعلينا أن لا ننسى أن حركة الاحرار (ثم اتحاد اليمني) انما تأثرت في فكرها واسلوبها

التنظيمي بالاحزاب الليبرالية العلمية في العالم العربي ولكن الاحزاب العربية الكبرى في تلك السنين فرضت نفسها على وجدان الزبيري الشعري الاصيل فعادت قصائده تصول وتجول في طول اليمن وعرضها شمالا وجنوبا ، تلج على الائمة قصورهم الكئيبة وتنشر الامل في مقابل القات ، معلنا للجميع بأن صوت المقاومة ما زال حيا ، وصداحا وقويا في تلك السنين العجاف التي كاد الناس فيها يعتقدون بأن الامام قد « سد مسارب ليل اليمن » .

ومن الصعوبة بمكان ان نبت في مسألة الانتماء الفكري لشاعرنا الى حزب عقائدي عربي دون آخر ولكن الذي يبدو جليا في شعره هو ان الاتجاه العربي العام ساد هذه المرحلة . وكانت مصر وثورتها تعقد آمال الشاعر .

وقصيدة « **مثاب وعتاب** » (ثورة الشعر ١٠٧ ـ ١٢٠) التي رد بها على السيد عمر بهاء الدين الاموي أصدق دليل على اعتزاز الشاعر بل وولائه لثورة مصر ، وهي في نفس الوقت قطيعة فكرية صريحة بينه وبين الاميري الذي لم يستطع أن يرى منجزات الثورة الوطنية في مصر ولا شك ان التزامه المذهبي الاعمى بمواقف جماعة الاخوان المسلمين حالت بينه وبين رؤية الجديد الذي أتت به الثورة ، وقصيدة الزبيري هذه أقرب الى الدعاية السياسية المباشرة منها الى الشعر السياسي . انها حملة اقناع مقفاة بعدد مناقب الثورة الوطنية في مصر ، بعد مقدمة طويلة تصف مدى حب الشاعر لصديقه .. يقول الزبيري « لقد كانت تجربتي الانسانية قبل عشرة اعوام، ثم فصلتني عنه اعوام طوال ، واحداث جسام ، **واختلاف في**

بعض الاتجاهات والمواقف السياسية، وأظن انني بهذا الاختلاف والانقطاع قد جفوته شخصيا ونسيته ، وكتب قصيدة وعرض فيها بالعتب الاخوي ... وأفزعني .. فكتبت الرد عليه في هذه القصيدة » (المرجع السابق) . ان مسألة الوحدة العربية ومقاومة الاستعمار وضرورة الوحدة هي المحتوى الاساسي لهذه القصيدة التي ليست بأية حال من جيد شعره ولكنها تصور موقفه أدق تصوير . انه يدعو الاميري الى ترك « الخلافات الصغيرة » ويبدو ان اعتراضات الاميري والاخوان بدت للشاعر صغيرة بمقارنتها بالاهداف التاريخية الكبرى فهو ينشد الصانعين نواة وحدتنا .

ولا يريد أن يرى عروبته تهوي (ضحية قادة تراث الاولين متنافسين) .

ويعرف كل من عاصر هذه المرحلة من تاريخ العرب المعاصر تلك الموجة الدفاقة من التفاؤل التاريخي التي سادت في الحياة الفكرية والسياسية فجعلت الناس يعتقدون ان الوحدة العربية غدت قاب قوسين أو أدنى بل وانها عملية سهلة بسيطة لا تتطلب غير المزيد من المهرجانات والخطب ونشر الفتاوى السياسية والعقائدية (٦) . ان لايمان الزبيري

---

(٦) ان الفكر القومي بتبسيطه المفرط لهذه القضية الكبرى قد جنى عليها وجعل كل رد فعل لفشل اية تجربة في طريق الوحدة يبلغ حد اليأس بل ويذهب الى الشك في امكان حدوثها ، وهذا ليس شيئا اخر غير ما يطلق عليه في مصطلحات الفكر اليساري « البرجوازية الصغيرة » ، فهي لا تتصدى ابدا لمهمة تاريخية كبيرة وان فعلت ذلك فهي تخوض المعارك بأسلحة فاسدة ، ←

بالوحده العربية وجهه المحلى فقد كان يرى في كل نصر يحرزه الوطنيون العرب في أي قطر عربي بشرى بانتصار الثورة في اليمن • وكان الامام يرى في ذلك نذيرا باليوم الاسود • ان ادراك الطرفين (الاحرار والامام) لاهمية العامل العربي في سير الاحداث باليمن جعل كل منهما يسابق الاخر الى كسب ود الاقطار العربية وكلاهما حاولا دائما ملأ الفراغ السياسي الذي نجم عن افلاس الامامة كنظام عتيق في طريق الانقراض وعن تجمد الحركة السياسية الوطنية بالشعارات العربية العامة من قبل الاحرار ، وبالانضمام ، الى اتحاد الدول العربية على اثر الوحدة المصرية ـ السورية تارة ، وارسال نجله في زيارات ودية واعلان سياسة خارجية كانت أشبه بثوب فضفاض على جسد الامامة الهزيل تارة اخرى ، وهو لم يترك الباب مفتوحا امام الاحرار للالتقاء بالقاهرة •

في خضم كل هذه الاحداث لم يفارق الزبيري (كغيره من ابناء اليمن) ذلك الاحساس العميق بتميز قضيتهم وخصوصيتها ، الذي يجعلهم يصطنعون لليمن مقاييس غير تلك التي يستخدمونها عندما يفكرون في أوضاع العالم العربي وقضايا العصر • وقد أنستهم هذه الخصوصية التي لا مراء فيها ان لها هي نفسها جانبا عاما تشارك فيه ككل المجتمعات البشرية وتخضع مثلها لسنن التطور العامة • والخاص في

وتقدم المصلحة الاجلة للثورة قربانا مع مذبح مصلحتها العاجلة • ولا يفوتنا هنا ان نشير الى ان خلو المجال من برنامج واضح دقيق لليسار في هذا الصدد بل وارتكابه لاخطاء تاريخية خطيرة جعل المبادرة دائما في يد فكر البرجوازية الكبيرة والصغيرة بل والاقطاع في بعض الاحيان •

علاقة دائمة بالعام وهذه العلاقة لا تنفي أن له « أي الخاص » جدله الداخلي الخاص به بل تشترطه،فنفي أحدهما نفي للاخر ولا يكونان الا معا • وهذه الخصوصية مشروطة في المرحلة الراهنة بدرجة دنيا من التخلف الحضاري تشارك فيه اقطار العالم الثالث الذي يلهث وراء ركب الحضارة التي يزداد بعدا عنا كل يوم ، فنتخلف لا بالايام والسنوات بل بالساعات ويقذف بنا بعيدا تحت مستوى التاريخ •

ان هذا الاحساس قد حال بين الزبيري وكثير من أبناء جيله وبين الارتباط الوثيق بتيار سياسي أو عقائدي في العالم العربي ، مما خلق لدى البعض وهما بأن هذا السلوك ينطوي على (براغماتية) « نزعة عملية تكاد تكون مساوية للانتهازية » • والواقع هو ان هذا الموقف يمثل الجانب الايجابي من هذا الشعور الحاد بالخصوصية لدى شاعرنا (٧)، انه يرفض ان يهجر أرضه ويحلق في سماء غريبة ، فرغم ان عمومية الفكر القومي وميله الايجابي الى التأكيد على الوحدة في كل المستويات كانت بلا شك عاملا ايجابيا هاما في بلورة فكر قومي عام ، الا أن العام هنا انطوى دائما على اهمال يكاد يكون تاما للخاص أي بوضع كل بلد عربي على حدة

---

(٧) ما زلت أذكر كيف عاد الاستاذ أحمد محمد نعمان الى القاهرة « في ١٩٥٦ ـ او ١٩٥٧ » من مؤتمر قومي عام عقد في دمشق ، مندهشا مستغربا، وكرر على مسامعنا « ان الاخوة العرب لا يقدرون حتى على مجرد تصور الاوضاع في المتوكلية ، وكان الحديث عن القادة والمفكرين الذين اشتركوا في المؤتمر •• استثنى فردا واحدا فقط من هذا الحكم هو محمود أمين العالم » •

مما جعل الاقليمية تنتعش بعد فشل تجربة الوحدة وبعد أن أثبت اصحاب الفكر القومي بكل تياراته انهم غير قادرين على أن يبروا بوعودهم في خلق وحدة العرب وصياغة اسلوب قومي عصري لثورتهم الاجتماعية • لم يبروا بذلك حتى عندما غدوا متربعين على دست الحكم معلنين بذلك ، ومقدمين الدليل على صواب تشكك جيل الزبيري في جدية شعاراتهم وقدرتها على معالجة الاوضاع المتوكلية • ألا نشاهد كل يوم في عالمنا العربي دليلا جديدا على ان القومية المقطرة انما هي قناع اقليمية ضارية ذات أفق ضيق لا تمتد حتى الى حدود كل اقليم (٨) • ان مضاربات الرجعية العربية والاستعمار العالمي انما تجد مرتكزها الامثل في هذه العقدة • وحل هذه المسألة لن يتم الا بتجاوزها أي بطرح اشتراكي علمي لقضية الوحدة العربية والاشتراكية (٩) • وما كان لشاعرنا ان يفهم قضية اليمن في هذا الافق وهو ابن عصره ، انا بذلك نطالبه بأن

---

(٨) لا أريد ان أقول ان الزبيري قد اكتشف تحت دعاوى الشعارات القومية محتوى اقليميا وعجزا فاجعا تجلى في هزيمة حزيران ، ولكن الذي لا شك فيه انه كان يدركه حدسا غامضا في سياسات وشعارات السياسة العربية المعاصرة •

(٩) ان هذه التجارب التاريخية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية لا تثبت ان الطبقات البرجوازية العربية والاقطاع العربي غير قادرة على انجاز الوحدة العربية فحسب بل انها تقاوم هذه الوحدة بضراوة • ان بعث الامة الحقيقي منوط بالكادحين العرب ، بالعمال والفلاحين وبمن ينضوي تحت لوائهم من الطبقات والمراتب الاخرى •• ان المشكلة الموهومة للتعارض بين ما هو قومي وطبقي سوف تحل مرة والى الابد عندما يكون تحقيق الوحدة مهمة نفس القوى التي تعمل على التغير الاجتماعي » •

يتمثل نتائج تجربة فكرية عملية طويلة لجيل اخر ، كان هو وأبناء جيله مقدمة لازمة لظهوره وتطوره ، وجيلنا لن يؤكد ذاته بقدر ما ينفي الجيل السابق فقط بل بقدر ما يتمثل تجاربه ويتجاوزها جدليا ٠

لم يكن هذا الشعور القوي بخصوصية القضية اليمنية لدى شاعرنا مرادفا لانكار البعد القومي لقضية اليمن أو تخليا عن آمال الامة العظيمة في وحدة شاملة لكل اقطارها وأوضاعها المترامية الاطراف ٠ بل لا نعدو الحقيقة اذا قلنا بأنه الى ما قبل صدور « واق الواق » كان ما يزال مستمرا في خطيئة الاحرار الكبرى وهي الاعتماد على الاشقاء العرب ، وان استبدل مصر فاروق والاخوان المسلمين بأجهزة البيروقراطية المعقدة والمتعددة ٠ وحتى بعد كتابة هذا لم يبلغ حد الرفض لكل ما هو عربي بدعوى انه غير مرتبط بالارض اليمنية كما يفعل محمد نعمان لا سيما في كتيبه « أزمة المثقفين » ٠ ونحن هنا امام محاولة صريحة ترفض باسم خصوصية الظروف اليمنية كل ما هو جديد وتقدمي في وطننا العربي ٠ ان الخصوصية عندما تفهم على هذه الصورة انما تكون بمثابة الباب الخلفي للارتباط بالاتجاهات والسياسات الرجعية في العالم العربي ، لانها وهي تتملق غرورنا الاقليمي توصد الابواب دون تطلعنا الى الجديد والصالح في وطننا العربي ان كل اقليمية في العالم العربي رجعية بطبيعتها وهي بائسة شحيحة حتى فيما تقدم من وعود ٠ واذا كانت الاقليمية تعبيرا عن مصالح شبه الاقطاع وبرجوازية تجارية نامية فانها تقدم أتعس صور الاقليمية فهي لا تستطيع حتى أن تقف على قدميها ، والطريق الوحيد الذي

تجده مفتوحا امامها هو الاستناد الى رجعية اخرى تستند بدورها على الوصي والراعي الامبريالي الكبير الولايات المتحدة الامريكية ٠

وإذا كان الزبيري في أيامه الاخيرة قد أعان تمردا صريحا وعداء سافرا لوجود ج‌ع‌م في الشمال ملتقيا بذلك بصورة او اخرى مع كل ممثلي الاقليمية ومع الوطنيين المخلصين الذين كانوا يرون مقاومتهم لاخطاء وجرائم ما يسمى عادة « بالجهاز العربي » في الشمال والجنوب ، واجبا وطنيا وقوميا فانه لم يلجأ الى الاتصال بالخارج وحبك الدسائس الصغيرة والكبيرة كما فعل الكثيرون وما زالوا يفعلون ، بل توجه الى من اعتقد بأن مفتاح الموقف بكل تعقيداته في يده : الى القبائل٠ ان هذا بلا شك عمل يملك تراثا راسخا في تاريخ المنطقة (وسنناقش صوابه من عدمه في نهاية البحث) لقد أصبح داعيا من الدعاة والاخير في تلك السلسلة الطويلة ، ولقد ظن ان قيثارة الشعر وفصاحة الخطيب يمكنها ان تواجه ظلام العصر وأساليبه الملتوية ، أراد ان يقوم بقلبه ولسانه اعوجاج القرون المتطاولة ومصارعة كل قوى الشر ٠ وقبله لم يرحم التاريخ دون كيخوته رغم كل نبالة مقاصده وشرفها ، واين من طواحين الاول عالم الثاني حيث تدبر الدول بمخابراتها وعلمائها ومفكريها قتل الافراد والجماعات بصورة أنيقة ومرتبة ومنظمة ؟٠

وقبل أن تلوح بشائر سبتمبر « ايلول » تكون لدى شاعرنا رد فعل عنيف على التواكل والاعتماد على الاشقاء العرب ٠ واصطبغ هذا الشعور بغضب جامح ٠ وكثيرا ما كان

يردد في القاهرة : « من العار ان يموت الامام في فراشه » وبعد ذلك بوقت قصير اضاءت سماء ليل الحديدة رصاصات اللقية والعلفي ومحسن الهندوانه • كان الزبيري يتحرق شوقا الى فعل يثبت آدمية اليمني ، ويتحدث عن ثورته حتى ولو كان عملية اغتيال فردي وقد رأى في فعلة الوطنيين الثلاثة الجريئة « مواقف بطولية ، ردت العزة الى كل يمني وصنعت منه مثلا أعلا وأحدثت انقلابا روحيا في الاعماق ، غيرت مجرى الحياة النفسية في اليمن تغيرا عجيبا » (ثورة الشعر ص ٧٧) •

لم يكن الزبيري يعرف ان الاغتيال الفردي ، الذي ليس جزءا من عمل ثوري شامل لا يمكن أن يحقق نتيجة سياسية ، وهو في أحسن الاحوال ، قد يعين على اسقاط الهالة التي يحيط الحكام الاقطاعيون أنفسهم بها • ولعل هذا هو بالتحديد دور العمليات الفردية في شمال اليمن ، وفي أثيوبيا حيث يسود حكم أوتوقراطي بشع • ان الحركة الوطنية في العالم العربي لم تدرك عدم جدوى الاغتيال الفردي الا عندما نضجت الافكار السياسية عند ممثلي اليسار • وأما الجماعات السلفية فقد ظلت الى حين انهيار كيانها السياسي ترفع شعار الى مصاف العقيدة •

وبلغ رفض سياسة الاعتماد على الاشقاء عنده حدا جعله يكتب هذه السطور : « اما أنا فأضرع الى الله أن يكتب سياسة الجمهورية العربية على الابتعاد عن التدخل الثوري في الشئون الداخلية لليمن حتى لا تهزها العاطفة في يوم من الايام فتتصدى للقيام بعمل ثوري ضد الرجعية اليمنية نيابة

عن الشعب • لان ذلك يعني ان يدمغ الشعب بوصمة في جبينه الى الابد » •

وليس عسيرا ان نرى في هذه الكلمات شيئا أكثر من ثورة غضب على سياسة درج الاحرار على اتباعها سنوات طويلة ، فكان ان وزعتهم على المهاجر وأبعدتهم عن الثورة المنشودة وجعلتهم لا يتحركون الا في مناسبات قبل ان تسمح بها الظروف الا عندما يشب خلاف بين حكام السعيدة وحكام قطر شقيق • لقد أشبع الشاعر هذه السياسة نقدا وتجريحا في توطئته الحارة الصادقة لقصيدة (تحية الخروج) وكأني به يتطهر من آثام مرحلة كاملة عبرت ، ويتطلع بوجدان صاف الى مشارف فجر جديد (ن• م• ص ١٢١ ـ ١٢٧) •

وعندما نتذكر ان الكتاب صدر قبيل ٢٦ سبتمبر يتضح لنا ان النص السابق اشارة صريحة الى ما يجري في «كواليس» السياسة •

ويبدو الاتحاد اليمني ـ وهو الامتداد الطبيعي لحركة الاحرار اليمانيين ـ في هذه الفترة في طور احتضاره ، فقد توالت عليه الضربات وتكالب عليه خصومه في الداخل « عدن » وفي الخارج ، وكان لكل هذا أثره السيء على فكره ونهجه ، فرغم هذه النقلة الروحية القوية لدى الزبيري واصرار احمد محمد نعمان على ضرورة « اثبات الذات » و « الوجود » و « فهم القضية » فقد ظل الاتحاد اليمني أسير تاريخه ، لا سيما وقد فتت السنون عضد رجليه وان ظلت الجذوة مشتعلة في وجدان الشاعر ، وعقل السياسي •

وجاء فجر سبتمبر ليفتح امام الجميع أفقا جديدا رحبا مشرقا وتوالت احداثه مترعة بالآلام والدماء والعذاب • ولكن من ذا الذي يجرؤ على القول بأن ميلاد جديد يتم في يسر وسهولة ؟ أليس العنف قابلة التاريخ ؟

جاءت كل أحداث ما بعد سبتمبر اختبارا عسيرا لشعارات ومبادىء ١٩٤٨ ، ولذا فان محاولة سبر واقع ١٩٦٢ بالرجوع الى ١٩٤٨ امر يكاد يمارسه كل من يفكر في الامور العامة وليس هذا ضربا من الهروب الى الماضي ، ولكنه دليل على ذلك الركود الذي كاد يوقف الزمن في ربوع مملكة الامام ، فاذا نحن استثنينا فترة « حكم » الاحرار الذي دام اسبوعين نجد أن ٢٦ سبتمبر أول تجربة لفكر الاحرار لا كتنظيم سياسي بل كأفراد وعقلية ومنهج • فماذا كان جواب الزبيري عن « طبيعة النضال من حيث هو عمل وتطبيق ومجابهة لحقائق الحياة لا من حيث هو نظرات مجردة » (ثورة الشعر ص ١٢١) •

وقبل ان نبسط جوابه سنعقد مقارنة بين ١٩٤٨ و١٩٦٢ لم يطرأ تغير نوعي على الفئات والطبقات الآتية على امتداد هذه الفترة • فالتجار ورجال الاقطاع المستنير نسبيا ، والشباب المتعلم ذو الثقافة العربية الاسلامية والمتأثر بحركة التنوير العربية في مصر والشام ، ويمكن اعتبار الضباط والمدنيين العائدين من العراق ضمن هؤلاء ، فقد كانت البعثة مدنية وعسكرية • ان عدم حدوث هذا التغير النوعي حال دون ان تستطيع اية طبقة لوحدها ان تقود وراءها المجتمع في ثورة او انقلاب • وان كنا نجد ان طبقة التجار قد قوي ساعدها

كما ان ابناء الفئات الوسطى قد ازداد عددها في صفوف الضباط في الشمال او بين العاملين في التجارة والشركات في عدن • فقد ظلت طوال هذه المدة منجما يمد حركة مقاومة الامامة في الشمال بالرجال والوقود •

وحركة الاحرار تمثل في الاساس مصالح فئات وطبقات في الشمال كانت ترى في الامامة عائقا يعوقها عن استلام السلطة وممثلو الاقطاع احد الاطراف الاساسية • وعداء هؤلاء للامامة في الواقع يمثل في جوهره صراعا داخل طبقة واحدة ، تناقضا بين ممثليها ، لا يخرج بمجمل فكره وأهدافه عن آفاق الطبقة المشتركة • (وقد حال هذا دون التحاق الفئات والطبقات الاخرى بحركة وهي الاغلبية الساحقة بحركة الاحرار) • ولذا لا نستغرب اذا لم تجد الوحدة اليمنية مكانا في برنامج الاحرار **فالوحدة** اليمنية ما كانت ولن تكون هما اقطاعيا • **انها لب موقف الذين يمثلون الجديد في مجتمعنا •** وليس هذا الاهمال المقصود لشعار الوحدة في حركة الاحرار قصورا بل عجز في صميم الموقف السياسي والاجتماعي لحركة الاحرار ، ولعل هذا يفسر لنا اعتبار الزبيري شعارات مؤتمر الطلاب اليمنيين الدائم بمصر سنة ١٩٥٦ ، لا سيما شعار مقاومة الاستبداد والاستعمار « جنونا » على حد قوله • ولم يغير موقفه هذا نظريا الا في ١٩٥٨ • ولا يزيد هنا ان نقف عند قول البعض ان سكوت الاحرار عن الاستعمار ضرورة تكتيكية لجأوا اليها ليضمنوا حرية العمل في الجنوب اليمني، وقول آخرين انه التقاء استراتيجي بين مخططات بريطانيا وحركة الاحرار • وان كنا نميل الى القول بأن حركة الاحرار

لم تخل من فكر وعمل ممالىء لبريطانيا ، يفصح عنه اشارة صريحة في الميثاق الوطني المقدس ، تجعل بريطانيا في الجنوب اليمني جارة ، لها كل حقوق الجار (ليس الميثاق بين يدي لاورد النص) ٠

ان أبشع نتائج الامامة هو قتلها الاحساس بوطأة الوجود الاستعماري في جنوب الوطن ، في نفوس أبناء الشمال ، الذين قاسوا منه ألوانا من العذاب ترجع الى عهود خلت من تاريخ البشرية ٠ ان أي نظام بالمقارنة بالامامة يبدو في عيونهم رحمة من السماء ، وهكذا وجد التجار جنتهم المنشودة في ظل حكم بريطانيا الاستعماري حيث لم تتح لهم ظروف السوق العالمية الامبريالية الا دورا هامشيا ، فانهم كطبقة نموا ، بعيدا عن الجو « الصحي » الذي وجدت فيه البرجوازية الاوروبية النامية نفسها ٠

انهم ملحقون كالعمال وان تفاوتت شروط الالحاق بالسوق الامبريالية ٠ لقد خصتهم الامبريالية قبل أن يشبوا عن الطوق ٠ فنشأوا مبرئين من كل طموح الطبقة الجديدة وفنونها ، انهم ينتمون الى العالم القديم ولا يجرؤن على التطلع الى الجديد الا في ظل الحامي الكبير ٠ انهم كطبقة صاعدة مرشحة اكثر من غيرها لان تكون جذرية في عدائها للامامية لان الاخيرة تسد عليها أفق السوق والحياة ٠ ولكن ظروف تطورها في عدن المستعمرة ، والحاق الامام لمثليها بمقامه ، اذ جعل من أكبرهم شريكا له ٠ حالت دون أن يقوى عودها الى درجة تحررها من ظروف النشأة والتطور وعواقبها ، فجاءت

هزيلة تعاني شحا قاتلا في المقدمات الموضوعية والذاتية في واقع يلفه التخلف لفا • ولم يتغير وزن ثقلها النوعي الا بعد سبتمبر وبقدر استغلالها لمواقعها في جهاز الحكم •

- ٥ -

لقد فاجأ سبتمبر حتى الذين وجهوا نيران مدافعهم على قصر البشائر فجميع الاطراف لا تملك برنامجا واضحا للعمل وتنظيما قائدا • ولعل ممثلي التجار المنتمين الى الفئات الوسطى كانوا اكثر تحسسا من غيرهم لمهام المرحلة ولكنه ظل حلما غامضا بالثورة السياسية والاجتماعية والفكرية المرجوة •فرغم مضي أعوام على تجارب مصر والعراق والوحدة السورية المصرية على النطاق العربي ، واكتساح الاشتراكية مساحات واسعة من العالم ، الامر الذي جعلها تفرض نفسها على وجدان وعقول الناس في العالم حبا أم كرها ، فان أهداف سبتمبر جاءت نقلا أو ترتيبا جديدا لاهداف ٢٣ يوليو • ففي ظروف الشمال كان هذا أبعد غايات الجموح والثورة •

وكان الوجود المصري في الشمال بمثابة صمام أمن حديدي ، لقب نفسه « حكما » مسلحا بين جميع الاطراف ، وقد فشل في نقل تجربة مصر التي اعتبرها رائدة الى واقع شمال اليمن • ان الجهاز العسكري المصري بالبيروقراطية العسكرية والمدنية المعقدة • وبعمودها الفقري — جهاز المخابرات الذي نقل كل خبراته من مصر الى الشمال ، اصطدم بالاصدقاء قبل الاعداء • ان استبدادها العارم المغرور خلق كرها عميقا

لاساليبها بل وجعل البعض ينظر الى الوجود المصري على انه حكم أجنبي مفروض بالحديد والنار ، ولا شك أن هذه النظرة غير صحيحة اذ تلغي ايجابيات الدعم الاخوي ودوره في تثبيت مواقع الجمهورية ٠

كما أنه حتى في أسوأ الاحوال ليس الا احتلالا لم نقاس منه وحدنا بل قاسى منه اخوتنا في مصر نفسها ٠ ان نفس الايدي التي عاشت في الشمال هي التي صنعت هزيمتنا النكراء في ١٩٦٧م ٠ ان هذا الجهاز قد برهن على انه لا يمكن ان يحمي الثورة في مصر وانه لا يمكن ان يصدرها الى أجزاء الوطن العربي الاخرى ٠ وفاقد الشيء لا يعطيه ٠ ان قول ديجول المشهور يصدق على هذه الاجهزة ورجالها (الطموح بدون كفاءة جريمة) ٠

واذا عدنا الى الاحرار نجد انهم في ظل الجمهورية احتلوا وما زالوا مراكز رئيسية في أجهزة الدولة في رئاسة الجمهورية الى الوزارات ٠ فما هو تصورهم لدورهم في السلطة ٠ ان كتاب « من وراء الاسوار » الذي نشره محمد احمد نعمان يلقي الضوء على هذه المسألة ٠ والكتاب هو مجموع الاجابات التي أرسلها الاحرار اليه من السجن في حجة عن تصورهم لمستقبل الدولة السياسية في الشمال في حال قيام نظام جديد للحكم ٠ وقد جاءت أجوبتهم على تعددها وتفاوتها من اليأس من الشعب الى السخط عليه ، واقتراحات تقسيم الشمال على أسس طائفية خالية من النظرة الشاملة ولم تقدم بمجملها حتى رسما أوليا لبرنامج سياسي ٠ واما المشكلة الاجتماعية فقد ظلت بعيدا عن اذهانهم (من الطريف ان معالجتهم لم يرق الى اكثر من

الاستشهاد ببعض حكم ابن خلدون) والزبيري كان في مصر آنذاك ولكن يمكن ان تتصور اجابته على ضوء آرائه عندما عاد الى الوطن بعد سبتمبر ، فهو لم يكن في الاساس بعيدا عن اخوته في انقلاب ١٩٤٨ · ولكن الملمح البارز في تفكيره السياسي هو علاقته بمصر التي لمسنا جانبا منها في اشارته الواضحة الى مسئولية اليمنيين عن صنع ثورتهم واذا أضفنا الى هذا الموقف الواضح ، سلبيات الوجود المصري التي أشرنا اليها وظروف حرب التدخل التي شنها الاستعمار والرجعية العربية فاننا نضع يدنا على عقدة الموقف الاساسية ، كان الزبيري يرى ان السلام يعد المثال وان طريق الجمهوريين جميعا ودور مصر لن يؤدي الى احلاله في ربوع الشمال ، ولن يكفي الدولة المنشودة حلم الاحرار القديم · وهنا نجد تفكيره يتفتق عن تكوين « حزب الله » انها عودة الى مصادره الثقافية الاولى الى عهد النشأة والتكوين وايام الدراسة في دار العلوم ·

كان الزبيري يعتقد ان القبائل التي سبق ان خاطبها في « واق الواق » محببا اليها تاريخها ، بل وداعيا اياها الى الانتفاضة ، هي مناط الرجاء ، لا سيما اذا كان الاسلام شعار الدعوة ومنهاجها · ان كسب الحرب ضد الرجعية والاستعمار قاب قوسين أو أدنى · أراد الزبيري أن يطلق الى الابد ما أسماه بالمثالية المطلقة التي سادت فكر الاحرار في كل ما يتعلق بالبلاد العربية · لقد أدرك الزبيري موطن الضعف في حركتي ١٩٤٨ و١٩٦٢ · انه لابتعادها واهمالها التام للفلاح والقبيلي الفلاح · هذا الاهتمام ينبثق من وعي الاحرار

الطبقي وليس قصورا فكريا عابرا • فان سياسة انقلابات القصر والتركيز على العمل السياسي بين صفوف سراة البلاد وأعيانها ، هو اسلوب الاحرار • ولكن هذا لا يعني انه قد عرف كل الخلفية التاريخية والاجتماعية والسياسية ، لهذا الموقف الجديد نظن انه يعالج بالخروج الى الناس • وهنا نجد ان الشاعر يطغى على المفكر والسياسي نظرة واسلوبا • ان ايمانه الذي لا يحد بالكلمة والدعوة والفكر دفعه الى أن يخرج من صنعاء ليطوف هاديا ومبشرا « بحزب الله » ، بالاخوة والسلام ، في ظروف قاسية وواقع صلب متحجر شحيح ، ألهبت أوارة قرون متطاولة من الجهل والظلام والاستبداد والجوع والعطش •• ولكن ادراكه لموطن الضعف لم يجعله يتجاوز فكر الاحرار ، بل عاد به الى مصدر من مصادر فكرة الرئيسيين الى الاسلام • ولكن ما يبدو في الظاهر عودة الى منابع الاسلام هو في جوهره عودة الى مصادر تخلفنا ، فليس الاسلام هو الذي يحكم العلاقات في المجتمع القبلي ، بقدر ما يحكمها العرف الذي يبرر وينظم العلاقات ، مستعينا بلا شك بتصور للاسلام مشوش ومضطرب له علاقة ما بقصة الشيعة ، كان الامام فيه يمسك بزمام الفتوى والتأويل والتفسير والاجتهاد ، في مجتمع تحكمه علاقات اقطاعية متخلفة بطيئة التطور الى درجة الركود تغلفها علاقة أبوية في الريف بين الشيخ والفلاح ، تسدل ستار أمن الرضا على علاقات الاستغلال القاسية •

لم يكن الزبيري من الذين يرون انه لتغيير افكار الناس يجب تغيير ظروف حياتهم ، فالقبيلي من يتبع الواعظ لحسن

كلامه ووقعه في النفس ولكن ادخال الوسائل الحديثة للانتاج سيجعل كلام الواعظين ميسور الفهم • وبهذه الوسائل الحديثة يمكن كسر الطوق الجهنمي الذي جثم على حياته كلها • فهو قد عارض الحكومات المركزية لا لانه مشغوف بالحرية الفردية، ويطمح الى حياة خالية من أغلال الدولة ، أو لانه شرير بطبعه ، والصورة الاولى يرسمها المستشرقون الهائمون بحب حياة « البدوي الحر » والثانية كثيرا ما ترد في حياة أبناء المدن اليمانية •

ان الدولة تفرض نفسها عليه كنقيض لوجوده ، فلم يكن اصلاح حياته او تقديم أبسط الخدمات التي تقوم بها الدولة واردا في حسابها في يوم من الايام ، وعليه بعد ذلك أن يقول « حفظ الله الامام » كما يقول البريطاني « عاش الملك » •

وهكذا تتراجع الافكار الدستورية النابعة من المصدر الثاني لتفكير مبادىء الثورة الفرنسية مفسحة الطريق ، في الوقت الذي تتاح له لاول مرة فرصة الاتصال بالناس الذين أحبهم • لقد عاد اليهم كما كان يعتقد بزاد روحي ليس غريبا عنهم • له جذور بعيدة الغور في تاريخها • ألم يشر المعري في رسالة الغفران الى أن أرض اليمن تعج بالدعاة ولكن المبادىء الدستورية لم تزل لها جذوة النفس والعقل تتمثل في مشروع الدستور الذي استهله بأنه استلهام للاسلام ، وهذا لا يعني البتة انه دستور اسلامي كما يفهم الاخوان المسلمون ، فمثل هذا الدستور لم يثمر الى يومنا هذا من قبلهم •

ان موقف الزبيري مبني على يقين قد وصل اليه بعد تجارب عمر بأكمله ، مفاده ان الاسلام انجح دعوة يمكن بها شكم جماح القبائل والتأثير في الفلاح اليمني آنذاك يمكن سحب البساط من تحت أقدام أعداء الجمهورية · الملكيين والرجعية والاستعمار · والواقع ان هذا سلاح ذو حدين ، فهو أولا استجابة غير صحيحة لظروف التخلف المريع ، وثانيا يقود الى طريق مسدود ، وان سلمنا جدلا بأن أصحابه وصلوا الى الحكم فان النتيجة ستكون مسخا أشبه ببعض الانظمة الرجعية ولكن بدون بترول ، فالبترول هنا مفتاح السر انه هو الذي يمسك « بالرمال » ، ويحول دون العواصف الكاسحة· وليس مذهب الحكم أو الشريعة الاسلامية ، فكلاهما لا وجود له في واقع التطبيق ·

أليس من المفارقات العجيبة أن كثيرا من الفلاحين اعتقدوا ان الزبيري ولي من أولياء الله ظهر في أرضهم ·· أليس هذا حفيا حازفا منهم الى المهدي المنتظر الذي سيملأ الدنيا عدلا بعد أن ملئت جورا · ان نتيجة عمله جاءت بعيدة عن مقصده ، ومن بعده صنع آخرون لا تربطهم اية رابطة بالفلاح او الانسان في اليمن ، من دمه قميص عثمان جديد وادعوا أنهم خلفاءه ، وهم لم يغادروا مقايلهم الدافئة في صنعاء · ان اهدافهم السوداء بعيدة عن عقله وروحه وتسيء الى تاريخه والى كلامه الحي بيننا في شعره ونثره ·

كان الزبيري يردد كثيرا في عهد الامام أريد أن أموت ورأسي على جسدي ، مشيرا بذلك الى قطع الرؤوس لعبة

الامام المفضلة في أعياد النصر • وقد مات ورأسه على جسده موتا لم يكن أقسى منه أن يلقى مصرعه على يد سياف الإمام • ففي أقاصي الشمال امتدت أيد أثيمة في ظروف ما تـزال غامضة ، فسقط الشاعر شهيدا مضرج الجبين •

ما أقساها نهاية وما أظلم قلوب الجلادين والمتآمرين ، حتى تمتد الى هامة شابت في الغربة • وبعيدا عن صنعـاء انطفأ سراجها ، وهو يحاول ان ينير الطريق للضالين أولئك الذين مثلوا ويمثلون في تاريخنا دور الجلاد والضحية ، لان الامامة قد أحكمت الطوق على حياتهم ، وجعلت بؤسهم وجهلهم حارسا أمينا للتخلف والدمار والموت ، انهم ما زالوا بانتظار ثورة حقيقية تكسر هذا الطوق وتوجههم الى البناء والحياة •

قليلون هم الذين يملكون فضيلة الانسجام والعمـل ، وشاعرنا منهم وقد دفع رأسه ثمنا ليقين استقر في وجدانه وعقله • ومهما اختلفنا معه صحة وجدوى هذا اليقين وأخذنا عليه مسلكه السياسي في ايامه الاخيرة فاننا لا نملك الا ان نحني اجلالا لجبينه المضرج بالدم •

وقبل ان أجمل خصائص شعره أود أن أقف عند قضية كثيرا ما أثيرت اكثر من مرة حتى لا أعود اليها عند الحديث عن شعره • في عام ١٩٦١ قام ممثل الامام الشخصي فـي القاهرة بنشر قصائد الزبيري التي مدح بها الامام (**راجـع مقدمة محسن العيني لديوان صلاة في الجحيم**) ، وقلما نقرأ دفاعا صادقا عن هذه المرحلة من حياة الزبيري كذلك الذي جاء في مقدمة ثورة الشعر ، ولا شك في صدقه •• فالمشاكـل

التي تواجهها الجمهورية أقوى دليل على صدقه • وعلينا أن نتذكر رسوخ ركائز الامامة قبل ثلاثين عاما وقلة رجال الطليعة وشح الطبيعة والتاريخ يجعل التطور الروحي والعقلي الذي بسطه الزبيري في المقدمة شيئا طبيعيا ومفهوما ، ولعل رنة الحديث والغضب من جراء خيبة الامل واضحة أشد الوضوح في شعر الزبيري لانه جاء بعد هذه المرحلة والحكم على أقدار وأعمال الرجال انما يكون بما أكد اليه ، لا بالاخطاء والثغرات في الدرب •

كل هذا يجعل للرأي الذي أورده زيد الوزير في كتابه (دراسات في الشعر اليمني) يبدو في أحسن الاحوال رأيا لم يستكمل أسباب النضج ، ولعل العجلة هي التي أملت عليه هذا الحكم فهو يصل الى نفس ما أراده ممثل الامـام بنشر قصائد الزبيري ولكن عن طريق النقد ، فأجمل ما قاله الزبيري هو شعره في الامام • وهذا حكم ليس صحيحا من وجهة النظر النقدية **فله شعر جيد ورائع في كل فترات انتاجه،** ويبدو القصد من تجاهل انتاج كل الفترات والتركيز على انه لم يقل شيئا أحسن من قصائده في الامام ، واضحـا ، اذا قرأنا في قسم اخر نقده لشعر عبده عثمان ، فاذا أخلي ميدان الشعر الوطني من أشعر رواده ، فلم يبق الا أن يخلي ميدان الشعر الحديث من أول رواده أو واحد من أول رواده اذا أردنا الدقة ، فان الميدان أو المسرح سيكون معدا لاستقبال شاعر زيد المفضل •• ان نقده للزبيري وعبده عثمان يبدو مصطنعا متهافتا •• فهو ليس الا اطفاء الانوار قبل بداية المسرحية أو دقات الطبل التي تسبق العرض في عرض بعض الروايات ،

ان نقده للزبيري تعريه ، تجاهله للمراحل الاخرى من شعره ، لم ينقد ويحلل للوصول الى هذه النتيجة .. انها مصادره على المطلوب كما ان حججه الرئيسية مع شعر عبده عثمان انه يسبح في العموميات الانسانية فلا يعرف ولا يتطرق الى آلام الشعب وهمومه .. انه تائه يسبح في خضم هموم لا علاقة لها بواقع اليمن . فهو يعبر عن مشاكل الانسان لكنه لا ينزل من سمائه الى حياة الشعب . **والواقع ان الزبيري شاعر الوطنية بحق وليست له الخصوصية الضيقة** التي جعلته يجيد في مدح الامام وبعدها جف معين شاعريته . **وعبده عثمان ، بقصائده الواقعية الجديدة عبر عن آلام الشعب وقلق الجيل الجديد وتطلعه واستشراف آفاقا رحبة ما كان الجيل السابق ليتطلع اليها بحكم ثقافته والتقائه بأحلام الاجيال .** ومن يعرف شعره يدرك أن وجدانه مشدود الى كل ركن من اركان اليمن ، وهذا التفريق بين الانسانية والوطنية والقومية تفريق فج لا تسنده حقائق من شعر عبده عثمان ، انه اصطلاح منقول من مجال الصحف اليومية السياسية الى عالم الشعر . ان هذا التفريق ينم عن موقف سياسي وفكري للكاتب يقحمه على شعر عبده عثمان دون أي سند من شعره أو فكره ومواقفه .

ان زيد يظلم جيلين في شخص الزبيري وعبده عثمان، ليقدم لنا شاعره اما الشاعر علي عبد العزيز نصر فهو نقيض الزبيري وعبده ، ولم يمدح الامام كالزبيري ولا هم له الا هموم الشعب وآماله ليصطلي بنارها وعذابها وقد كفاه الله سر السياحة في عمومات انسانية بعيدة عن مشاكل اليمن التي

يجدها حسب رأي زيد في شعر عبده · ألا يبدو لنا هـذا « الانتقاد » ـ حتى اذا سلمنا جدلا بصحته ـ تعريفا بالسلب ·· لا بأس · فقد لجأ كثير من اللاهوتيين والمتكلمين في المسيح والاسلام الى التعريف بالسلب ونحن هنا امام موقف سياسي له كل ملامح اللاهوت ، ويريد ان يفرض نفسه على دنيا الشعر والادب ·

وليس هذا ما يؤخذ على الكاتب ، انما نأخذ عليه انحيازه منذ البداية الى صف شاعره ، فهو لم يكتب الكتاب الا ليصل اليه ، فهو مهدينا المنتظر في دنيا الشعر · والى هنا يمكن ان نقول لعله الحب ولعله الهوى ، أو لا جدال في الاذواق ، رغم ان الجدل لا يستعر الا في الاذواق · أما ما يؤخذ عليه انه لم يكن أمينا في نقده ، ذلك لانه ركز على شعر الزبيري في الامام السني بل تناسى شعر نصر في الامام لانه يريد أن يقدمه نقادا محصنا وتاريخا يصفى شاعرا للشعب ، والحقيقة ان لنصر شعر في الامام · وشعر رديء (١٠) ·

---

(١٠) انشد نصر :

وغدوا بذكرك يرفعون الهاما
خشعت لذكراك الورى اعظاما

لا بأس ·· ربما كانت كبوة عابرة ·· ولكن يستمر مشيرا الى الاحرار :

راموا اغتصاب العرش منك وليتهم
نصفوا فعاشوا في الحياة كراما

وسوف يهجو احمد الخزان النعمان والزبيري في القاهرة بعد سنوات اثناء الصراع في الاتحاد اليمني وانشقاقه مع البعض بنفس المعنى الذي يرد في البيت الاخير تقريبا ، والبيتان يمتاحان من فكرة اقطاعية تجعل كلا مهيئا

أما الزبيري فله شعر جيد ورائع في الامام لانه شاعر وليس هذا مجال تحليل هذا • فلماذا صمت عن هذه المرحلة في شعر نصر ؟؟ اننا نعرف ان نصر تجاوز هذه المرحلة وترك مدح الامام واختار معارضته ، وهو تطور مفهوم في ظروفنا وليس أدل عليها من خروج « سيف الحق » ابراهيم على أبيه • ولكن انعدام الامانة العلمية في نقد زيد هو الذي يجعلنا نذكره بشعر نصر في هذه المرحلة ليكون ناقدا ويكون أمينا في نقده • واذا كان يعذر صاحبه وشعره الرديء لكن اذا لم يعذر الزبيري وشعره الجيد ، انها الامامة مرة اخرى •

ولعل نصر أولى بالقسوة من الزبيري لضلاله ، فهو من

لما خلق له ، وقد انشد الخزان :

شـاء نعمـان ان يكـون وزيـرا
فلوى ذيـل كبـده وعنـاده

وليس هنا مجال المقارنة بين شعر الزبيري ونصر • وقد عقد الشاعر هلال ناجي مقارنة في كتابه « شعراء اليمن المعاصرين » بين قصيدتين للزبيري ونصر فكتب :

« تمثل قصيدة الزبيري – في رأينا – التجربة المعاشة الواضحة الابعاد، وقد عبر عنها الشاعر في صدق واصالة ، في حين لا تعبر قصيدة نصر عن اية تجربة ، فهي مجرد خواطر غير متماسكة يعيدها الشاعر ويكررها دون ان يفلح في ابراز مضمون ناضج لتجربة ما • (الكتاب المذكور ص ١٥٦) • ومحاولات زيد الوزير للنيل من شعر الزبيري وشعراء الطليعة ترافقها محاولة اخرى تحاول تزوير تاريخنا الحديث بأكمله ، فقد نشرت سلسلة من المقالات بمجلة العلوم البيروتية ٦٥ – ١٩٦٦ ابتكر فيها ما يمكن ان نسميه بالتفسير العائلي للتاريخ ، فصور تاريخ حركة الاحرار وكل الحقبة من ٣٤ – ١٩٤٨ كما لو كانت نتاج عبقرية ال الوزير تأسيسا فكريا وقيادة وامامة •

جيل اخر وأقرب الى العصر من الزبيري • وقصيدته التي نجدها في الهامش قيلت في « تمرس الدم » الذي كان الامام مولعا به •• اني أود مخلصا ان أصدق بأن زيد لم يقرأ هذا الشعر ولم يعرف عنه شيئا •

وأما الزبيري فانه لا يجيد فن المديح ، بل الفن الوحيد الذي يجيده كل شاعر حقيقي : التعبير عن ذاته والصدق معها ومع الاخر • انه وان مدح فهو لا يشبه عشرات الواقفين بباب « الخليفة » لقد كان أسير وهم أو وعي قاصر لم يمكنه من تجاوز واقعة ربما أراد أن يكون للامام سيف الدولة • ولا شك أن الزبيري قبس من المتنبي • ولكن الامام لا يمت بصلة نسب الى سيف الدولة ، فبينما قاوم الاول الروم •• قدم الثاني نظامه البشع وتواطؤه مع بريطانيا فطال عمرها في الجنوب • لقد قتل نظام الاحساس بوطأة الاستعمار في نفوس الآلاف من اليمانيين •• فكل حياة تبدو رائعة اذا ما قورنت « بالنعش المغطى بالسواد » كما يقول الشاعر ابراهيم صادق •

وقبل الحديث في الخصائص العامة لشعره لا بد من الوقوف عند فهم الشاعر للشعر ووظيفته ومبرره • وما جاء في مقدمة ديوانه الاخير ثورة الشعر يكاد يكون الشيء الوحيد الذي بقي لنا ويمكننا من معرفة هذا الجانب من تفكيره • والشعر كان وسيلته الاولى الى دخول عالم الناس فالسياسة والوطنية • وهذه درب سلكها الكثيرون ، فالذي ينوء قلبه بالاحساس الفاجع لا يجد لخطاه طريقا الى الثورة ، أو التمرد•

حيث يبحث لا عن خلاص شعبه فحسب ، بل ويتوحد خلاصه الفردي بمصير الشعب ويكون هذا الارتباط غاية ووسيلة معا.

ومصدر اليقين في الثورة لديه لم يكن عقيدة سياسية أو مذهبا فلسفيا ارتضاه الشاعر لنفسه ، بل كان الشعر ، فهو وحده أثبت له أن يحس من بعده يحيى واحمد جثتين لن يجدي مدحهما واستعطافهما واستنهاضهما شيئا .

والشعراء اكثر من غيرهم معرضون للوقوع تحت سحر الكلمة ، وتكاد لديهم تتساوى شرفا وقيمة مع الفعل ، وهي في الواقع كذلك ، انها فعلهم الخالد ، وتغدو اكثر طموحا عندما تصب في اتجاه واحد ، وتكون العلاقة بين القول والعمل حميمة ، فيجد الفعل في الكلمة معناه وتجد الكلمة في الفعل وسيلتها للتحقق . وهذا يقربنا من فهم كيف « يصبح الوهم الذي تخلقه القصيدة اكثر الحقائق يقينا » (أدونيس ، ديوان الشعر العربي ص ١٩ . بيروت ١٩٦٤) .

والشاعر الذي لا يسلك درب الثورة أو التمرد تنقلب ثورته على ذاته فيوغل في دنيا الحس ويغدو بريق «الخطيئة» اغراء لا يقاوم ويعب منه حتى الثمالة وكل المجان في شعرنا القديم والحديث انما كان شعرهم الماجن رفضا لواقع ينكرون عليه الكثير ولا يجدون سبيلا للمهادنة معه ، فيصبح الشعر بمثابة رقى سحرية يعتمد ارتباطه بالجماعة الوسط حتى يمتلك زمام توازنه . وهو اتزان وانسجام ينفرط عقده بعد كل توازن ، هذا الجدل الحي المتوتر يلازم الشاعر والفنان ماجنا أم قديسا وثائرا ، والشاعر بأعصابه ووجدانه لحمته

وسداه « ولا ينتهي الهم حتى ينتهي الاثر » وقلما نجد شاعرا رضي من الغنيمة بالاياب • واذا لم يحول الشعر القرود الى بشر فحسبه انه يجد فيه ملاذا يهرب اليه من ضجيج الاسواق والشارع والشر الذي في النفوس • فالشعر هنا ثورة وفكر ومنهج ومنشورات (١١) •

ونقرأ في الصفحات الاولى من ثورة الشعر نثرا هو أصفى وأجمل ما كتب من نثر في اليمن الحديث ، بل ومن اجمل ما كتب في اللغة العربية المعاصرة ، ينم عن عمق أحاسيسه وروعتها واصالتها وصدقها •

وشاعرنا ما كان له ان يجد في الهاب الحس مخرجا ، فاحساسه بالتناقض الفاجع بين عالم الشعر الصافي ويمن الامام الكئيبة وجدران مجتمعه تجثم على روحه وتجعل هذا المخرج في نظره هروبا بل خيانة ما كان لمثله ان يقدم عليها •

وعلى الرغم من انه كتب •• « فروحانيتي جنى عليها الادب ، وأدبه أعدمته السياسة » (ثورة الشعر ص ١٠) فان كان يرى الوحدة الكامنة وراء التباين الظاهري بين الادب والسياسة • فيطوح به الشعر في العالم الرحب ولن يملك منه فكاكا •• قاده الى المدح والرثاء والشكوى ، اليأس والامل والفرح العميق والانتظار « نذير العاصفة » •• فأينما نظرت وجدت الشعر ولا بد أن نقول ذلك بالنسبة لرفاقه واخوته ••

---

(١١) ان الاستعاضة عن النشر الفكري والدعاية والاثارة بالشعر سمة نجدها في كل المجتمعات والبيئات المتخلفة سواء كان ذلك في تاريخ بريطانيا او روسيا او غيرها من البلدان • ففي روسيا مثلا اشتهرت قصيدة «راديشيف» (اغنية للحرية) ، ووضعت بداية الشعر السياسي المقاوم للقيصرية •

ان الشاعر في الزبيري يتوحد بالاديب والمفكر والسياسي والا ما سطر هذه الكلمات الشعر :

« كنت مفتونا بشعري الى أبعد حدود الفتنة ، فلقد كنت أتناوله في جو روحاني يمنحني الغبطة مضاعفة ويعطيني ثقة خيالية بالنفس ، وأمنا غامضا لا مبرر من الواقع المحسوس ، كما يشعرني بقوة الاستغناء عن كل ما في الحياة ، وبنزوع الى الاستعلاء على الاهتمامات العادية ، والايمان بقدر ما امتلك في يدي شيئا منها ، كنت أحس احساسا اسطوريا بأنـي قادر بالادب وحده على أن أقوض ألف عام من الفساد ، والظلم والطغيان لست أدري أذلك من تخريف الخيال الشاعـري الجامح ، أم هو ومضة من ومضات الذخر الصوفي السجين في أعماقي » (ثورة الشعر ص ١١) وكل الذين تخلوا عن الثورة أو التمرد بعد ١٩٤٨ من الشعراء سقطوا في جحيم الحس ، وظل الندم يمزقهم ، ومنهم من خص روحـه وشعره فلـم يقدر أن ينتج شيئا له نفحة الصدق ووقعـه بعـد أن اختـار الجانب الاخر فكان « النفس الاول » ، « النفس الاخير » · وأصبح يحترف في منفاه البعيد كتابة نظم رديء ، أراد به بعث كل ما هو مظلم في تراثنا وتاريخنا ونشره على الدنيا ، عله يعيد « عصره الذهبي » أو يشغل الناس حتى لا ينسوه ·

ولو لم يربط شاعرنا مصيره بالثورة أو التمرد ، لبحث عن خلاصه في التصوف الذي اشار اليه في (ثورة الشعر ص ١٠) · ولكنه ابتعد عنه ، وان امكن أن تعثر في شعره على ومضات منه · واذا كتب النصر للشعر فما ذلك الا لان

التصوف أو العزوف الكامل عن الدنيا رفض سلبي ، وثـورة بدون قضية ، تجعل صاحبها يستعيض عن نبش الواقـع بنبش اعماق نفسه وتشغله افلاكها الساحرة ونجومها عـن الناس والدنيا • ولذا لا تستطيع ان تقول ان التصوف رافد أساسي من روافد فكره الا بتأويل مفتعل ، نحن جميعا في غنى عنه • انه مشغول بالظاهر ، دنيا الناس الاحياء المكدودين النازفين في مملكة الامام ، وما كان للمطلق او خمر الحقيقة والشهود او الوجود ، ليزحم حب هؤلاء في نفسه • انه بعيد كل البعد عن التصوف الديني والفلسفي ، عن تصوف العابد والعارف ، ولا يمكن أن تقول ان شعره ديني أو بأن جوهر تكوينه ديني صرف ، فهذا يجني على الحقائق الواضحة فـي شعره ونثره وقد أشرت في الصفحات السابقة الى علاقتـه بالافكار السائدة في الوطن العربي سواء ما ظهر منها فـي عقائد الاحزاب ، أو ما كان شائعا في المنـاخ الثقافي والروحي للمثقفين العرب الليبراليين افكار وشعارات ومبادىء الثورة الفرنسية الكبرى •

ولعل الشرط الثاني من الشروط التي جعلها الزبيري ضرورية للنهوض بعبء الانتقال باليمن من القرون الوسطى الى عصرنا ، ما يوحي بأن اشارته الى التصوف ونزوعه المبكر اليه ما زال ينبض في اعماقه ، ولكن قراءة متأنية تجعلنا ندرك ان « النزعة الروحية » هنا ليست الا مرادفا لنزاهة الثائـر « وتجرده » وأين نجد القضية التي لا تحتاج الى النزاهـة والتجرد والتسامي ، وهذا التزام اخلاقي اكثر منه تجـردا صوفيا بالمعنى الذي يقصده الصوفية من هذا المصطلح • وفهمه

لتعقيد الظاهرة اليمانية واضح وينطوي على نظرة عملية مقاومة لا يمكن أن تخطر ببال المتصوف ولا يستطاع حل الغازها ، وفتح مغاليقها **واكتشاف نواميسها** (خط التشديد ج٠أ٠ س) الا عن طريق التجربة والتعامل مع القوى السياسية التي تمثلت سلطان القديم كله ، الى جانب دراسة روح الشعب عن طريق ممارسة الحياة التي تحياها الجماهير ممارسة صادقة ، لا ممارسة مسرحية » (ثورة الشعر ١٦ ـ ١٧) ٠

كما ان كل ما نجده في شعره عن روح الشرق والاعجاب باقبال ، كلام يدور في نطاق افكار « مدرسة » دار العلوم وليست بحال من الاحوال اهتمامات ميتافيزيقية كتلك التي نجدها في أدب الصوفية ٠

وقد اشترط للجيل المخضرم ثلاثة شروط اذا ما أراد أن ينقل اليمن من العالم القديم الى العصر :

الاول : أن ينضج فهمه ، وانتماؤه لروح شعبه ، وروح العصر القديم الذي ينتمي اليه شعبه نضجا تاما ٠

الثاني : أن يتغلغل فهمه الى روح الحضارة الحديثة لا ان يعيش على السطح منها ٠

الثالث : ان تكون عنده نزعة روحية ترتفع به فوق أهوائه الذاتية ومنافعه المادية لكي تكون هذه النزعة بالنسبة اليه كمحطة للفضاء التي يراد لها ان تكون مرحلة بين الارض والقمر ٠

وقد أسهب في شرح هذا الشرط مما يدل على اهتمامه الخاص بالمسائل التي أثارها فيه ، وقد أوردت الفقرة التي يتحدث فيها عن القمر ، لانها تصور احساسه ببعد شعبه عن العصر من جهة ، ولانه في « ثورة الشعر » لجأ مرتين الى استعارة رموز عصر الفضاء « الكبسولة » و « محطة الانتقال » مما يدل بلا شك انه كان يستمع الى أبناء عصر الفضاء وعقله مشغول بالوطن الذي ما زال في العصر القديم • وتدل على قدرته كشاعر معاصر على التقاط الرموز الجديدة التي لم تفرض نفسها في أيامه في أوائل الستينات على الشعر والنثر العربيين •

والشرطان الاول والثاني موضوعيان يتعلقان بفهم التاريخ والعصر الحديث ، بينما الثالث ذاتي وتكاد عمومية هذه الشروط تجعلها صالحة لكل زمان ومكان ، بينما شروط الثورة في كل بلد عينية دائما ، ولا ينقذها من هذه العمومية الا تكراره ، واصراره على ضرورة فهم « نواميس الموت والعجز » في وطنه، واحساسه الفاجع ببشاعة العلاقة بين الشباب من الاحرار الدستوريين والجلاد ، هي التي تجعله يصر على فهم هذه النواميس •

وما زلنا الى اليوم نقف امام ضرورة التجاوز الفكري

---

(١٢) نشرت في الثورة ٤-٤-١٩٧١ قصيدة « دمعة على الزبيري » • وقد أيقنت بأن ما جاء في السطور السابقة ليس ظلما أو تجنيا • ان الناظم يحاول ان يذرف دمعة على الزبيري بعد ان اصبح عاجزا عن البكاء ، كما ان القصيدة فنيا ولغويا غاية في الركاكة •

لتأثير البيئة في صفوف الوطنيين • واذا نحن تأملنا شروطه رغم عموميتها ، الا اننا في الواقع لم نتجاوزها ذلك لان فهم الماضي ، والعصر ، أمر يتطلب زادا ثقافيا عميقا وخصبا عند من يتصدى لقيادة التطور في وطننا ، بينما الشح الثقافي من أبرز سمات « ثقافتنا » الوطنية ولم تبدأ الجهود الحقيقية في هذا المجال الا بعد ١٩٦٢ • الزمن الذي مر الى الان لا يكفي لانضاج بعث ثقافي يؤثر في افكار القادة المواطنين ، ويعيد صياغة وجدانهم وعقولهم ، فيقدم رعيلا جديدا ، يكون بداية عهد جديد لم يكتب سبتمبر الا عنوانه •

رحلة في بيت من شعر الزبيري

عبد العزيز المقالح

في السطور التالية سنقوم ــ القارىء وأنــا ــ بسياحة شعرية قصيرة عبر جزئية فنية صغيرة من جزئيات الشاعر الكبير محمد محمود الزبيري ·· مع بيت واحد فقط مــن أبيات شعره التي بلغت الآلاف · وسيكون دليلنا في هــذه السياحة الى جانب « بيت » الزبيري أبيات أخرى لكل مــن الشعراء الكبار جدا والعظام جدا : أبو العلاء المعري ، أحمــد شوقي ، ناظم حكمت ·

وليس في الجمع بين هؤلاء الكبار أي مبالغة كما قــد يتبادر الى أذهان الذين يكرهون الحقيقة ولا يحبون أن يمتد نورها على الاماكن المجهولة في الحياة والفكر والبشر ·

أربعة عمالقة وموضوع واحد :

الموضوع الواحد هو الوطن ، والعمالقة الاربعة هم كما سبق ان قلت : المعري ، شوقي ، ناظم حكمت مضافا اليهــم

الزبيري ، وسنبدأ بأكبرهم سنا وأطولهم عمرا وذكـرا ، بأبي العلاء المعري • فماذا يقول هذا الشاعر الضرير عن الوطن ؟ لقد ترك وطنه ، والوطن في مفهوم ذلك العصر هو مسقط الرأس ، ومسقط رأس أبي العلاء كان « المعره » وكان قد سافر الى بغداد حاضرة العرب وأكبر عواصم الدنيا في ذلك الحيـن (أواخر القرن الرابع الهجري) وفي بغـداد حيـث دجله والفرات ، والحضارة والشعر والشعراء والمجد والسلطان ، في هذا الجو الحافل ضاقت نفس الشاعر الشاب ، وأحس المعري بحنين جارف الى وطنه •• الى قريته الريفية الصغيرة « المعره » ، ولم تكن مياه دجله ولا نسمات الفرات بقادرة على اطفاء نار ذلك الحنين ، فكانت قصيدته الجميلة جدا والتي تحدث فيها الى دار الحبيبة النائية •• الحبيبة التي أصبحت في نظر بعض الكتاب المعاصرين أو ينبغي أن تصبح رمـزا للحرية :

فيا دارها بالخيف ان مزارها
قريب ولكن دون ذلك أهـوال

وتحدث فيها أيضا الى نفسه حديث الضائق الضائـع الحزين :

تمنيت ان الخمـر حلـت لنشـوة
تجهلني كيف اطمأنت بي الحال
فأذهل أني بالعراق على شفـا
رذى الاماني لا أنيس ولا مـال

ثم يناجي فيها وطنه النائي البعيد في بيت هو موضوع حديثنا • وفي مثل هذا الحنين الراعش :

فيا وطني ان فاتني بك سابق
من الدهر فلينعم بساكنك البال
وان استطع في الحشر آتك زائرا
وهيهات لي يوم القيامة اشغال

وبعد المعري بعشرة قرون تقريبا يجيء شوقي ، ويدخل الجنة في حياته لكنها لم تشغله عن وطنه ، فقد أبعدته سلطات الاحتلال البريطاني عن مصر في أوائل سنوات الحرب العالمية الاولى واختار منفاه في اسبانيا الفردوس العربي المفقود •

وفي وسط ذلك الفردوس لم ينس شوقي وطنه بل زاد حنينه اليه فهو يحكي « لنائح الطلح » شجونه وأحزانه ثم يطلع على مصر بسينيته الشهيرة :

اختلاف النهار والليل ينسي
اذكرا لي الصبا وأيام أنسي
وسلا مصر هل سلا القلب عنها
أو أسا جرحه الزمان المؤسي

وفي هذه القصيدة ، بيت القصيد :

وطني لو شغلت بالخلد عنه
نازعتني اليه في الخلد نفسي

وفي عام ١٩٥٠ يفتح السجن ابوابه في تركيا ليخرج من ظلماته شاعر آسيا الكبير « ناظم حكمت » بعد ثلاثة عشر عاما قضاها في الظلام ، يخرج هذا الشاعر ليقول للناس كل الناس :

سيضع الناس أيديهم في أيدي بعضهم الاخر

دون خوف
دون تفكير
ويرنون الى النجوم قائلين :
« ما أطيب العيش »
سرور
سكون
عميقان كحبة عين الانسان
وطيبان كعنقود العنب
سينشدون أغنية لم تسمع بعد

وتتكاثف الظلمات من جديد في طريق هذا الشاعر الانسان فلا يجد بدا من الفرار الى المنفى ، ورغم ان دولة الاشتراكية العظمى قد احتضنته كما احتضنت اشعاره الجميلة ومنحته جنة صغيرة تتصاعد من حولها ضحكات الاطفال والشمس والزهور ، رغم ذلك كله فقد ظل يحن الى وطنه ويرسم ذلك الوطن في كلمات رائعة :

وضعوا الشاعر في الجنة فصرخ قائلا :
آه يا وطني

ثم يأتي رابع العمالقة الشاعر محمد محمود الزبيري ٠٠ لقد سقط انقلاب ١٩٤٨ ملطخا بالدم ، وكتب الله للزبيري أن يحيا ، لكن بلا أهل وبلا وطن ، وأن يعيش مشردا فوق أمواج البحر ، متنقلا من سفينة الى أخرى ، ومن ميناء الى اخر ، يبحث عن قطعة أرض يستقر عليها فوق البحر ، وعند كل ميناء لا يكف الشاعر عن البكاء ٠ وكان قد حدثنا في قصيدة

أخرى ان البكاء أعجز ما يستخدمه ليكسب النجاح ، وهو لا يبكي بالدموع لكنه يبكي شعبه ويرثي ثورته ، أو على الاصح محاولته الثورية الاولى ، بأجمل الاشعار ، وبعد ليل طويل تلقي به الاقدار الرحيمة الى « باكستان » وطن الاطهار الجديد، كما كان يدعى في ذلك الحين ، فتهدأ نفس الشاعر بذلك المأوى المؤقت ثم لا تلبث ان تحترق في جحيم الغربة والحنين، أليس هو القائل :

كلما نلت لذة أنذرتني
فتلفت خيفة من زماني
واذا رمت بسمة لاح مرأى
وطني فاستفزني ونهاني

لقد حمل الزبيري وطنه في قلبه وما أقل الذين يحملون أوطانهم على قلوبهم الى المنافي ومواطن الاغتراب وما اكثر الذين يعيشون في الوطن وقلوبهم وعقولهم في غربة وانفصال (١) . ان العالم عند الزبيري هو الوطن والوطن وحده :

---

(١) يتهم الزبيري من قبل البعض بأنه شاعر مهاجر لانه عاش ردحا طويلا من حياته منفيا خارج اليمن وقد سأل اديب يمني الشاعر الكبير عبد الوهاب البياتي عن حقيقة هذه التهمة فاجاب بما يلي :

« الزبيري ليس شاعرا مهجريا على الاطلاق انما هو شاعر عربي اولا واخيرا ، وهو لا ينتمي الى اليمن وحدها انما ينتمي الى الوطن العربي جميعا، وسواء كان الزبيري هنا او هناك فسيبقى شاعر اليمن وشاعرا عربيا ، وهذا يمكن التاكد منه من خلال اشعاره . ثم ماذا تعني الهجرة ، النبي محمد هاجر ايضا فهل نسميه النبي المهاجر مثلا ؟ » .

وما الدنيا سـوى وطني اذا لم
أجده لم أجـد منهـا نصيبـا

وأخيرا نصل الى بيت الرحلة ، بيت القصيد ايضـا ، البيت الذي حملنا على أجنحته وارتحلنا معه الى هذه الاجواء الشاعرة :

ولو أني حللـت ربـوع نجـم
هممت به الى الوطـن الوثوبا

حصاد الرحلة :

لقد أعطى كل شاعر من الشعراء الاربعة لوطنه كـل الحب ، ولم يبخل عليه أي منهم بأي قدر من التضحيـة ، ولكن التعبير عن مدى هذه التضحية قد اختلف من شاعر الى اخـر .

ولعل اقسى أنواع الهجرة عندما ينتقل الانسان من شارع خاو الـى شارع اخر خاو ، من مقهى خاوية الى مقهى خاوية ، او من مدينة ميتة الى مدينة ميتة « الهجرة الحقيقية عندما تهاجر داخل وطنك من بيت الى بيت اما الهجرة داخل الوطن العربي فهذه لا تسمى هجرة انها كالانتقال من طابق الى طابق في العمارة الواحدة » .

وبالنسبة لي شخصيا لا ازال مهاجرا ، والانسان عندما يولد في هذه الحياة الى أن يموت يبقى مهاجرا باستمرار ، والهجرة تعني السفر ، والسفر لا يعني في المكان فقط ولا في الزمان فقط انما هجرة الانسان الى داخـل نفسه وخارجه ، بمثل هذه المقاييس يكون الزبيري شاعرا مهاجرا بالمقاييس الانسانية الحقيقية ، فهو مهاجر لانه شاعر عليه ان يهاجر » . والشاعر بدون هجرة يموت ويتعفن تماما في عقر داره .

فالمعري يعد وطنه بعد مناجاته بحنان غامر بأن الحشر لن يذهله عن تذكره وبأنه قد يزوره يوم القيامة ان استطاع الى ذلك سبيلا •

وشبوقي لا تتردد نفسه عن منازعته العودة الى الوطن رغم اشتغاله عنه بملذات الخلد •

اما ناظم حكمت فان الجنة لم تخفف آلامه ، بل ظل يهتف فوق زهورها متحسرا (آه يا وطني) •

والزبيري يناجي أبناء وطنه قائلا : لا تظنوا اني نسيت أو سأنسى وطني ، فلو أني سكنت رحاب نجم من النجوم التي تطل من قلب السماء وتزين فضاء الكون الواسع لما ترددت عن الالقاء بنفسي من حالق الى الوطن الحبيب •

لقد اكتفى الشاعر الاول بأن وعد وطنه بأنه قد يزوره غداة الحشر ان استطاع ، وبعد ذلك الوعد المشروط يعود لينفي الاستطاعة بقوله انها قد تحول بينه وبين تحقيق رغبته أهوال وأهوال !

والشاعر الثاني لا يزيد على أن يشعرنا بأن نفسه ستظل تنازعه الى الوطن مع اعترافه بالاشتغال عنه بالخلد ، وفيما عدا تلك المنازعة فانه لم يهم بشيء •

والشاعر الثالث اكتفى هو الاخر بأن عبر بصرخة (آه يا وطني) عن حنينه الدائم الى الوطن رغم كل المغريات ، ولكن دون ان يحدد موقفا ايجابيا •

اما الشاعر الرابع والاخير وهو الزبيري فقد حدد مهمته

تماما ، وعبر عن مقدار التضحية التي لن يتردد عن القيام بها اذا ما سكن في نجم من النجوم وهي الاطاحة بنفسه من فوق ذلك النجم الى الوطن · ولنتصور ان النجم الذي قد حل فيه الشاعر كان (المريخ) وهو أجمل النجوم ومن أقربها الـى الارض ، اذ لا يبعد عنها سوى بملايين الاميال · ولا أحب أن أفزع القارىء بذكر الرقم الحقيقـي للمسافـة بيـن الارض والمريخ ، وأكتفي بتصور الشاعر وهو يهوي من ذلك الارتفاع البعيد في طريقه الى اليمن ·· أتصوره وهو يصارع مناطق انعدام الوزن في الفضاء الخارجي ثم وهو يصطدم بالغلاف الجوي للارض · أتصوره والرياح تلعب به في أجواء اليمن ثم وهو يرتطم بجبل من جبالها الشاهقة فاذا به يتحطم ويحقق حلمه القديم :

حطميني يا ريح ثـم انثرينـي
في رذاذ يهمى بتلـك الجنان

ولعل هذا الذي كان مجرد حلم وتصور شعري عنـد الزبيري قد أصبح حقيقة ، فقد حملته رياح الثورة من القاهرة ثم حطته على جبال (برط) ونثرته دموعا فى العيون وذكرى على القلوب لا تنطفي ولن تغيب ·

كفر وايمـان

كفـــرت بعــزمتــي الصــامده
وقدسيـــة الغضبـــة الحـاقـده

وأنـات قلبي تحـت الخطـوب
وأحلامــه الحيـــة الصاعده

وعمــر شبـاب نـذرت به
لشعبـــي وأهــدافــه الخالــده

وبـــالشهـــداء وأرواحهـــم
تراقبنـــي مــن عل شــاهــده

اذا أنا أيــدت حكم الطغـــاة
وهادنتهـــم ســاعـــة واحــده

★★★

عـــي الشـــاة تتبع جزارهـــا
وتنســـــى ببرسيمه ثارهـــا

تبـــاع وتشرى من الذابحين
وتجهــل فـــي البيع أسعارهـــا

يجرجرها الحبل فـي عنقهـا ألـذ
ليـــل فتحسبـــه غـــارهـا
ترى مديـة الذبـح مصقولـــة
تضــــيء فتكبـر أنوارهـا

***

هـي الشــاة ، لكنني الآدمـي
أكبـر نفســي عن السائمـــه
تمـرد قلبـي على الظالميـــن
ودنياهــــم الفضــة الغاشمـه
وعشت مع الشعب في خطبه ..
المـريـر وآلامـــه الحاطمـــه
أثيـــر كـوامـــن أعماقـه
وأوقـظ عزتـه النـائمـه
وأغـــزو ديـاجير أغــواره
فأشعلــها بـالرؤى الحالمـــه
وأطـــرد أشبـاح كابوســه ..
الرهيــــب وأهوالـه الجاثمه

***

كفرت بعهـد الطغـاة البغــاة
ومـا زخرفـوه ومـا زيفـــوه
وأكبرت نفسي عـن أن أكون
عبـــدا لطاغيـــة توجـــوه
وعن أن يرانـي شعبـي الـذي
يعـذب عونـا لمن عذبـــوه

أأجثو على ركبي خاشعا
لجثة طاغية حنطوه
أألعقه خنجرا .. قاتلا
لشعبي وأكثر فيه الولوه
أنا ابن لشعبي أنا حقده ..
الرهيب أنا شعره أنا فوه
أتعنو لطاغية جبهتي ؟
فمن هو ؟ من أصله من أبوه ؟

***

وأقسم بالله خير القسم
وما صنته من كريم الشيم
وما خبأت مهجتي من همم
وما حملته يدي من قلم
وما هزني من اباء ودم
وما اجتاحني من عميق الالم
وما اكتسحت عزمتي من قمم
لارمي بقلبي في المزدحم
وأمحو عن الشعب عار الصنم
وأجعله عبرة .. للامم

***

سأمضي .. عنيدا فلا أنثني
وأحيا كريما فلا أنحني
وأرفع نحو السما جبهتي
كما ارتفعت جبهة المؤمن

أموت خميصا ! ولا أقبل الفتـــات
.... مـــن القاتـل المحســن
أأطعــم مـن قــاتـل أمتـــي
أرى الـدم في كفـه المنتن ؟
يقدم لـــي طعــم شلو شهيــد
مـن اخوتــي لحمــه أو بني
تكــاد اللقيمات مــن لحمــه
تقـــول لآكلهـــا خنتني !
فلا نبضت نخوة فــي دمــي
ولا عزنـــي شرف الموطــن
اذا خدت عن مبدئي أو رضيـــت
بعيـــش مــن العــار مستهجــن

***

وآمنــت بالشعب حتـــى وقد
رآه الــورى جثــة هامــده
تداعــى حــواليــه أعـــداؤه
ليقتسمـــــوه علــى المـائـــده
فهــذا بشلــو شهيــد يعيــث
وذاك يســاوم فـــي الفائــده
وذا لليتامــى يهــز السيـــاط
لتعبــث بالجثــث الراقـــده

وكم من وليـد حـذار الحمـام
رأى نفسـه صافعـا والـده (١)

***

وآمنـت بالشعـب يوم جثـا
أمـام الطغـاة على ركبتيـه

ويوم انبرى في ذهـول الهـوان
يرمـي مكاسبـه مـن يديـه

ويوم مددنـا شعاع الصبـاح
له ، فانزوى •• وحمى مقلتيـه

ويوم عصرنـا رقـاب الطغاة
وسقناهـم كالجواري اليـه

فأطلقهـم من هـوان الاسـار
ذئابـا علينـا صلالا عليـه

***

هو الشعب ••! حـق مشيئـاتـه
صـواب ورشـد خطيئاتـه

له نبضنـا وأحـاسيسنـا
فمـا نحـن الا نباتاتـه

---

(١) كان يؤتى أحيانا باليتامى الذين ذبح آباؤهم فيرغمهم الجلادون على البصق في وجوه آبائهم وهم جثث مطروحـة على الارض ، واحيانـا يرغمونهم على أن يدوسوا هذه الجثث •• ولو اجتمع شعراء الدنيا لكـي يصوروا مشاعر الطفل التعس وهو يكلف بممارسة هذه الوحشية لما استطاعوا الى ذلك سبيلا •

لـه دمنـا ولـه دمعنـا
يغـدى عليـه ويقتاتـه
يحطـم بالمـوت زهر الحيـاة
منـا لتصلـب شوكاتـه
ويقصف عمـر الحمام الوديع
لتحيـا وتكبـر حياتـه
ولكنـه فـي المجال البعيـد
... تعلو على الظلـم راياتـه
وتقتلـع الشـر خيراتـه
وتبتلـع الكـل غـاياتـه

الزبيري ٠٠ شاعر الوطنية

بقلم : عبد الله البردوني

يمكن الباحث أن يقسم شعر الزبيري الى أربع مراحل :

(١) مرحلة الارادة والتردد في العهد الثاني من النهضة فقد كان يريد القول ويداري الصمت :

مت في ضلوعك يا ضمير … وادفن حياتك في الصدور

(٢) مرحلة النصح للحاكمين بالعدل والتقرب اليهم أملا في اصلاحهم كما قال الزبيري في مقدمة ديوانه ثورة الشعر ٠٠ وكانت هذه الفترة فترة شعر خصب

حنانا يا أمير المؤمنينا … بأفئدة الرجال المخلصينا
فان لم تستحق لديك عطفا … ولا رفقا بنا فارحم بنينا
رباه مالي لم أزل … في محنة متوالية ؟!
أما غريبا شاردا … أو موثقا في هاوية

وقد امتدت هذه الفترة وطال تنقل الشاعر من صنعاء

الى سجن الشبكُ في الاهنوم ثم الى تعز وفيها عد أمير الشعراء وقال في هذا رائيته الشهيرة :

أجنة يا قريض أنت أم نار ... ففيــك من صفة الامرين آثار
اذا تأوهت ذاب الصخر محترقا ... وان صدحت جرت في الصخر أنهار

وقد كانت هذه القصيدة خاتمة لفترتي التردد والنصح والمداجاة • لتبدأ المرحلة الثالثة وهي مرحلة النضال الانقلابي وكان موطنها عدن وحقلها صحيفة « صوت اليمن » وكانت هذه المرحلة مزيجا من ملامح الاولى ، ومن ملامح جديدة فالنصح فيها لم ينته وانما تبدى في صورة أعنف :

هب انهم خلقوا الانام فهل لمن ... خلقوه عهد عندهم وذمـام ؟
ما لليمانييــن في لحظاتهــم ... بؤس وفــي كلماتهم آلام ؟
جهل وأمراض وظلم فــادح ... ومجاعــة ومخافــة وامام !
والناس بين مكبل في رجله ... قيد وفي فمه البليغ لجــام

فقد انتقل الزبيري من نصح الحكام بتحسين الاوضاع الى تصوير هذه الاوضاع ونقدها بل والى دعوة الى الانقلاب فقد أنشد في دار الاتحاد بعدن ميميته المشهورة ••

سجل مكانك في التاريخ يا قلم ... فهاهنا تبعث الاجيال والامم

وقد استمر في دعوته الى الانقلاب شعرا وعملا حتــى انتقل الانقلاب من امكان الى عمل •• وعند نجاح الانقــلاب أنشد الزبيري ميميته الشهيرة وزاد فيها أبياتا تلائم الموقف :

ان القيود التي كانت على قدمي ... صارت سهاما من السجان تنتقم
والحق يبدأ في آهات مكتئب ... وينتهي بزئير ملؤه نقــم

وبميلاد الانقلاب وموته تنتهي المرحلة الثالثة مـن شعر الزبيري وتبدأ المرحلة الرابعة ويدخل الشعب فترة ركود أربع سنوات ليبدأ الشعب عهد الثورة ·· ويبدأ الزبيري من بعيد شعر الثورة ·

وقبل أن أدخل المرحلة الرابعة في شعر الزبيري يمكنني التأكيد ان مدرسة الزبيري الشعرية أصبحت بلا تلاميذ وان الذين بدأوا مراحل الشعر من عام ١٩٤٠ وما تلاه الى اليوم تلاميذ لمدارس جديدة متنوعة وكثيرة ·· ولم يعد الزبيري الا شاعرا مجيدا مناضلا أما مدرسته شعريا فقد انتهت لبزوغ مدارس جديدة ·· كان من تلاميذها في بلادنا شعراء كثيرون من أمثال :

محمد سعيد جراده ، علي بن علي صبره ، محمد عبده غانم ، مطهر الارياني ، عبده عثمان ، لطفي جعفر أمان ، ادريس حنبله ، عبد الله الشرفي ، عبد الله هادي سبيت ، محمد انعم ، القرشي ، عبد الرحيم ، محمد الشرفي سعيد الشيباني، احمد المأخذي ، يوسف الشحاري ·

وغيرهم كثير ولهم وقفة تخصهم بعد أن ينتهي الشوط مع الزبيري في مرحلته الرابعة والاخيرة ·· فقد أحدثت هذه المرحلة في الزبيري تغييرا هائلا في الفكر السياسي والفـن الشعري معا فقد انتقل من ناصح وداعية انقلاب الى داعيـة ثورة تحل فيه الجمهورية محل الملكية ، وتقوم فيه الديمقراطية مكان الاستبداد وينتقل فيه الحكم من فرد الى شعب ، وسوف نلاحظ هذا التغير في شعره ·

بدأ الزبيري مرحلته الرابعة في الباكستان ايام افراحها بالاستقلال واندفاع جماهيرها تحت اشراق الحرية .. فقال همزيته المعروفة التي صور فيها ارادة الشعب وسيطرتها على القيادة .. وحكمة القادة :

وشعورالجمهور أرقى من العقل ومن حكمه ومن حكمائه

وقال في باكستان نونيته المعروفة :

اليوم نلقى بباكستان وادينا

وأعادها بتغيير جزئي كما يفعل في مواقف أخرى كثيرة في دار الاتحاد اليمني بالقاهرة فقال :

اليوم وافى بوادي النيل ماضينا نحس وقع خطاه في مغانينا

وفي القصيدة يقين ثوري كما يقول :

يوم من الدهر لم تصنع أشعته شمس الضحى بل صنعناه بأيدينا
قد كونته ألوف من جماجمنا وألفته قرون من مآسينا

وقد أصبح هذان البيتان من شعارات ٢٦ سبتمبر .. ومن محفوظات الكثير في بلادنا .. فقد أخذ شعر الزبيري يتجدد ولكن على أساس قديم من ناحية العمود الشعري ،ومن ناحية المطابقة والمجانسة الجزئية أو الكلية من مثل :

ذكريات فاحت بريا الجنان فسبت خاطري وهزت جناني

لكن سنلاحظ ظاهرة جديدة في حياة الزبيري بباكستان فلعله ــ وهو عربي اللسان والقلب ــ عدم التجاوب في دار العجمة والغربة فكان الشعر أحنى رفيق وفي هذه الفترة عرفنا تجربة الزبيري الشعرية في بائيته الزبيرية البحترية :

أحس بريح كريح الجنـان تهب بأعماق روحي هبوبـا
وأشعر أن القوافـي تـدب كالنمل ملء دماغـي دبيبـا
فهـذا يزوغ وهـذا يـروغ وذلك يذعـن لـي مستجيبا
وذاك يفارقنـي يائسـا وهذا يواعدنـي أن يؤوبـا
ومنهـا أوزع للعاليـن طهرا وانشر في الارض طيبا
اخلف منهـا لقـاح النهى وأنجب للارض منها شعوبـا
حروف الروي بهـا نطفـة ترعرع بيتا عريقـا نسيبـا

لا أمل تكرار عبارة ، ان أنجح جديد ما قام على قديم لان الجذور ضرورية لكل نبت ٠٠ والزبيري في هذه القصيدة معجب كغيره من الكلاسيكيين بموسيقى البحتري من بائيته التي مطلعها :

لوت بالسلام بنانـا خضيبا ولحظا يشوق الفؤاد الطروبا

الا ان للزبيري لون ثان جديد الروائح ، فليس أمامـه (الفتح بن خاقان) وانما امامه الخلق الشعري الذي ينجب الشعوب ويفتتح الغيوب ٠٠ وقد أجاد تصوير حالة الشاعـر مع القوافي المواتية والنافرة ، وقد وضع قيمة للقافية لم يهتد اليها شاعر :

حروف الروي بهـا نطفـة ترعرع بيتا عريقـا نسيبـا

فان القافية أهم عناصر جودة الشعر ٠٠ اذا جاءت طيعة وانساق اليها الغرض في تجاوب روحي ٠٠ والقافيـة أهـم علامات الرداءة اذا اكرهت على سكون المكان النابي ولاهمية القوافي جعلها العرب أهم أجزاء الشعر ٠٠فسموه كلمة قوافي ٠

فما يمنعوا مني البكا والقوافيا .

وكم علمته نظم القوافي .. فلما قال قافية هجاني .

فهذا المجاز هو عين الحقيقة .. فالقافية تجعل البيت أصيلا أو عريقا نسبيا كما قال الزبيري في تجربته الحية التي تدلنا على نفسه في باكستان .. فقد أصغى الى نفسه حين لم يجد من يصغي اليه .. فأنجب لنا هذه التجربة العريقة النسيبة هذا طرف من المرحلة الرابعة من حياة الزبيري التي أولها صنعاء وأوسطها باكستان .. واخرها القاهرة ..

وفي القاهرة بلغ شعره وتفكيره تمام نضجهما فأحسن التفكير في السياسة وألح على الجمهورية كارادة ومصير وتخلى شعره نهائيا عن آثار الاسلوب الخطابي وأمعن في الخيال والتعبير الهامس الموحي :

ذكريات فاحت بريا الجنان — فسبت خاطري وهزت جناني
عمر في دقيقة مستعاد — ودهور مطلة في ثواني
فكأن الماضي تأخر في النفس — أو استرجعت صداه الاماني
شعلة القلب لو أذيعت لقالوا: — مر عبر الاثير نصل يماني

فهذا الخيال الرصين والتركيب المنسجم مع هذا الخيال والتعبير الهامس الموحى أنصع ميزات شعر الزبيري في القاهرة .. وذلك بفضل البيئة المثقفة التي أحاطت به والقيادة الرشيدة التي ملأ الاعجاب بها نفسه كغيره من المستنيرين .. فشعر الزبيري في مصر نقي النغمة كثيف الصورة .. فعندما صور الاوضاع اليمانية وهو في عدن اعتمد على الاسلوب التقريري .

ما لليمانيين في لحظاتهم بؤس ، امام وجهل وأمراض ومجاعة ، الناس بين مقيد وملجم ، الى اخر هذا الاسلوب التقريري الذي يعتمد على قوة الجزالة وتتابع الانفاس .

أما عندما صور الاوضاع في اليمن وهو في القاهرة فالاسلوب التصويري أغلب عليه .. ولا تكاد تلحظ لمحات التقرير :

نصف قرن عشنا ينام بها	**المحتل في أرضنا كنوم الوليد**
هجعا كالفراغ لا يزعج المحتل	**منا غير السراب البعيد**
أو شكاوى كشهقة الطفل يبكي	**من دلال لامه يوم عيد**
شطرنا يستغيث من غاصب فظ	**وشطر من مستبد عنيد**
وكلا القاتلين ينهش في جثة	**شعب نهش النهوم الحقود**
فاذا ما تصايحا فكقطين	**استباحا أشلاء جسم بديد**

فهذا التصوير المتقن ، وهذا التعبير الهامس الاليف يملآن جو القصيدة من حين الى حين ، مع ان القصيدة انشئت في جو متفجر محليا وعربيا وعالميا .. فهي بمناسبة انفجار ثورة ١٤ تموز بالعراق ٥٨ وثورة العراق كانت فتحا عربيا ونسفا لحلف بغداد .

هذا بالنسبة الى التفجير العربي والعالمي ، اما بالنسبة الى التفجر المحلي فقد كان المناضلون في حيرة من امرهم لان الحكام بدأوا يلبسون أزياء جديدة فيدعون العروبة ونضال الاستعمار ويدخلون في حركة العصر فيزورون موسكو وهم كما قال الزبيري :

يبهرون الدنيا بزورة مـو سكو وعليهم غبار دبيا تمود

لكن الزبيري فضحهم في حصافة فكرية ولباقة شعرية وهاتان الصفتان ألمع مميزات شعره في القاهرة التي انتهـى اليها شوطه وأثمرت فيها شاعريته أنضج الثمار ، وهذا النضج لا ينبغي أن يذهلنا عما في شعر الزبيري من بواعث الملاحظات، أغلب شعر الزبيري نضالي وطني ، واسلوبه كلاسيكي جيد ٠٠ وتتضح الكلاسيكية فيه في التأثر بالفحول من أمثال المتنبي والبحتري في القديم ، وشوقي من شعراء النهضة ٠٠ وللشعر الكلاسيكي مزايا لا تتوفر في غيره. أهمها : قوة العبـارة ٠٠ وانتقاء اللفظ وتساوق النغم على امتـداد البيـت حتـى أن الكلاسيكي يختار من الالفاظ والموسيقى ما يتناسب مع الموضوع الذي ينطق شاعريته ، وأغلب شعر الزبيري كلاسيكي وان شارك قليلا في الرومانسية بمثل قصيدته « حنين الطائر » أو قصيدة « البلبل » الا ان هاتين القصيدتين وسواهما مـن المقطوعات ، لا تمثل اتجاها رومانسيا ٠٠ وذلك لان الكلاسيكية أقرب الى نفس الزبيري لقوة دلالتها على الاصالة من الناحية الفنية ٠٠ ولانها تتطلب الموضوع في خارج الذات ، وقد جعل الزبيري من الشعب وقضيته كل موضوعات قصائده ٠

فدعى الى الدستور وبكى مصرعه ، وناضل الطغيان في عدة أساليب من الشعر والنثر لكثرة اتصال وجدانه بقضية الشعب لكن هل نشتم أو نلمس في قصائده الشعب كأرض ومشاهد وعادات ؟٠٠ أظن أننا لا نجد ٠

فما السبب يا ترى ؟٠٠ ماذا أذهل الزبيري عن التقاط

ملامح لارض اليمن ، أو عن ذكر أسامي أمكنة أو نبات ؟ هل غابت عنه هذه القضايا لقربها من نفسه ؟

فكان من شدة الوضوح الخفاء ، أم لعل النكبات والبحث عن الخلاص ابعدته عن التقاط ملامح أرضنا او عاداتنا ·· مهما تكن الدواعي فان شعر الزبيري ينقصه ملامح اليمن وروائح اليمن فلا تكاد تجد في كل شعره ذكرا للبن وهو رمز اليمن الاخضر ولا ذكرا لجبل أو اثرا من جبال اليمن واثارها ·· ولا تطالعك في شعره صورة حي حتى من احياء صنعاء ، مع ان الزبيري كان من المثقفين شعريا ·· وكل الشعر المتصل بالذكريات والحنين ينقل الامكنة الى احضان قصائده ·· أو يشير الى ما فيها من بواعث الحنين ودواعي الذكر :

أقول لصاحبي والعيس تهوي بنا بين المنيفة والضمار
تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

فهل كان بن اليمن وكرومه وقاته أقل ايحاء من عرار نجد ، لقد كنا نظن ان شعر الزبيري سينقل أرض اليمن الى دواوينه لكننا لم نلاق لمحة من وجه الارض في قصيد الشاعر الذي عاش لها ومات لها ·

وفي وسعك أن تقرأ كل وطنياته وسوف تلاحظ النقص الذي نبهت اليه :

بنفسي أفتدي الوطن الحبيبا وأحمل في محبته الخطوبا
ولو اني حللت ربوع نجم هممت به الى الوطن الوثوبا

ان هذا البيت من أثر شوقي :

وطني لو شغلت بالخلد عنه — نازعتني اليه في الخلد نفسي
يشهد الله لم يغب عن جفوني — شخصه ساعة ولم يخل حسي
يصبح الفكر والمسلة ناديه — وبالسرحة الزكية يمسي

فقد أشار شوقي الى مآثر ومعالم يعرفها كل من يعرف مصر أو يقرأ عنها .. بل لم يكتف شوقي بهذه الاشارة وانما قال ما هو أوضح :

وسلا مصر هل سلا القلب عنها — أو أسى جرحها الزمان المؤسي
يا ابنة النيل ما أبوك بخيل — ماله مولع بمنع وحبس

ليتنا وجدنا في شعر الزبيري اسم « مأرب » أو «صرواح» أو (نقم) أو (صبر) أو (ردفان) أو (شمسان) .

وهذه قصيدته « حنين الى الوطن » :

زفراتي طوفي سماء بلادي — وانهلي من شعاعها الريان
اطفىء لوعتي بها واغمسي — روحي فيها وبردي الحاني
وصلي جيرتي وأهلي وأحبابي — وقصي عليهم ما دهاني
وانثري في ثراهمو قبلاتي — واملأي رحب أفقهم من حناني
وسليهم ما تصنع الروضة الغناء — وأدواحها الطوال الدواني ؟
هل رثاني هزارها هل بكاني — ورقها هل شجت لما قد شجاني؟
ليت للروض مهجة فلعل — الدهر يبكيه مثلما ابكاني

فلقد أراد في هذه المقطوعة بوجه الخصوص أن يبوح بأسامي أمكنة .. ولكن أراد ولم يقل ، فقد أراد الروضة ، ولكنه وصفها بالغناء فأصبح الاسم وصفته صالحا لكل روضة على الارض وأراد لوازم الروضة فأخفق لان روضة احمد

المعروفة لا تحمل أدواحا طويلة وانما هي بساتين عنب خلف الجدران لا ترى من خلفها ، وشجر العنب لا يوصف بالإدواح، لان الادواح هي الاشجار الضخمة الطويلة ، ومن جهة ثانية فليس في الروضة هزارات ولا حمائم ، ولا تكثر فيها الطيور الا في موسم العنب وليس فيها الهزار والحمائم ٠٠ أما الروض الذي تمنى الشاعر بكاءه فلعله قصد « وادي ظهر » أو « قرية القابل » لكن الروض اسم جنس لكل بقعة شجراء ومثلها الجنان ، ولقد كان من لوازم الحنين الى الوطن تصوير ملاعب طفولة الشاعر وآثار بلده ، وهذه سنة شعرية ، فلم ينس (علي محمود طه) بين موكب الغيد وعيد الكرنفال وجه مصر وآثارها ٠

قلت والنشوة تسري في لساني هاجت الذكرى فأين الهرمان
أين وادي السحر صداح المغاني أين ماء النيل أين الضفتان

فأين الروضة ؟ وأين حده ؟ وأين الخارد ؟ وأين ميتم ؟ في شعر الزبيري ، لعل هذه القطعة التي أوردتها هي الوحيدة التي حاول الشاعر فيها لقط ملامح وأسماء يمانية ، فأخفق فلم يعد المحاولة كما لم تسبقها محاولة ، فشعر الزبيري شعر عربي لا يعرف قارئه انه يمني الا اذا كان يعرفه شخصيا أما قصائده فلا تدل على روائح يمنية أو على ملامح لارض اليمن ولعل أكثر قصائده دلالة على اليمنية : هي المقطوعة الاولى من قصيدته « مصرع الدستور » :

رب هذا الامام أشلاء مقتول وهذا قبر وهـذا رغام
ورحاب الجحيم يصنـع فيها كل شيء من أجلـه ويقام

وزعت روحـه على الارض   يرتاع اليمانون منه حيث أقاموا
فاذا الحياة شنعـاء فيهـــا   كل شيء وكل شخص امام

ففي هذه الابيات دلالة لكنها غامضة ووقتية لا يعرفها الا من عرف نكبة ١٩٤٨م معايشة أو قراءة وكان الاجمل والابقى لو صور الزبيري الارض الخالدة والمعالم الباقية والتقاليد الموروثة ٠٠ هذه هي المرحلة الرابعة والاخيرة في مراحل شعر الزبيري او من حياة الزبيري الشاعرة ، او من حياة الزبيري المناضل ، فرجوعه الى اليمن من القاهرة كان نهاية عمر شعره فلم يرن له في عهد الثورة بيت حتى استشهاده في ابريل عام ١٩٦٥م والسؤال هل الموت قطع نفس الزبيري الشاعر ؟٠

تدل معطيات قصائده الاخيرة أن طاقة شعره قد نفذت بعد عمر قدره ثلاثون عاما وان ليس لديه جديد ، فقد انفجرت أحداث ملهمة كبطولة اللقيه ورفاقه واستشهادهم عام ١٩٥٩م، وكمظاهرات الطلاب العتية في أواخر عام ١٩٦١م ولم يبح الزبيري ببيت في الحادثتين ٠٠ بل لم تنطقه ثورة ستة وعشرين سبتمبر على قدر انتظارها عشرين عاما ٠٠ وهكذا أعمار الفنون والمواهب تنتهي عند حد ٠

كان « برنارد شو » يتمنى لو عاش مائتي عام ليواصل الانتاج ٠٠ ولكن انتاجه انتهى عندما بلغ السبعين ، وقضى ربع قرن لم ينتج فيه أثرا يذكر ، أو يضف جديدا ، فقد انتهى عمر فنه قبل نهاية عمره ولقد أسف الكثير من رجال الفكر العربي على « عباس العقاد » لان مداد قلمه انقطع بانقطاع نفس حياته ، ولكن هل بقي عند العقاد جديد ؟

لقد دلت أواخر كتبه أن ليس لديه جديد ، وأن عمر فنه عايش عمر حياته ، ومقالاته الاخيرة تدل على ان نبع فنه قد جف ولو تنفس له الاجل لاعاد الحديث ومثل ذلك يقال في الزبيري ٠

محمد محمود الزبيري

حياته .. نضاله .. وشعره

بقلم : محمد سعيد جرادة

الشاعر المحافظ

باسم اليمن غنى ، وبجمال ترابها هام ، وبآلام شعبها وآلامه هتف وغرد ، وقف حياته وأدبه لقضية اليمن لا يحجب ناظره عنها حجاب منذ أن بدأت يداه تمسك القلم أثناء وبعد عهد التخرج ، وهي فترة كثيرا ما يستدر فيها أبصار الشباب شعاع المغريات التي تستجيب لها الفتوة العارمة والشباب المراح . ومن أجل ذلك عز ان نقرأ للزبيري شعرا يناجي المرأة ، أو يصف ليالي اللهو والعبث والمجون مع أن هذه فنون

طرقها حتى بعض الشعراء الذين لم يحترقوا بنارها الملتهبة ، ألم يكتب قديما الشريف غزلياته ·· « الحجازيات » وهو نقيب في عهد بني بويه والمشهور بعفاف النفس ونقاء الضمير وطهارة الذيل ؟ وألم يصف الخمر وهو لم يشربها ـ كما يعرف ذلك قراء سيرة الشريف الرضى فقد كان وصف الخمر والغزل بالغواني الفواتن من دلائل الظرف في العصر القديم وربما ظلت هذه العادة جارية الى اليوم ؟

واذن فقد كان الزبيري شاعرا محافظا يتخذ سمت الفقيه العالم الذي يجب ان يكون في صف العلماء المحققين اكثر منه في عداد الادباء الظرفاء الذين لا يحاسبون أنفسهم على نزوات النفس وهفوات الخلق ، بل ربما عدوا هذه النقائص تجربة عميقة من حسنات الفن الذي يصدر فيه الاديب عن تجربة عميقة مباشرة وتعبير صادق خال من شوائب الزيف والنفاق على أن الزبيري رغم هذا السياج الكثيف من التصون والتعفف الذي ضربه حول نفسه أو ضربته حوله ظروف بيئته ونشأته وتربيته ومحيطه الذي عاش فيه ، لم يستطع أن يمنع نفسه من الانطلاق في التعبير الوجداني في هذه الابيات التي يخاطب بها البلبل حين يراه حرا طليقا لا يئوده ما يئود الشاعر نفسه من اثقال الحسرة الحبيسة والشوق المكبوت :

بعثت الصبابة يا بلبل كأنك خالقها الاول
غناؤك يملأ مجرى دمي ويفعل بالقلب ما يفعل
حبيبك جارك بين الزهور وبينكما روحه تفصل
جناحك فيك فلم لا تطير الى ما تحب وما تسأل

أفي عالم الطير لؤم الوشاة ومن يتجسس أو ينقل
وهل للبلابل دين يصد عن الحب أو آية تنزل

شاعر ووطن

وطن شاعرنا اليمن تفتحت عيناه فيها على شعب لم تنكب شعوب الارض بما نكب به من ظلم وجور ، كان شمال اليمن اقطاعية كبرى لاسرة حميد الدين ورثاء الحكم التركي الذي لم تخلص اليمن منه الا لتقع في براثن حكم هو أعتى جورا وأشد تنكيلا .

وكان جنوب اليمن واقعا تحت نير حكم اجنبي ، لم يفصل بين شمال اليمن وجنوبه فحسب وانما فصل بين كل شبر وشبر من أرض جنوب اليمن حيث كاد الانجليز ينصبون في كل قرية امارة أو سلطنة ، وكان العداء بين الاستعمار والائمة يقيم بينهم سورا له باب ظاهره من قبله العذاب وباطنه من قبله الرحمة للاستعمار والعطف المطلق عليه والخضوع لكل ما يرسم من مخطط ، وما يبث من عوامل التباعد والجفوة والفرقة بين أبناء الشعب اليمني الواحد :

شطره يستغيث منغاصبعات وشطر من مستبد بليد
فاذا ما تخاصما فكقطين استباحا أشلاء جسم بديد

ثقافته

تلقى تعليمه الابتدائي في اليمن ، وفي الثلاثينات بعث الى القاهرة ليتلقى تعليمه بدار العلوم ، وغامضة هي الفترة

التي قضاها بدار العلوم ، على ان هذه الفترة حفلت بنشاط أدبي ظهرت فيها بواكير انتاجه الادبي كأحسن ما تكون استواء ونضجا كتب شعرا في الوحدة العربية وفي قضية فلسطين وفي مواضيع اخرى لها صلة بالحياة الاجتماعية وليس لهـا صلة البتة بمواضيع العاطفة والوجدان فكأن الشاعر محمـد محمود الزبيري كان مؤهلا بطبيعته لان يكون شاعر الوطنية لا ينازعه في ذلك منازع :

غنيت بالاوطان ليلى لم تجد قيسا سواك متيم الاحشـاء
غذيتها بدماء قلبك مثلمـا غذى الطبيب مريضه بـدواء

وعاد الى اليمن عام ١٩٤١م وملء صدره عواطف قومية مشبوبة ومشاعر وطنية متوهجة لعلها أثر من آثار قراءاتـه لحياة عدد من زعماء الاصلاح أمثال الكواكبي وجمال الديـن الافغاني وغيرهما من قادة الفكر والاصلاح الاجتماعي . عاد الى اليمن ليرى فيها حكما قد شاخ وهرم يقف على رأسه امام في أرذل العمر ألغى الحرية وصادر الفكر ، تحيط بعرشه عواصف بعضها تحركها نقمة الاسرة الطامعة في الحكم ، وبعضها تحركها غليان القبلية التي لم ينجع في اطفاء جذوتها أخذ الامام يحيى لها بسياسة اشعال نار الفتنة بينها وضرب رقاب بعضها برقاب بعض ، وأخيرا غليان الوعي الشعبي الذي كان يكمن في أعماق نفوس الشعب كمون النار في الحجر ، وفي هذه الفترة نرى الزبيري متهما فيزج به الامام في غياهب سجن الاهنوم ،ونرى الشاعر الحزين ينظم قصيدته العينية محاولا بها استـدرار عواطف الإمام المتحجرة والوصول الى أقرب ناحية من نواحي

قلبه الفظ الغليظ ، فالشاعر يصور فجيعة أسرته يوم ان أخذه زبانية الامام الى المعتقل :

خرجت بنا تلك المطى كأنها نعش يؤم بنا المقابر مسرع

أما أفراد الاسرة فقد كانوا :

يتخاوصون بأعيـن مذعورة تتجرع البلوى كما نتجرع

ولا يملك الشاعر لهذه الاسرة المفجوعة الا أن يقول لها :

سيروا الى المولى الامام لعله يحنو على هذى القلوب ويخشع
صبوا المدامع تحت ظل حنانه ان الحنان الى المدامع يسرع
وتحملوا معكم صغارا رضعا فعساه تعطفه الصغار الرضع
حتى اذا جئناك نطلب نفحة هبت علينا منك ريح زعزع

في ظل ولي العهد

واتصل بعد السجن ببلاط ولي العهد احمد بن يحيى ، وكان هذا الامير يتصنع العطف على قضايا أهل الفكر والادب، ويصارح المحيطين به بميوله نحو الاصلاح ، ويستنظرهم موت أبيه ليحول جدب اليمن خصبا ، وركودها وجمودها حياة وحركة ، ومن هنا دخل الزبيري ورفاقه في تجربة جديدة ، كتب النعمان كتيب « الرحلة » التي زار بها ولي العهد مناطق من أرض شمال اليمن ، وكتب الزبيري أو أنشد على الاصح قصائد في ولي العهد يظهر عليها جليا صدق الحب وحسن النظر وجميل الظن ، فمن شعر الزبيري في هذا العهد قصيدته التي امتدح بها تهديم ولي العهد ضريح احمد بن علوان التي يقول فيها :

كذلك المجد اما رافعا علما　　او باعثا أمما أو هادما صنما
يا من يجدد من آثار أمته　　ما لو رأى جده المختار لابتسما
جرح على كبد الاسلام متسع　　وضعت فيها ثياب السيف فالتأما

ومدحه بقصيدته التي أولها :

العيد من قسمات وجهك يشرق　　والدهر تحت لواء مجدك مطرق

وقصيدته التي أولها :

هذه الشمس أم شعاع المكارم　　أم محيا عيد بصفحة صارم

ومدحه بقصائد اخرى كان حظه فيها من الاجادة كبيرا •

ولكن تجربة الزبيري ورفاقه من مثقفي اليمن لم تطل فسرعان ما اكتشف هذا الرعيل سوء ما يضمر لهم ذلك الحاكم من خبث نية وقبح طوية فكان خروج الزبيري ورفاقه من شمال اليمن الى عدن مرددين بيته المشهور :

خرجنا من السجن شم الانوف　　كما تخرج الاسد من غابها
نمر على شفرات السيوف　　ونأتي المنية من بابها

في عدن

وفي عدن تكون حزب الاحرار وصدرت «صوت اليمن» أول صحيفة شنت الهجوم على الوضع القائم في الشمال وكانت قصائد الزبيري نفير الركب وحداء القافلة في مسيرة الشعب اليمني نحو الحرية • لقد كتب الزبيري بعد خروجه من شمال اليمن لونين من الشعر ، صارخا وهادئا •

فاما اللون الصارخ من شعره فيتمثل في قصائده الثائرة التي تهاجم النظام الامامي بلهجة فيها عنف وتحريض وقد كانت اشعاره تلك تقرأ في كل بقعة من بقاع اليمن بحيث تضاءل الى جانب صوت الزبيري صوت كل شاعر ، وبحيث استحق ـ بجدارة ـ ان يظهر وحده على مسرح الشعر ، باعتباره الممثل الوحيد لقضية اليمن التي لا يقوى غيره على أداء مثل دوره تمثيلا على مسرح الحرف لا يمكن أن يشتري فيه قلمه الملهم وضميره الحر على كثرة المغريات التي كان النظام الفردي يشتري بها الضمائر بحيث استطاع ان يسترجع أناسا حتى من صف الثورة ليكونوا في صفه حربا على الحرية والاحرار ٠

واما اللون الهادي من شعر الزبيري فيتمثل في قصائد قليلة من شعره قالها في مواضيع الوجدان مثل قصيدته في « البلبل » وقصيدة حنين الغريب « أمل غير متاح » وسنعرض لهذين اللونين من شعره في موضع اخر من هذا المقال :

مذهبه السياسي

وقد آن للقارىء العزيز أن يعلم شيئا عن مذهب الزبيري السياسي الذي كان يعتنقه وعن الاهداف التي كان يؤمن بها في الدعوة الى الثورة على الحكم الامامي ٠

والواقع ان جماعة الاحرار لم تكن اكثر من فئة تثقفت ثقافة دينية في أصل جوهرها ، هي فئة قرأت عن الثورة العربية ضد عبد الحميد وألمت بطرف من العلم بأصول الحكم البرلماني وقواعد النظام الدستوري ، وأطالت النظر حول ما

كتب الكواكبي ومحمد عبده ورشيد رضا حول ضرورة الاصلاح السياسي والديني في المجتمع العربي توصلا الى القضاء على الاستعمار الذي كان يسيطر على معظم البلاد العربية ومعظم قارتي آسيا وافريقيا ٠

ولم يصل الطموح بجماعة الاحرار – في تلك الفترة – الى حد اعلان النظام الجمهوري ، لان النظام الملكي كان سائدا في البلاد العربية ، نظام ملكي في مصر ونظام ملكي في العراق، وفي الاردن ، وفي الحجاز ، وكان الاحرار في حاجة الىمساندة بعض الاقطار العربية وخاصة مصر والعراق ، فكان من الحكمة او من البداهة ان لا يتركز هجوم الاحرار على النظام الملكي من حيث هو نظام لانهم في حاجة الى مساندة البلدين اللذين أسلفت ذكرهما ولان الاستعمار كان يحتضن أولئك الملوك ، ولن يمكن الاحرار من شن الغارة على النظام الملكي خاصة وهم في عدن احدى ممتلكات التاج البريطاني يومذاك وانما كان قصارى هم الاحرار ان يعلن حكم ملكي مقيد بدستور ونظم برلمانية وذلك مالا يغيظ مصر والعراق وكثيرا من الاقطار العربية التي كانت تعرف مأساة اليمن بنظام الحكم القائم فيها والذي لا يشبهه نظام في حياة أي شعب بدائي متخلف ٠

ومن أجل ذلك قام على رأس انقلاب ١٩٤٨ الامام عبد الله بن الوزير الذي اعترف به الزبيري ورفاقه اماما دستوريا يغاير شكل الامامة القديم ٠ وان لم يكن هذا العمل الا من قبيل قول الشاعر « أراد البرء من داء بداء » وهو أمر تنبه اليه الزبيري فيما كتب بعد هذه المرحلة من شعر ونثر ٠

وضربت ثورة ٤٨ وأحيط بالاحرار الذين انتقلوا من جنوب اليمن الى شماله ليشهدوا ميلاد الفجر الجديد ، ونزل أغلب قادتهم غياهب السجون ، وقتل بعضهم وترك البعض الاخر في حالة أشد من القتال ونجح الزبيري ، ولفظته الجهات أنى حل ، وانتهى به المطاف في الباكستان التي ظل لاجئا فيها الى ما بعد ثورة يوليو التي عاد بعدها الى مصر مستأنفا نشاطه مع أحرار اليمن للعمل على تفجير ثورة جديدة •

وخلاصة ما يمكن ان يقال في مذهب الزبيري السياسي، انه أصبح جمهوريا يؤمن بحكم الشعب أيا كان شكل هذا الحكم ، وبحسب اتساع مدلوله الذي يمكن ان يرتضيه الانسان التقدمي الذي لا يحتكم الى غير النظرية المادية مثل غير الزبيري ، والانسان التقدمي المرتبط بالثقافة الدينية مثل شاعرنا الزبيري •

شعره الوطني الصارخ

سبق ان أسلفنا أن شاعرنا كتب لونين من الشعر أحدهما صارخ ونقصد به شعره الوطني والاخر هادىء ونقصد به شعره الوجداني ، والحق أن شعره الوطني قد تميز بالنبرة الخطابية التي تأسر الالباب وكذلك يكون شعر السياسة جملة خطابية لها مفعول القذيفة النارية ، ولمسة قاصدة ، واشارة واضحة ، تتجه الى غرضها المباشر بغير ما لف ولا دوران •

الملايين العطاش المشرئبة   بدأت تقتلع الطاغي وصحبه
سامها الحرمان دهرا لا يرى   الغيث الا غيثه والسحب سحبه

لم تنل جرعة مـاء دون أن   تتقاضاه بحرب أو بغضبـه
ظمئت في قيده وهي تـرى   أكله من دمها الغالي وشربه

وقد أسلفنا القول ان الزبيري أدرك الخطأ الذي ارتكبه الاحرار حين أرادوا استبدال امام بامام ، لقد ألم بهذا المعنى في قصيدته « نكسة الثورة اليمنية » وذلك حين يقول :

أنا راقبت دفن فرحتنا الكبرى   وشاهدت مصرع الابتسامـة
ورأيت الشعب الذي نزع القيد   وأبقى جذوره فـي الامامـة

ولم تكن الجملة الخطابية عند الزبيري جوفاء خالية من الشعر ، كلا فانما هي جملة تعتمد الرسم الحي والصـورة المعبرة وترفل في أثواب زاهية من صدق الشعور وجمـال التعبير :

كفرت بعزمتـي الصامـدة   وقدسية الغضبـة الحاقـدة
وأنات قلبي تحت الخطـوب   وأحلامه الحيـة الصاعـدة
وبالشهـداء   وأرواحهـم   تراقبنـي من عـل شاهدة
اذا أنا أيدت حكم الطغـاة   وهادنتهـم ساعـة واحدة

وتأتي الصورة بعد هذه الابيات فطرية ولكنها عميقـة الغور لانها تمثل الضمير الفني الذي يشتريه الطغاة فيتبعهـم أتباع الشاة الجزار لا تعرف ان مصيرها الذبح لانها نامـت ليلها على فراش من البرسيم :

هي الشـاة تتبـع جزارهـا   وتنسى ببرسيمـه ثارهـا
تباع وتشرى من الذابحيـن   وتجهل في البيـع أسعارها
يجرجرها الحبل في عنقهـا   الذليـل فتحسبه غـارهـا
ترى مدية الذبح مصقولـة   تضيء فتكبـر أنوارهـا

ولن نطيل الكلام حول شعره الوطني فهذا موضوع قد تناوله كثير من الكتاب داخل اليمن وخارجها ولكن حسبنا ان نوجه انظار الدارسين لشعر الزبيري الوطني الى ضرورة جمعه وترتيبه بحسب المراحل الذي قيل فيها ، مرحلة شعره في الباكستان ، فشعره في مصر بعد ثورة يوليو ، ان دراسة شعره على هذا النمط المرتب يجعل القارىء اكثر فهما لنفسية الزبيري بما أحاطت بها من حالات السوداوية واليأس والشجن والفرح والالم والامل ، فشعر الزبيري الوطني دار حول اكثر من بقعة من ارض الوطن العربي له شعره في ثورة يوليو ، وفي العدوان الثلاثي وفي ثورة العراق وفي الوحدة العربية وفي قضية فلسطين ، وكل هذا الشعر ينبغي أن يدرس في أبواب مختلفة تسير وفق خط رأسي منظم لا تحجب جماله عجلة البحث الخاطف والاستعراض السريع ٠

شعره الوجداني

في شعره الوجداني نفس حزين لا نلمسه في شعره الوطني ولا بدع في ذلك بالقياس الى الشعر النابع من مشاعر الذات ٠

فالزبيري الذي تعود التهديد والوعيد في شعره الذي يخاطب الطغاة يروعهم بقوة ما في نفسه من عزم ومضاء وما في يده من سلاح فهو محكمة يقاضي تحت سقفها الطغاة ويصدر عليهم احكام الاعدام :

أصبو الى أمتي حيا وأبعثها بعثا وأبني لها بالشعر بنيانا
وما حملت يراعي خالقا بيدي الا ليصنع أجيالا وأوطانا

يخاله الملك السفاح مقصلة في عنقه ويراه الشعب ميزانا

ولكنه في شعره الوجداني انسان رقيق يتألم ألما عميقا ، الا أن ألمه كله لا يتعدى كونه ألما سياسيا يوزعه على رفاقه السجناء وهو مشرد غريب :

كلما أبت للحفاظ تصدى لي هواكم فشل كفي وحدي
يطلب الهم للحريق وللتعذيب مني اضعاف لحمي وجلدي
وتريد العلى وقودا من الاعصاب لم تبق ذرة منه عندي
قد لعمري أفلست من كل صبر كنت أحيا به ومن كل جهد
قد عصاني قلبي وجنت أحاسيسي وثارت نفسي مع الدهر ضدي

وهو رقيق حين يتشوق الى أرض الوطن فيصدر الآه متتابعة في اخر حائيته « حنين الطائرة » :

آه لو اجتذب الوكر بحبل الامتياح
آه لو يمحو مسافات النوى والبعد ماح
ما على الاقدار ان عدت لاهلي من جناح
آه ماذا تصنع الآهات في البيد الشحاح

وينهي هذه الابيات ببيتين في فلسفة الدمع :

تعس الدمع اذا لم يستطع حل سراحي
البكا أعجز ما أستخدمت في كسب النجاح

وفي البيتين الاخيرين السالفين للزبيري نظر الى قول المتنبي في بيتين نظيرهما في فلسفة الدمع قال أبو الطيب في رثاء أبي شجاع فاتك :

بأبي الوحيد وجيشه متكاثر ... يبكي ومن شرك السلاح الادمع
واذا حصلت من السلاح على البكا ... فحشاك رعت به وخدك تقرع

ما جرى من شعره مجرى الامثال

ومن شعره ما جرى مجرى الامثال ، فمن ذلك قوله في ملاينة الظالم والاستسلام له :

ولكنه قد يقتل المرء نفسه ... اذا اختار صلافي الظلام يداعبه
أحق بناب الوحش من بات عنده ... وأحمق من ذي جنة من يصاحبه

وهذان البيتان يشبهان قول ابن عبد القدوس :

من لاعب الثعبان في كفه ... هيهات أن يسلم من لدغته

كذلك من الامثال السائرة في شعره قوله :

واذا ثوت بين الضلوع بهائم ... قويت على حمل العصا الاجسام

وقوله في قوة الشعب :

الشعب أعظم بطشا يوم صولته ... من قاتليه وأدهى من دواهيه

وقوله أيضا :

الجماهير لا تعيش على الشك ... ولا تستقر فوق هباته

وقوله :

عجبا للجبان يستمنح الظالم ... أمانا والشعب أبقا وأخلد
يتوقى اغضاب محتضر فات ... وينسى شعبا صحا وتمرد

وقوله في قصيدة « سجل مكانك » :

والحق يبدأ في آهات مكتئب ... وينتهي بزئير ملؤه نقم

وقوله أيضا في نفس القصيدة :

ان اللصوص وان كانوا جبابرة ... لهم قلوب من الاطفال تنهزم

وقوله في همزيته النبوية :

كل عين صغيرة لا ترى في الكون ... الا صغائر الاشياء

تلك كانت وقفتنا مع الزبيري في ذكرى استشهاده التي توافق الاول من ابريل ١٩٦٥ .

الزبيري ·· شاعر الحرية

زكي بركات

١

« مناقشة نقاد الزبيري »

أ ـ لماذا شاعر الحرية ؟

منذ أربع سنوات ، كتب الزميل عمر الجاوي في مجلة « الثقافة الجديدة » مقالا تحت عنوان « الزبيري شاعر الوطنية » · اتسم بالجرأة واثارة قضايا سياسية على درجة كبيرة من الحساسية ·

ولا يضير الزميل « الجاوي » في شيء ان يكون في مقاله محللا سياسيا وهو بصدد شخصية تجمع بين الادب والسياسة · فذلك هو مداه ، كما لا يضيره في شيء ، ان نصطدم في مقاله ببعض الاخطاء والهفوات · فتلك هي طبيعة العمل الريادي وسنة الحياة ·

الثقافة الجديدة ، ١٩٧٥ ·

وما أريد أن أصل اليه هنا ، هو مناقشة عنوان المقال وأذكر انني في حينها ، قد وقفت طويلا امام هذا العنوان ، قبل قراءة المقال مفكرا في مدى صحته وبعد ان فرغت من القراءة ، تأكد لي أن الزميل « الجاوي » لم يكن موفقا في العنوان ٠

فشاعرنا « الزبيري » لم يدخل ، اثناء فترات نضاله السياسي ، في أية مواجهة مع الاحتلال البريطاني ، ولربما كتب قصيدة أو قصيدتين تعرض فيهما لهذا الموضوع ٠

اذن ــ هكذا تساءلت ــ لماذا هو شاعر الوطنية ؟

وازداد تساؤلي ، بعد ان اطلعت على مقال اخر للشاعر « عبد الله البردوني » يحمل نفس العنوان ، ونشر بعد عام تقريبا (١) ٠

ولقد اتضح لي فيما بعد ، ان مفهوم « الوطنية » قد استخدم من قبل الاخرين بمعنى مغاير تماما لما هو مصطلح عليه ٠ كيف ؟

لقد فسر موقف « الزبيري » من الاستبداد الامامي ، ومقارعته لهذا الاستبداد بانه موقف وطني !٠ وليس الامر كذلك ٠

فما أفهمه ، وما هو مصطلح عليه ، ان النضال ضد التدخل الاجنبي سواء كان ذلك التدخل مباشرا في صورة احتلال ، أم غير مباشر في صورة استثمار وهيمنة سياسية وركائز محلية ــ هو ، وحده ، النضال الوطني ٠ **اما نضال « الزبيري » ضد الائمة ، فقد كان نضالا سياسيا اجتماعيا ،**

وليس نضالا وطنيا • فالائمة باستبدادهم ، بفسادهم ، بانغلاقهم ، لا يشكلون ـ على أي حال ـ تدخلا اجنبيا •

وعندما عرض أحد النقاد المصريين ، لجانب من شعر « شوقي بك » ، وأطلق تسمية (شوقي •• شاعر الوطنية) ، فانما عنى بذلك ، القصائد التي قالها شوقي ضد الاحتلال البريطاني لمصر وضد التدخل الاجنبي في بعض الاقطار العربية فعلى هذا الاساس ، جاءت التسمية • ومن المعروف ، ان « شوقي بك » « وهو ربيب القصر » لم يهاجم الحكم الملكي الفاسد في مصر بل انه القائل :

أأخون اسماعيل في أبنائه
وأنا ربيت بباب اسماعيلا ؟

اذن •• فقد استحق « شوقي » لقب « شاعر الوطنية » بحق ـ وان كان قد انزعج الكثيرون من هذا اللقب لانهم يفهمون مصطلح « الوطنية » كما يفهمه الزميل الجاوي والشاعر البردوني ـ على الرغم من موقفه الواضح من الحكم الملكي ، في حين يجرد ـ أو ينبغي أن يجرد ـ منه شاعرنا الزبيري ، الذي كرس معظم شعره في مهاجمة الحكم الملكي الامامي ، ذلك لان الزبيري لم يواجه الاحتلال الاجنبي • وكذلك الحال ، عندما نقول « ثورة وطنية ديمقراطية » • اذا أننا نقصد بالوطنية ، النضال ضد التدخل الاجنبي « الاستقلال السياسي والاقتصادي » وبالديمقراطية ، النضال الاجتماعي والسياسي الداخلي ، واذا أردنا أن نبحث في بلادنا عن « شاعر الوطنية » فانه ـ دون ان نجهد أنفسنا في البحث ـ شاعرنا المرحوم

« لطفي جعفر أمان » هذا الشاعر الذي ألهب مشاعرنا بقصائده الوطنية أثناء النضال السياسي والمسلح ضد الاستعمار البريطاني • والذي ـ بسببها ـ عانى ما عانى من غبن في تلك الفترة • فحقق معه اكثر من مرة • وتعرض للاغراء المشروط فرفض ولم يتبوأ ـ على حد علمي ـ مركزا كبيرا مسئولا في العهد الاستعماري البائد ، وهو المثقف ثقافة ليبرالية عميقة والمجيد اجادة تامة للغة الانجليزية « شرط الوظيفة ومقياس الارتقاء الوظيفي » • وكذلك الحال بالنسبة للشاعر المهضوم « ادريس حنبلة » الذي أربك الاستعمار في اكثر من موقف بقصائده ، وعانى هو الاخر ما عانى ، من شظف العيش والتحقيقات والاعتقالات • وبالنسبة لشاعرنا الكبير « هادي سبيت » الذي طواه النسيان وهو ـ للاسف الشديد ـ حي يرزق •

واذا كنا قد قررنا عدم صحة هذه التسمية « الزبيري •• شاعر الوطنية » فان البديل لها ـ دون تردد ـ هو : الزبيري « شاعر الحرية » اذ ان معظم شعر « الزبيري » يدور حول هذه القيمة الانسانية ، قيمة الحرية ـ وان كانت قد اقتصرت على قضايا الشطر الشمالي من الاقليم اليمني ـ في نضاله ضد الاستبداد الامامي ، من أجل الحرية السياسية والحرية الاجتماعية •

سياسيا ـ التحرر من كتمه الانفاس وحرمانه العمل السياسي ، من فظاعة سجونه واثقال اغلاله ، من ضراوة بطشه ، مما فرضه على الشعب اليمني في الشمال من عزلة رهيبة عن العالم العربي والعالم الخارجي •

اجتماعيا ـ التحرر من حكمه الطائفي وألوهيته • من الخضوع الاعمى الميتافيزيقي له • من الامتيازات الطبقيـــة والطائفية • من القهر الاجتماعي • من الفساد الاداري ، من الفقر والجهل والمرض •

لقد كان الزبيري في نضاله ، يتحرك بدافع من قيـم سلفية دينية وليبرالية ذات نزعة انسانية • قيم « الحرية والاخاء والمساواة » التي نجد لها صدى في الاسلام ، كذين وتاريخ وسيرة افراد ، والتي رفعتها يوما البرجوازية الاوروبية الصاعدة ، وخانتها بعد ذلك •

فهل آن لنا ، ان نقول معا ، باطمئنان :
« الزبيري •• شاعر الحرية » •
ونردد معه قوله :

ـ لنمت أو نعش على الارض أحرارا
•• ولا عاش من يستسيغ الاهانة

ب ـ الزبيري وحركة الاحرار اليمنيين :

لا نعلم الشيء الكثير عن نشأة « الزبيري » الا مـن اشارات عابرة • ويبدو انه قد « نشأ على شيء من الشظف والقلة وبدأ حياته طالب علم ينحو منحـى الصوفيـة فـي روحانيتهم وعزوفهم عن الحياة المادية » (٢) وفي عام ١٩٣٩ اتجه الى « القاهرة » للدراسة ولم يطل بقاؤه فيها ، حيـث غادرها الى صنعاء عام ١٩٤١ ، ويقول الدكتـور « محمـد الشهاري » ان الزبيري قد ارسل للدراسة على نفقة « علي

ابن عبد الله الوزير » أمير تعز ، الذي ربطته بالزبيري « علاقة سياسية وثيقة » ظلت مستمرة حتى خروجه الى عدن عام ١٩٤٤ (٣) ٠

(اختلف الكتاب حول عام الخروج ٠ البعض ـ ومنهم الزبيري ـ يحدده بعام ١٩٤٣ وفي بداية هذا العام تكون « حزب الاحرار اليمنيين » في عدن ٠ وأصبح شاعرنا الزبيري رئيسا له ٠ وقد ضم الحزب قوى اجتماعية متباينة ومتناقضة، يجمعها هدف مشترك هو القضاء على حكم الامام « يحيى حميد الدين » ومن بعده نجله الامام « احمد » وإقامة دولة دستورية اصلاحية ٠ و « كان التجار اليمنيون في عدن وفي مختلف البلدان التي يوجد فيها مهاجرون يمنيون ـ بصورة خاصة من التجار ـ قد أصبحوا قواعد هذا الحزب حتى بدون انتماء انتظامي ـ حسب اللوائح المتبعة ـ والممولين لنشاطه السياسي والدعائي » (٤) ٠

وفي عام ١٩٥٢ اتخذت الحركة اسما جديدا هو « الاتحاد اليمني » برئاسة الزبيري ثم أنشأ الزبيري جمعية الاتحاد « الجمعية اليمنية الكبرى » في القاهرة عام ١٩٥٣ ٠ ومنذ قيام حركة الاحرار اليمنيين كمعارضة « بعد الحرب اليمنية السعودية عام ١٩٣٤ » وحتى انتهائها بقيام ثورة السادس والعشرين من سبتمبر عام ١٩٦٢ ٠ شهدت المنطقة اليمنية في الشمال محاولتين انقلابيتين ٠ الاولى عام ١٩٤٨ وقد أدت الى مصرع الطاغية « يحيى بن حميد الدين » واقامة « حكومة الدستور » مدة ستة وعشرين يوما ٠ ثم نصب « احمد بن

يحيى » اماما خلفا لابيه •

والثانية عام ١٩٥٥ قادها المقدم الثلايا ونصب « عبد الله بن يحيى حميد الدين » اماما جديدا • وقد منيت بالفشل بعد خمسة ايام واستطاع الامام « احمد » ان يسيطر على الموقف ويبطش بمدبريها بطش الذئاب • ونتيجة لطبيعة هذه الحركة فقد جرى داخلها الكثير من الاختلافات والصراعات والانشقاقات • ليس أدل على ذلك من الموقف من انقلاب ١٩٥٥ حيث عارضه اثنان من اكبر قادتها • هما الشاعر « محمد الزبيري » و « احمد محمد نعمان » وأيده القاضي عبد الرحمن الارياني وهو أحد قادتها •

وحول طبيعة الحركة ونوعية قياداتها ، يرى الدكتور الشهاري ، ان الحركة بدأت كمعارضة اقطاعية جاءت نتيجة « لحصر الحكم في يد الامام وانجاله ـ سيوف الاسلام ـ مع مشاركة محدودة من بعض العائلات الاقطاعية الكهنوتية العليا المشايعة له وغير الطامحة الى منازعته » ومن ثم فان هذه المعارضة هي محاولة « توفيقية لايجاد صيغة سياسية منسجمة ومتطابقة مع الحقيقة الاقتصادية والطبقية القائمة بحيث تتمكن في ظلها الطبقة الاقطاعية « كلها » من الاشتراك المباشر والفعال في توجيه سياسة الحكم بما يتفق مع مصالحها العامة السياسية والاستراتيجية » وقد تبنت هذه المعارضة مفاهيم ليبرالية « الدستور ، اصلاحات ادارية ، تحسينات تنظيمية على أجهزة الدولة » « تمثلتها الفئة البرجوازية وقدمتها الى الجناح المعارض » وعلى هذا الاساس « فقد رأت المعارضة اليمنية

بقسميها الاقطاعي والبرجوازي في انظمة الحكم العربية الخاضعة للاستعمار ، نموذجا مثاليا للحكم الذي تطمح الى اقامته » (٥) ٠

وبصدد هذه القضية ، وقف الزميل عمر الجاوي اكثر من وقفة وتضاربت استنتاجاته بين الحين والاخر ٠ ولعله استقر مؤخرا على هذا الرأي حيث يقول « فمن الناحية الاجتماعية والفكرية لم يخرجوا مطلقا عن نفس الطبقة التي ينتمي اليها الامام وصحبه ٠ اما من ناحية السياسة التاكتيكية ٠ فقد كانوا يطمحون الى تأسيس دولة اقطاعية اكثر تقدما في مجال الادارة وأجهزة القمع ٠ ونقصد هنا أولئك الذين قادوا الحركة نفسها » و « ان حركة الاحرار ، وكلنا يقر هذه الحقيقة ٠ اتخذت منهجا اقطاعيا واهدافا لا تخرج عن هذه الامور ٠ وكانت أغلب قياداتها من نفس الصنف » و « انها في حقيقة الامر حركة اصلاحية داخل الطبقة الاقطاعية نفسها » (٦) ٠

ويبرز سؤال :

هل كانت حركة الاحرار اليمنيين تعتمد على القوى الداخلية وحدها أم ان لها ارتباطاتها الخارجية ؟

يجيب الدكتور الشهاري على هذا السؤال بقوله : ان الحركة قد نشأت كفرع لحزب الاخوان فالزبيري واحمد محمد نعمان « قد التقيا في القاهرة أثناء الدراسة من عام ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ وتخرجا سياسيا على يد حزب الاخوان المسلمين وكان « الفضيل الورتلاني الجزائري » وهو عضو مكتب الارشاد

لحزب اخوان يلعب دور عنصر الربط بين احرار ، الداخل واحرار الخارج ». (٧) ٠

و « الدولة الدستورية » التي قامت أثناء انقلاب عام ١٩٤٨ وكان امامها « عبد الله بن أحمد الوزير » هي – في نظر الدكتور الشهاري – « نواة دولة الاخوان المسلمين » (٨) ويرى الدكتور الشهاري ان الحركة قد ارتبطت بالاستعمار البريطاني الذي احتواها ٠ وان هناك من الوقائع والوثائق ما يدمغ صلتها بالانجليز (٩) وقد دار تنافس بين الاستعمار القديم « بريطانيا » والاستعمار الجديد « أمريكا » حول الشطر الشمالي من اليمن ، وكان الزبيري ونعمان يقفان مع بريطانيا ضد امريكا (١٠) حيث شكل حزب الاحرار – بالنسبة لبريطانيا حصان طرواده (١١) في وجه الاطماع الامريكية ٠ فقد كان الحزب يخشى من عرقلة الاستعمار الامريكي لخططه الانقلابية٠ اما من ناحية المبدأ فانه لا يمانع في اعطاء امتيازات للشركات الاجنبية شريطة الا يتم ذلك على يد الامام نفسه (١٢) ٠

وبغض النظر عن مدى اتفاقنا او اختلافنا مع وجهات النظر المتباينة حول حركة الاحرار اليمنيين – ونحن مبدئيا ، نتفق في القليل ونختلف في الكثير – فاننا في هذه الدراسة – لسنا بصدد تقييم هذه الحركة ٠ وانما نحن ، بصدد تقييم شاعرنا الزبيري وموقعه فيها ٠ على ان ذلك لا يعفينا من طرح القضايا العامة – دون الدخول في التفاصيل خشية الخروج عن الموضوع – التي يمكن عن طريقها ، القاء الضوء على هذه الحركة وموقع الزبيري فيها ٠

١ ـ ان الظرف التاريخي الذي عاشه الوطن اليمني أثناء الحكم المتوكلي ، لم يكن اقطاعيا خالصا • فالقبلية ما زالت حتى بأطوارها البدائية ـ موجودة « كتاريخ » وذات نفوذ اجتماعي وسياسي « كسلطة » • والبرجوازية نامية وذات تطلع اجتماعي وسياسي « وان كانت في الجنوب اكثر بروزا » • والامبريالية البريطانية « وما يفترض بسببها من تأثير على العلاقات الاجتماعية » جاثمة في الشطر الجنوبي • وعلى هذا الاساس « الطبقي » فان المجتمع اليمني كان ـ وما زال شبه قبلي ـ اقطاعي شبه برجوازي » • ومن أراد أن يطلق صفة واحدة على ذلك المجتمع ، باسم التحليل العلمي «الماركسي» • دون ان يضع في اعتباره تداخل هذه التشكيلات الاجتماعية فيما بينها • ونقلها المتساوي سياسيا تقريبا ، فانه بذلك يبتعد عن التحليل العلمي الماركسي ويكون في أمس الحاجة الى استيعاب نهج الماركسية وخاصة في مسألة الشرق » (١٣)•

٢ ـ ان الاقطاع في اليمن ، ضعيف متخلف ، «شرقي»• فهو ليس « طبق الاصل » من الاقطاع الذي عرف في أوروبا الغربية •

وضعه ، تخلفه ، خاضع لظروف موضوعية « أهمها الري » • لذلك فان تطلعات بعض الاقطاعيين نحو التقدم في حدود الاقطاعية • وما أدى اليه الامر من وقوف اقطاعي ضد اقطاعي ، لم يكن سببه هيمنة الامام ومن حوله على الحكم « فقط » • وانما ايضا « عرقلة » الظروف الموضوعية لتطور الاقطاع ، مما كان يجعله امام أمرين •

أ ـ أما بناء السدود لخزن المياه • وهذا الامر يتطلب تدخل الدولة وسيطرتها على الارض ، وهو ما حدث في تاريخ اليمن القديم ، اذ كانت الارض وما عليها ملك الدولة •

ب ـ واما حل مسألة الارض فيما بين الاقطاعيين أنفسهم حلا يرضي الاغلبية على الاقل ـ ويدفع ببعضهم نحو الاستثمار الرأسمالي في المدن •

وكان الامر الاخير هو الطريق الوحيد • ومن خلالـه ، يمكننا فهم المعارضة الاقطاعية لحكم بيت « حميد الديـن » والعلاقة التي ربطتها بالمعارضة البرجوازية •

٣ ـ ان حركة الاحرار اليمنيين ليست حركة متجانسة من الناحية الفكرية بحكم تباين قواها الاجتماعية • وهذا ما يفسر لنا اختلافات قياداتها والانشقاقات التي لحقت بها •• ومنذ تبنت الحركة التمرد العلني على الحكم الامامي والتخطيط الانقلابي بقيام « حزب الاحرار اليمنيين » استطاعت العناصر المستنيرة » « كالزبيري ونعمان » السيطرة على قيادتهـا • الا ان عجز القيادة عن الوصول الى القوى الشعبية والاعتماد عليها « وهو عجز موضوعي لا ذاتي كما يعتقد البعض نتيجة لارتباط قطاع واسع من هذه القوى ـ بحكم القبلية والطائفية ـ بالمشائخ والزعامات » جعلها ترحب بزعامة المعارضة الاقطاعية• خاصة بعد وصول « سيف الحق ابراهيم » ـ ابن الامام يحيى ـ الى عدن • وانضمامه الى حركة الاحرار بعد ان باءت محاولة اخيه السيف « احمد بن يحيى » للاتفاق مع قيادة حـزب الاحرار بالفشل الذريع ، اثناء زيارته لعدن عام ١٩٤٦م •

فالارتباط بسيوف الاسلام في تقديري • هو « الامكانية الوحيدة » التي فرضتها الظروف الموضوعية ، ظروف العجز عن الاعتماد على قوى غيرها • في سبيل الاطاحة بالحكم المتوكلي وتحقيق برنامج الحزب « الاصلاحي ــ الليبرالي » ولو عن طريق امام • وقد اعتقد قادة حزب الاحرار ــ وهو اعتقاد ساذج وبريء ــ ان موقف بعض الحكام من حركتهم هو استجابة لدعوتهم وانضمامهم الى صفوف الشعب (١٤) •

٤ ــ ان الحركة وليدة ظرف تاريخي معين • فهي ، بايجابياتها وسلبياتها ، « الممكن الوحيد » في ذلك الوقت • وعلى هذا الاساس ينبغي تقييمها بصفاء ذهن وموضوعية • وليس هناك شك في أن الجانب الليبرالي فيها ، كان في حينه خطوة متقدمة ، وليس هناك شك في انها قد فتقت العقول المغلقة وأوجدت « حالة جماهيرية » ان لم تكن قد شاركت بالفعل ، فانها قد شاركت بالتأمل فيما حولها والبحث عن حقيقة ما كان يجري من احداث ودماء وليس هناك شك في انها قد لعبت دورا تاريخيا شكل « ارهاصا » للحركات التي جاءت بعدها وكانت متقدمة عليها بحكم اختلاف الظروف واختلاف قواها الاجتماعية •

٥ ــ ان العلاقة التي ربطت الحركة بالانجليز لا تختلف في شيء عن العلاقة التي ربطت الحركمات « الاقطاعية ــ البرجوازية » العربية بقوى أجنبية • وما جاء به الدكتور الشهاري من أدلة ووثائق تدين الحركة بالتعاون والتواطؤ مع الانجليز و « العمالة » له ، أمر اقل ما يمكن ان يوصف بأنه غريب ، ومحاكمة غير مشروعة وقافزة على السياق التاريخي •

٦ ـ ان موقع الزبيري في هذه الحركة بقدر ما يأخذ منها صفتها العامة « الدستورية الاصلاحية » يتميز عنها في أشياء أخرى • تتصف بالاتساع النسبي في الرؤية على المستوى المحلي ، والعربي • وبالثبات المبدئي بعد خروجه من عدن عام ١٩٤٤م • وبحساسية نضالية صادقة مع نفسها نابعة من تكوينه الثقافي « الهجين » وشاعريته المرهفة ونزعته الصوفية • وذلك ما سوف يتضح لنا من خلال هذه الدراسة •

ج ـ هل كان الزبيري ممثلا للاقطاع ؟

يقول الدكتور الشهاري « وفي الواقع ، ان الزبيري كان ـ من الناحية الطبقية ـ أحد الممثلين « الملهمين » للجناح المعارض من الطبقة الاقطاعية • مثلما النعمان ـ ولو اعتبره الجاوي خطأ ـ احد الوجوه الممثلة للاقطاع ـ كان احد المعبرين عن مصالح البرجوازية التجارية اليمنية الناشئة (١٥) •

فالدكتور الشهاري ـ كعادته ـ مولع باطلاق الاحكام العامة « هذا ممثل للاقطاع ذاك ممثل للبرجوازية لا للاقطاع » دون ان يقدم من الحيثيات ما يدعم به احكامه •

واذا ما تساءلنا : كيف ذلك ؟

لا نجد لدى الدكتور ، ما يثبت به حكمه سوى بعض الحجج او حتى حجة واحدة سرعان ما تنقلب حجة عليه •

فالزبيري ممثل للاقطاع لانه ـ في نظر الدكتور ـ كان على علاقة بأمير تعز « علي بن عبد الله الوزير » حتى خروجه الى عدن عام ١٩٤٤ • وهذا في رأيه « خير ما يعبر عن «انتماء

الزبيري « الطبقي » • ومنذ هذا التاريخ ، والزبيري يمثل حلقة وصل بين البيتين المتخاصمين بيت الوزير وبيت النعمان (١٦) •

وبصدد هذه المسألة ، لا بد من اثارة النقاط التالية :

١ ـ لكي نحكم على شخص ما ، بأنه يمثل طبقة ما • علينا أولا ان « نثبت » ان افكاره التي يروج لها هي افكار تلك الطبقة بعينها •

وهذا ما لم يقم ـ أو يكترث ـ به الدكتور الشهاري • خاصة وان الانتماء الطبقي للشخص لا يعين على ذلك • فقد يكون منتميا الى طبقة معينة • ويخدم فكرا او نضالا ، مصلحة طبقة اخرى •

٢ ـ ان الزبيري ـ على حد علمنا ـ ينتمي الى طبقة كادحة ، واذ لم يرق ذلك للدكتور الشهاري • فانه ـ على احسن حال ـ لا يختلف معي في ان الزبيري لا ينتمي الى الطبقة الاقطاعية • فكيف يجوز له ان يقول ـ بناء على علاقة شخصية ـ لا نعرف مداها وليس مهما ان نعرف ـ ربطت الشاب الصغير الزبيري بأحد الامراء ـ ان هذه العلاقة خير ما يمثل انتماء الزبيري الطبقي • ودليل قاطع على تمثيل الزبيري للاقطاع تمثيلا « ملهما » !•

٣ ـ ان الحكم القاطع بأن فلانا يمثل الطبقة الفلانية ، ليس دائما أمرا متيسرا ولو كان كذلك • اذن •• لما اختلف الدكتور الشهاري والزميل الجاوي حول « النعمان » • حيث نجد الاول يجعله ممثلا للبرجوازية والثاني يجعله ممثلا للاقطاع

و ٠٠ لا حل وسط !ء

وعلى الرغم من غزارة افكار الدكتور الشهاري وتبلورها وتحديدها • – وهو الامر الذي يفتقر اليه الزبيري – فانني على يقين تام من ان بعض المثقفين اليمنيين لن يتفقوا مع الدكتور الشهاري في الطبقة التي يعتقد انه « يمثلها » فكرا •

٤ – ان هناك من المفارقات • ما يجعل حكم الدكتور الشهاري في حاجة الى نظر • فالزبيري ممثل « الاقطاع » وقف مع ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ التي أطاحت بحكم «الاقطاع» وكان من ضمن أهدافها القضاء « على الاقطاع » • وأخذ يتنقل بين القبائل لاقناعها بالدفاع عن الجمهورية ومبادئها حتى اغتياله الذي تم في عام ١٩٦٥ على يد الامبريالية والرجعية كما يرجح الدكتور • بينما زميله النعمان « ممثل البرجوازية » كان قد بعث ببرقية تأييد للامام البدر – رفض الزبيري التوقيع عليها – ثم ارتمى أي النعمان – بعد ذلك في أحضان الاقطاع المدحور ! واذا كان الدكتور الشهاري قد حاول تبرير هذه المفارقات بيأس الجناح البرجوازي الكمبرادوري ، وتطلعه الى الحكم من أقصر الطرق ، وتمرد الزبيري على أهداف الثورة ومحاولة تمييعها لتحقيق أهدافه الصوفية • فان هذا التبرير يذكرنا بالتأويلات العجيبة التي كان يلجأ اليها « النحويون البصريون » لاخضاع اللغة قسرا لقواعدهم المفترضة •

٥ – اذا ما رصدنا افكار الزبيري – وهي المقياس الوحيد لمعرفة تمثيله الطبقي – لعجزنا حقا عن اطلاق حكم قاطع في هذه المسألة ، وفي الظروف الطبقية التي تعيشها اليمن بالذات •

فهو يجمع بين الثقافة السلفية الدينية والثقافة الليبرالية .
فهل يمكن لممثل الاقطاع ان يقول :

وآمنت بالشعب حتى وقد
واراه الورى جثة هامدة ؟ !

أو ويقول :

هو الشعب حق مشيئاته
صواب ورشد خطيئاته ؟!

وهل يمكن لممثل الاقطاع أن ينادي بهذه القيم « الغاء نظام الامامة حرصا على استبداله بنظام يمثل الشعب على أسس ديمقراطية سليمة » (١٧) و « اننا نريد ان نتحرر من العبودية الاجتماعية الكامنة في بعض التقاليد الرجعية والفوارق التي تميز بين طبقات الشعب وفئاته تمييزا لا يقوم على اساس من المنطق والحق » (١٨) . بل ويذهب الزبيري الى أبعد من ذلك ، حين يعترف بحقيقة علمية مفادها : ان الحكم الديمقراطي السليم لا بد أن يتيح للاكثرية « الكادحة » ان تختار طريقها الحتمي ، طريق الاشتراكية ! حيث يقول : « وحين يحكم الشعب نفسه بنفسه حكما ديمقراطيا سليما . ستكون لكل فئة من فئات الشعب فرصة عادلة للتعبير عن وجهة نظرها والمطالبة بحقوقها . فان الحكم الشعبي ، وان كان هو حكم الاكثرية ، فانه ينطوي على ضمانات شرعية لحقوق ذوي الاصوات الاقل عددا . والذين يطالبون بالجمهورية وبالديمقراطية ما نظنهم في حاجة الى المطالبة بالمساواة . ولكن .. « الديمقراطية النزيهة السلمية في عهد ثوري نظيف

ستتيح للاكثرية الكادحة ان تختار الاشتراكية » نظاما اقتصاديا يجعل العدالة والحرية والمساواة والوحدة القوميـة حقيقـة واقعة ، لا كلاما ضائعا في الهواء » (١٩) !٠

أبعد هذا كله ٠٠ يريد أن يقنعنا الدكتور الشهاري ، بأن الزبيري كان ممثلا للطبقة الاقطاعية ؟٠

د ـ هل كان الزبيري طائفيا ؟

يرى الدكتور الشهاري ـ وهو بصدد الرد على الزميل عمر الجاوي في موضوع الزبيري وحركة الاحرار اليمنيين ـ ان الجاوي قد وضع في تناقض مع نفسه ٠ حيث حاول طمس النزعات الطائفية في صفوف القوى الاقطاعية « في الثقافـة الجديدة عدد سبتمبر عام ١٩٧١ » ٠ ثم عاد ليؤكد وجودها ووصولها الى الحركة الوطنية « في الحارس ، أواسط اغسطس من نفس العام » ٠ ولكنه ـ على الرغم من هذا التناقض الذي وقع فيـه ـ قد استمـات فـي محاولـة تبرئـة الزبيري من الطائفية (٢٠) الامر الذي أزعج الدكتور الشهاري ، وجعلـه يؤكد طائفية الزبيري بقوله : « فان الزبيري ـ الذي عـدا الزعيم اللامع لحركة الاحرار ـ يزودنا من ذات نفسه ـ ودون انتظار مساءلته ـ بوثائق لا تقبل التأويل تحدد ليس فقط انتماءه بل « وتعصبه الطائفي » سواء كان ذلك بوعي منه أو بدون وعي ، بقصد أو بدون قصد ، بحسن نية أو بسوء نية٠ اذ ان ذلك لا يغير من حقيقة الامر شيئا » (٢١) ٠ فالزبيري اذن ٠٠ ليس طائفيا فقط وانما هو متعصب للطائفية ايضا ٠

وبغض النظر عن قوله بوعي أو بدون وعي بحسن نية أو بسوء نية واعتقاده بأن ذلك لا يغير من الامر شيئا » فاننا نفسح المجال للدكتور الشهاري لكي يقدم دليله • فما دليله ؟ انه قول الزبيري على لسان الموشكي في الجنة « همدان الكبرى التي تنتسب اليها حاشد وبكيل ، القبيلتان العظيمتان في بلادنا وفي تاريخنا • بل وفي تاريخ العروبة والاسلام » وتعقيبا على ذلك ، يقول الدكتور الشهاري :

« وفوق طائفتيه • فان الزبيري – كما هو واضح – ليس شاعر الوطنية – كما يزعم الجاوي – وانما هو بجدارة شاعر القبيلة » (٢٢) • هكذا تسير الامور عند الدكتور الشهاري !•

أفكار تنساب منفلتة من عقالها • وتداعيات بلا ضوابط•

الزبيري •• الشاعر اليمني الكبير المناضل • المنفي المدافع عن ثورة الشعب في السادس والعشرين من سبتمبر • المضرج بدمائه بفعل رصاص غادر من أيد مشبوهة • القائل في شعبه :

فان سلمت ، فاني قد وهبت له
خلاصة العمر ماضيه وآتيه
وكنت أحرص لو اني اموت له
وحدي فداء ويبقى كل أهليه
لكنه أجل يأتي لموعده
ما كل من يتمناه ملاقيه
وليس لي بعده عمر وان بقيت
انفاس روحي تفديه وترثيه

فلست أسكن الا في مقابره
ولست أقتات الا من مآسيه
وما أنا منه الا زفرة بقيت
تهيم بين رفات من بواقيه
علت بروحي هموم الشعب وارتفعت
بها الى فوق ما قد كنت أبغيه
وخولتني الملايين التي قتلت
حق القصاص على الجلاد أمضيه (٢٣)

هذا الشاعر الذي أحب شعبه الى درجة الوله ٠ وتفانى في سبيل انتصار قضيته ، يكتشف الدكتور الشهاري مؤخرا، انه « شاعر القبيلة » ! فنعم الاكتشاف والمكتشف !٠ في الحقيقة يصعب على انسان مثلي أن يجد تفسيرا معقولا أو غير معقول ـ لا فرق ـ لمثل هذه المنزلقات الذاتية ٠ فهل يستحق الزبيري حقا ، أن يوصف بالتعصب الطائفي وبشاعر القبيلة لمجرد انه وصف قبيلتين بالعظمة ؟!٠

ليطمئن الدكتور الشهاري ، انني ـ شخصيا ـ لا أجد حرجا من ان ينسب هذا الوصف الي ٠ علما بأنني ـ حتى الان لا اعرف ما اذا كنت ـ انتماءا ـ زيديا أم شافعيا ، ولا يهمني أن أعرف ! فما قاله الزبيري عن دور القبيلتين ، في التاريخ العربي ، وتاريخ اليمن ـ خاصة في تلك الفترة ، فترة النضال ضد الحكم المتوكلي ـ هو حقيقة مثبتة ٠ ولربما كان الطائفي ، هو من يزعجه الاقرار بهذه الحقيقة ، لا العكس ٠ وفوق هذا فان الزبيري قد وصف القبيلتين ضمن سياق معين ولهدف معين ٠ ففي كتابه « مأساة واق الواق » نرى الزبيري

ـ واسمه في قصة الكتاب العربي محمود ـ وقد نوم مغناطيسيا ـ يسجل له انه رفض فكرة تحضير الارواح في الوقت الذي كان فيه « أنيس منصور » الشاب واحدا من كبار المروجين لها في الصحف ـ وحلقت روحه في الفضاء حتى وصلت « العالم الاخر » وبينما هو في الجنة يتفقد شهداء اليمن قدم له الشهيد الموشكي الشهيد « حميد آل الاحمر الذي قتله السفاح « احمد » غدرا ـ وهو في ريعان شبابه ـ عقابا لاصراره على مواصلة المقاومة ضده مع قبيلة « حاشد » في أحلك الظروف ٠ وقد جاء وصف القبيلتين ـ كما أشرنا ـ على لسان الموشكي ٠ وهذا الوصف ـ بسياقه ـ مجرد تكريم للشهداء المنتمين الى القبيلتين ٠ وحث لهما على مواصلة التمرد ضد « الامام احمد » ثم ٠٠ لماذا تجاهل الدكتور الشهاري مواقف الزبيري من الطائفية ، وأقواله فيها ؟

فلنستعن ببعض ما قاله الزبيري في الطائفية ـ وهو غيض من فيض ، أي قليل من كثير ـ ٠ يقول : « لن تظل الاغلبية الشافعية من الشعب تقبل ان تحكم حكما مذهبيا عسكريا لا يعبر عن ارادتها ولا عن عقيدتها ولن تظل الزيدية مذعنة مستسلمة لحكم عنصري متعال (٢٤) و « فليشطبوا على هذه الخرافة التي تسمي نفسها حقا مقدسا في الحكم لفئة معينة من الناس وليتيحوا لكافة فئات الشعب فرصا متساوية في الحكم » (٢٥) و « فأي تفكير في وحدة البلاد العليا في اليمن الشمالي لا تنتهي ٠ وقد فطن الزبيري لهذا المخطط العربية ، سوف تكون دعامته في المستقبل اختيار نظام حكم شعبي يمثل الشعب كله على أسس ديمقراطية ٠ وسيترتب

على النظام الديمقراطي الشعبي حياة للمواطنين على قدم المساواة » (٢٦) • و « انا لا أعرف في بلادي شافعية أو زيدية وانما هي حمير وحدها سيدة بلادها • الا انني اعرف ان الامامة قد خلقت فروقا بين أبناء الشعب الواحد •• فلنضع حدا لهذه الفروق » (٢٧) و « الواقع وبكل صراحة انه يوجد ايضا فروق بين ما يسمى هاشمي وما يسمى قحطاني • وفي رأيي ان هذه الفروق مصدرها هي العلة الكبرى أم العلل جميعها وهي الامامة » (٢٨) •

فأين هي « الطائفية » من فكر الزبيري ؟•

هـ ــ هل كان الزبيري اقليميا ؟

حاول الزميل عمر الجاوي أن يبرر موقف الزبيري المعارض للدعم المصري لثورة ٢٦ سبتمبر بقوله « ولقد جرب ــ أي الزبيري ــ أثناء الممارسة اليومية للعمل السياسي ومع وجود القوات العربية في الجمهورية العربية اليمنية ان ثمة اخطاء مقصودة وغير مقصودة تمارس باسم الوقاية وحماية الجمهورية •• وحتى تكون الصورة واضحة تماما ، فقد لعب الاستعمار الامريكي دورا واضحا في دفع بعض من ضباط المخابرات العربية الذي قدم جزء منهم للمحاكمة في مصر للقيام ببعض الاعمال الارتجالية بقصد تشويه العلاقة بين الشعبين الشقيقين من ناحية • وتوريط القوات العربية في معركة اليمن الشمالي لا تنتهي • وقد فطن الزبيري لهذا المخطط وتمرد بطريقة صوفية على الواقع المرير دون تخطيط سياسي يكفل النجاح لحركة التمرد هذه (٢٩) وقد تصدى له الدكتور

الشهاري • واصفا تبريره بالخطأ ، ودامغا الزبيري بتهمة جديدة هي « الاقلية » (٣٠) ولعلني كنت لا أقل حماسا عن الدكتور الشهاري فيما يخص الدعم المصري للثورة وأرى ــ كما يرى ــ انه قد شكل دعامة للثورة اليمنية ومنها ثـورة الرابع عشر من اكتوبر عام ١٩٦٣م في الشطر الجنوبي من اليمن • الا ان هذا الموقف لا يعني ــ بأية حال ــ ان نصف من يختلف معنا فيه بالاقليمية !• ولم يكن الزبيري وحده في موقفه هذا • هناك ــ كما يعلم الدكتور ــ أحزاب وعناصر « قومية » وقفت الموقف ذاته • بل واكثر من ذلك شنـت هجوما قاسيا على « عبد الناصر » والناصرية • ولم توصف ــ وليس من حق أحد أن يصفها ــ بالاقليمية •

لم يكن الزبيري يريد من مصر أن تصنع « الثورة » في اليمن • وذلك قبل قيامها بعام فهل هذا موقف اقليمي ؟

لم يكن الزبيري راضيا عن وجود القوات العربية فـي اليمن ــ بعد قيام الثورة ــ فهل هذا موقف اقليمي ؟

وها هي « مصر » الان تعلن في أكثر من مناسبة • انها لا تريد أن « تتدخل » في شؤون أي قطر عربي ، حتى عن طريق اعلامها •

فهل هذا ايضا موقف اقليمي من قبل مصر ؟

ان السؤال الذي ينبغي أن يطرح لمعالجة هذه القضية ، هو : هل كان الزبيري يؤمن بالقومية العربية وبضرورة قيام الوحدة العربية ؟

ان الاجابة على هذا السؤال ــ لا ما عداها ــ هي التي

ستقرر ما اذا كان الزبيري اقليميا أم وحدويا •

ولقد كان الزبيري قوميا وحدويا •

يقول (٣١) :

ان العروبـة جسم أن يئـن بـه
عضو تداعت له الاعضاء تنتقـم

ان يضطهد بعضه فالكـل مضطهد
أو يهتضم جزؤه فالكل مهتضـم

ويقول (٣٢) :

صفقي يا عروبـة النيـل هـذا
موكب ، صفقت لـه الحـادثات

واطمئنـي على العروبة اذ هبـت
وهبـت آدابهـا العـاصفـات

واعلمي انمـا العروبـة نـار
أججتهـا آمـالهـا الثـائـرات

ويقول (٣٣) :

أولم يروا انا نحـاول وحـدة
عربيـة عليـاء ذات عمـاد

ويقول (٣٤) :

سبعون مليونا تحن الى الحيـاة وتشرئب
فرضوا مكانتهم على الدنيا كما كانت تجب
مجد عريق لم يزيـف عرقـه أو يغتصـب

ويقول واصفا مصر الثورة (٣٥) :

اني لاحيا بالمعزة في بلاد الاكرمين
الرافعي علم العروبة فوق هام العاملين
الصانعين نواة وحدتنا تراث الاولين
بشرى لهم انا نؤازر عهدهم متجمعين
حرب المصائر لو خسرناها هلكنا أجمعين

واذا اكتفينا بهذا القدر من شعره · فسنجده ايضا يؤكد على هذه القضية في نثره · فالامامة كنظام ، تتنافى مع الوحدة العربية وتعرقلها « اذ ان نظام الامامة يتنافى مع الاسس السياسية القومية التحررية » (٣٦) · وخطوات الوحدة الاولى تكمن في الانضمام الى الجمهورية العربية المتحدة « كما يطمئن المواطنين الى امكان السير في طريق الوحدة العربية ، وتحقيق خطواتها الاولى في الانضمام الى الجمهورية العربية المتحدة » (٣٧) ·

واذا كانت هذه النصوص كفيلة ـ بحد ذاتها ـ بنسف دعوى اقليمية الزبيري · الا اننا لم نكتف بذلك · وحاولنا ان نعرف الدوافع التي أدت بالزبيري الى اتخاذ موقفه المعارض للتدخل المصري في اليمن · ولقد استطعنا ـ بعد جهد ـ ان نعثر على نص يوضح ذلك الموقف · انه ينصح بضرورة التفريق بين القومية العربية كعقيدة وهدف وبين ما يجري من عمل ثوري في هذا القطر أو ذاك ، وفي ظل التجزئة التي فرضتها القوى الامبريالية لمصلحتها وبقيت حارسة لها في وجه تيار الوحدة ، مهما كلف الامر من ثمن · وينادي بأن يتحمل

كل قطر أعباء مسؤولياته وحده في مرحلة الانتقال من التجزئة الى الوحدة · وأي محاولة لتجاهل هذا الامر هي ـ في نظره ـ اغفال للعوامل الدولية وضرب من الاتكالية · حيث يقول « واجب ان اكرر وانصح الشعب بأن يفرق بين فكرة القومية العربية كوجود وعقيدة وهدف ، وبين مقتضيات العمل الثوري الذي يحدث في قطر ما وفي ظل تجزئة تحرسها دول كبرى ، بل وان يفرق بين الفكرة القومية من حيث هي فكرة ونظرية · وبين الثورة القومية من حيث هي عمل وتطبيق ، اذ ان هذه الثورة باعتبارها عملا يتسم بالمخاطرة ويتسم بالعنف احيانا يجب ان توزع اعباء مراحلها بين مختلف الاقطار ، بمعنى ان كل قطر يجب أن يتحمل أعباء الانتقال من ظروف التجزئة ومشكلاتها وتعقيداتها الى الظرف الوحدوي · ان واقع التجزئة يفرض ان تقوم الثورة في ظل هذا الواقع وليس من المنطق أن تقوم الثورة محلية وهي تعتمد في لحظاتها الاولى على وحدة هي بالنسبة اليها لم توجد بعد · ان في هذا اساءة الى الثورة المحلية والى الوحدة معا · وهي اغفال ساذج لكل القوى والعوامل الدولية · انه ضرب من الاتكالية متستر وراء الحماس للقومية العربية·ولا نستطيع الا أن نتذكر العقدة اليزنية(٣٨)، ونتذكر مسئوليتها الخطيرة في هذا الصدد (٣٩) ·

اذن ·· فللزبيري رأي واضح في الكيفية التي ينبغي على أساسها معالجة قضية التجزئة العربية والوحدة · وهو ـ على أية حال ـ رأي من حق صاحبه أن يعلنه وينصح بالتمسك به ويطبقه عمليا · وكون هذا الرأي لا يتفق مع رأي الدكتور الشهاري ، فتلك مسألة اخرى ، لا تؤدي الى

النتيجة الغريبة التي توصل اليها الدكتور الشهاري ، وهي اتهام الزبيري بالاقليمية ، وعموما فان الحياة نفسها كفيلة بترجيح هذا الرأي أو ذاك • ولماذا نذهب بعيدا ؟ وأمامنا ـ عمليا تجربة الدعم المصري لثورة اليمن منذ قيامها حتى عام ١٩٦٧ • فلنتأملها جيدا ، ونستخرج من دروسها ، فان جاءت مرجحة لرأي الزبيري ـ ازداد رأيه قدرا والا ، فسيظل رأيه مجرد رأي مشروع وسيظل الزبيري على الرغم من ذلك ـ داعيا من دعاة الوحدة العربية !

و ـ هل كان الزبيري متورطا مع الانجليز ؟

في مقاله « الزبيري شاعر الوطنية » يقول عمر الجاوي :

« ان الزبيري بقناعته العقلية ، يستطيع ان يمسك بزمام نفسه ، وهو يرى صنعاء : تتحرك رغم معرفته الاكيدة بعلاقة بعض الاحرار بالقنصلية الامريكية ـ وتخطى قاعدة وضعها ورددها » (٤٠) •

ويرد الدكتور الشهاري ـ كالعادة ـ على الجاوي ، بقوله :

« ومع ذلك ، فانه غير صحيح ان النعمان أو غيره من الاحرار كانوا على « علاقة تبعية أو عمالة سياسية » مع القنصلية الامريكية في عدن ان العكس هو الصحيح » (٤١) ويقصد بالعكس • ان النعمان وغيره من الاحرار ، كانوا على علاقة تبعية أو عمالة سياسية مع الانجليز •

ويقول في موضع اخر « ومحاولة سل الزبيري من

تهمة التورط في التعاون مع الاستعمار البريطاني – وهو رئيس الجمعية اليمنية الكبرى التي كانت تجمع في يدها خيوط حركة المعارضة الداخلية الخارجية – تعتبر محاولة عابثة ، وغير موفقة ، وغير موضوعية على الاطلاق » (٤٢) ·

وفي الحقيقة · لم يستطع الدكتور الشهاري أن يقنعنا – بما ملك من أدلة دامغة بصلة أو عمالة سياسية تدين الزبيري· فقد كان « فقط » – كما يقول الدكتور نفسه « مسلما وموافقا على ما كان يحدث ويرتب على كل الاتصالات « الخاصة » التي كانت تجري مع المعتمد البريطاني في عدن الميجر سيجر· ولو لم يكن ذلك هو موقفه لكان قد ترك « اللعبة » من اساسها، ولما قبل الاشتراك فيها وبدور قيادي الى نهايتها » (٤٣) ·

والمتمعن في هذا النص ، يخرج بما يلي :

١ – دعوى « الملم وموافقة » الزبيري ، مجرد فرضية بلا سند·

٢ – قوله « ولو لم يكن ذلك هو موقفه لكان ·· » تأكيد قاطع على فرضية الادعاء ·

٣ – وصفه ما كان يجري من اتصال بين الاحرار والانجليز بأنه مجرد « لعبة » تقصير في التحليل التاريخي والسياسي لتلك الفترة كما سنوضح ·

ونحن – بدورنا – سنجاري الدكتور الشهاري فيما ذهب اليه · سنفترض ان فرضيته هي حقيقة مثبتة بالبرهان خاصة وان بعض الاحرار – وربما كان الزبيري واحدا منهم – كانوا فعلا قد دخلوا في تشاور مع الانجليز او في « مساومة »

ولكننا سنعالج هذا الامر من زاوية اخرى · من الزاوية التي ينبغي على المؤرخ العلمي أن يضعها نصب عينيه ، وينطلق منها ·

لقد دخل بعض الاحرار مع الانجليز في مساومة · حسنا· والسؤال المطروح الان : هل كان لتلك المساومة ما يبررها في ظرف الاربعينات ؟

الدكتور الشهاري يجيب بـ « لا » · ويجهد نفسه في البحث والتنقيب عن الرسائل المتبادلة بينهما ، عن البرقيات· ليدين تلك المساومة عاطفيا · ويصفها بأنها « لعبة » و « عمالة سياسية » · انه « يقفز » على السياق التاريخي · يحاكم « وعي » الاربعينات بوعي الخمسينات وما فوق · يجرد نفسه - وهو الحاصل على الدكتوراه في التاريخ - من المؤرخ الموضوعي · وعلى نقيض الدكتور الشهاري ، يقف الزميل عمر الجاوي موقفا اخر يحاول جاهدا تبرئة الزبيري من « تهمة » المساومة · وكلا الموقفين خاطىء !· ومعالجة الدكتور الشهاري لخطأ الجاوي بخطأ ·· خطأ !·

ونحن نقول :

حقا ·· لقد وجدت مساومة · لثلاثة أسباب :

١ - كان الاحرار في حاجة ماسة الى منطقة الجنوب المحتلة كمنطلق لحركتهم ضد الحكم المتوكلي في الشمال ·

٢ - كانت البرجوازية الكمبرادورية في عدن · تشكل جزءا هاما من حركة الاحرار وهي - بحكم طبيعتها - ذات

مصلحة حقيقية بالامبرياليــــة عامــة ، والامبرياليــة البريطانية خاصة ٠

٣ ــ كان وعي الاحرار في تلك الفترة لا يستطيع أن يصل الى المدى الذي يمكنه من معرفة « حقيقة » الامبريالية ونواياها ٠ وبالمقابل ، كانت « دعاية » الامبريالية في تلك الفترة ، بأنها حاملة رسالة « التمدن » الى العالم « المتخلف » و « البربري » والمدافع عن شعوب العالم من « خطر » الشيوعية المزعوم ، تنطلي على الكثيرين ٠ ومهما يكن من أمر ٠ فان مصلحة الاحرار الخاصــة ، مصلحتهم النضالية ، كانت ــ رغم المساومــة ــ فــي المحل الاول ★ ٠

ولنا في التاريخ ٠٠ عبرة ٠ ولنأخذ تاريخ « مصر » ولنستمع جيدا الى « شهدي عطية » « وهو ماركسي مصري كبير مات نتيجة للتعذيب الرهيب في المعتقل عام ١٩٥٧ » ٠ يقول « شهدي عطية » وهو بصدد المعارضة الاقطاعية المصرية، « رحب الاقطاعيون المصريون ــ وعلى رأسهم الخديوي بالاحتلال الانجليزي » و « ارتفعت من مشربيات الارستقراطية الزغاريد » تحية لقوات الاحتلال ٠ لماذا كل هذا ؟ .

يجيب « كان الاقطاعيون ينتظرون كل الخير على يــد قوات الاحتلال » ولكن ٠٠ ماذا حدث بعد ذلك ؟ يقول «عطية» :

★ الحديث هنا عن الحركة ككل ٠ وهذا لا يعني عدم وجود عناصر عميلة للانجليز داخل الحركة ٠

« ولكن الاستعمار أبى الا ان ينفرد بالحكم ، وأبى الا أن يكون له كل النفوذ السياسي » • ويحدثنا « عطية » قائلا : حتى ليقول الرافعي ان محمد سلطان باشا ـ وهو من كبار الخونة الذين طعنوا الثورة العربية من الخلف ، وسار على رأس قوات الاحتلال يدلهم على الطريق « قد ندم على موقفه في الحرب العرابية وانضمامه الى الانجليز ، ومساعدته لهم على التغلغل في البلاد ، وشعر بنقمة الناس عليه ، فنزل به مرض ألح عليه » ثم يقول « ومن ثم بدأت بعض المعارضة من جانب الاقطاعيين » • واتجه الاقطاعيون الى البديل « وهكذا كانت خطة الاقطاعيين • الاستعانة بنفوذ فرنسا والاستعانة بتركيا من اجل الفوز ببعض النفوذ السياسي في حكم مصر » و « مات توفيق وتولى عباس » • فاشتدت المعارضة الاقطاعية• فقد وجد عباس الشاب انه لا يملك ولا يحكم وان الامر كله بيد كرومر » و « لم يعد يكفي الاقطاعيون معارضة «الاهرام» الضعيفة الهزيلة • فكان ان قامت جريدة « المؤيد » في ديسمبر ١٨٨٨ وتكون حول الجريدة شبه حزب ، حزب السراي • اذ كان التناقض قد بلغ أشده ما بين عباس وكرومر ، بل وما بين رياض رئيس الوزارة وكرومر » (٤٤) •

فالترحيب بالانجليز « المحتلين » والزغاريد التي انطلقت بمناسبة قدومهم من قبل الاقطاعيين كان ـ بالدرجة الاولى ـ « من اجل مصلحتهم » • وعندما خيب الانجليز ظنونهم وآمالهم وشعروا بالخديعة ، أداروا له ظهر المجن ـ على حد تعبير الاجداد ـ وبحثوا عن البديل •

أما أحرارنا المساكين • فأنهم قد « ساوموا » الانجليز فقط • ومن اجل مصلحتهم هم لا مصلحة الانجليز • فكيف سيكون الحال اذا كانوا قد رحبوا بالاحتلال وزغردوا له • اذن• لصب الدكتور الشهاري لعناته عليهم • صب الحمم !• وأما ما حصل بعد ذلك من أمر • حين تحولت القيادة من يد الاقطاع المصري الى يد البرجوازيـة المصريـة • واشتـدت الحركـة الجماهيرية وارتمى الاقطاع في حضن الانجليز • فذلك شيء اخر ، لا يدخل في مجالنا وما نحن بصدده •

ثم •• ماذا جرى بعـد أن أصبحـت قيـادة النضـال للبرجوازية ــ وهي متقدمة على الاقطاع ؟ يقول « شهـدي عطية » •

« بدأت قيادة الحركة الوطنية في أواخر ١٩١٨ متواضعة كل التواضع ، متهادنة كل التهـادن ، مستعـدة للتفاهـم والمساومات » • وقد تشكل « حزب الوفد » ، حزب البرجوازية المصرية ، بقيادة « سعد زغلول » • ولا شك في ان هذا الحزب قد لعب دورا خطيرا في نضال الشعب المصري ضد الاحتلال البريطاني • وهو دور يعترف به « التقدميون المصريـون » ويقدرون مواقف قائده « سعد زغلول » •

فكيف كان « وعي » و « موقف » سعد زغلول وزعماء الحزب في ذلك الوقت ، فيما يخص الانجليز ؟

يقول شهدي عطية « بدأت ــ أي قيادة الحركة الوطنية عام ١٩١٨ ــ بذهاب ثلاثة الى دار الحماية البريطانية وهم سعد زغلول وعبد العزيز فهمي وعلي شعراوي •• وعاد سعد

زغلول يقول « متى ساعدتنا انجلترا على أستقلالنا التام . فاننا نعطيها ضمانة مغقولة على تمكين أية دولة من استقلالنا والمساس بمصلحة انجلترا فنعطيها ضمانة في طريقها للهند وهي قناة السويس ، بأن نجعل لها ـ دون غيرها ـ حق احتلالها عند الاقتضاء العمومي » وأضاف سعد « نحن نعترف الان ان انجلترا أقوى دول العالم وأوسعها حرية . وانا نعترف لها بالاعمال الجليلة التي باشرتها في مصر . فنطلب باسم هذه المبادىء ان تجعلنا أصدقاءها وحلفاءها ، صداقة الحر للحر » (٤٥) فليتمعن معنا الدكتور الشهاري ، لو قليلا .

القيادة برجوازية ووطنية . مطلبها الاستقلال التام . ثم تدخل في مساومة مع الانجليز توفر له الضمانات المطلوبة. لا تمانع في بقاء مستشار !. تعطيهم الحق في « احتلال » قناة السويس عند الضرورة ! تصف انجلترا انها أوسع الدول حرية .. وتعترف بأعمالها الجليلة في مصر ! وتطلب صداقتها والدخول معها في حلف !.

ونسأل :

ماذا بقي لهم من « الاستقلال التام » ؟!

وقد نسخر منهم ـ من حقنا ان نسخر ـ وقد نضحك ملء الفم ـ من حقنا ان نضحك ـ ولكن .. ليس من حقنا ان نستغرب ذلك وان نجهد أنفسنا في « ادانتهم » واطلاق الصفات العاطفية عليهم « التواطؤ » و « اللعبة » و «العمالة السياسية» الخ كما فعل الدكتور الشهاري مع احرارنا المفترى عليهم .

على الرغم من انهم لم يصلوا في مساومتهم مع الانجليز الى هذه الدرجة كل ما يمكن ان نقوله :

لقد فعلو كذا وكذا ، وذلك هو مدى وعيهم بالامور • ولكنهم كانوا وطنيين حقا • ومخلصين حقا في طلب الحرية والاستقلال • وعلى الرغم من كل هذا ، فان تلك « المساومة » في نظر الانجليز ، كانت في غير مصلحة انجلترا ،ومرفوضة! وسارت الامور بعد ذلك الى حد اعتقال « سعد زغلول » وانفجار ثورة ١٩١٩ المجيدة •

أما آن للدكتور الشهاري أن يتريث قليلا قبل اطـلاق الاحكام العامة ؟ ما آن له أن يتحلى بالموضوعية وهو يتصدى لتحليل وقائع تاريخنا اليمني ؟

ثم •• لماذا يحاول الدكتور الشهاري أن يتجاهل مواقف الزبيري من الانجليز شعرا ونثرا !؟• ألم يقل الزبيري في الانجليز في أوائل الحرب العالمية الثانية ـ بمناسبة القضية الفلسطينية :

ما للظلم الذي اشتـدت ضراوتـه
في ظلمنـا • نتلقاه فنبتسـم
نرى مخالبـه مـن جرح أمتنـا
تدمي ، وتسعى اليه اليوم تختصم
متى يرى الانكلوزيـون ذمتنـا
كذمـة ، حقهـا ترعـى وتحترم ؟
حتى متى نشتكي منهـم ونسألهـم
رفع العذاب ، فما رقوا ولا رحمـوا

أين العدالـة يا أعداء مبدئهـــا
منكم اذا كان غمط الحـق دأبكم
ان الخداع الذي دانـت سياستكم
به لاعظم مـا تشقـى بـه الامـم

وكذلك قوله : (٤٧)

شطرنا يستغيث من غاصب فظ وشطر من مستبد عنيد
وكلا القاتلين ينهش في جثة شعب نهش النهوم الحقود
فاذا ما تصايحا فكقطتين استباحا أشلاء جسم بديـد

والزبيري يدرك تماما أن تدخل أي دولة أجنبية لن يكون لمصلحة اليمن بل لمصلحتها « وكل الذي أخشاه ان هناك تسلل من القوى الكبرى الشريرة للتدخل من اجل مصالحهم » (٤٨) وعن الخطر الخارجي الذي يتهدد اليمن يقول « واحدى هذه الدول ممثلة جزءا ضخما منه وهي تبحث عن مزيد من التدعيم ومزيد من النفوذ » (٤٩) ويعرف ان لامريكا وبريطانيا مطامع في أرض الشمال وأمر بريطانيا كأمريكا في هذا الشأن ٠ قد لا يكون من مصلحتها أن توجه انظار العالم الى اكتشاف بلد الاساطير والاسرار حتى يأتي الوقت المناسب لها فتستغله على انفراد ٠ ثم تكون واضعة يدها الخبيثة على هذا البلد أو جزء من هذا البلد وهي تمتصه في هدوء ٠ فلماذا تثير اليه اهتمام العالم » ٠

لقد أردنا بهذه المناقشة أن نرفع الجور عن كاهل شاعرنا المناضل « محمد محمود الزبيري » ونرجع الامور الى نصابها في وقتها المناسب ٠ وكان الاجدر بالزميل عمر الجاوي أن

يرد على رد الدكتور الشهاري بصدد مقاله « الزبيري .. شاعر الوطنية » ولكنه آثر الصمت لسبب لا نعلمه . ولقد خشينا – بعد هذا الصمت – أن تبدو « تهم » الدكتور الشهاري للزبيري وكأنها حقائق مسلم بها . خاصة وان كتابه « اليمن . الثورة في الجنوب وانتكاسه في الشمال » – الذي ضمنه تهمه – قد حقق رواجا دون أن يتصدى له احد .

....

(١) ربما كان ذلك من باب « توارد الخواطر » .

(٢) د. عبد العزيز عتيق ، مجلة الاداب البيروتية ، يناير ١٩٦٤ ، ص ٤ ، ع ١ .

(٣) انظر د. محمد علي الشهاري ، اليمن الثورة في الجنوب والانتكاسة في الشمال ، ط ١ دار ابن خلدون . بيروت . ص ٤٥ .

(٤) ابن خلدون ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ٤٥ نفسه ، ص ٦٦ – ٦٧ .

(٥) نفسه ، ص ٣٦ – ٣٧ .

(٦) عن كتاب « اليمن الثورة في الجنوب والانتكاسة في الشمال » للدكتور الشهاري ، ص ٤٣ .

(٧) نفسه ، ص ٦٦ – ٦٨ .

(٨) نفسه ، ص ٨٠ .

(٩) نفسه ، ص ٧٨ .

(١٠) نفسه ، ص ٦٨ – ٦٩ .

(١١) نفسه ، ص ٧٣ .

(١٢) نفسه ، ص ٩٥ .

(١٣) بعض الكتاب اليمنيين التقدميين يرون ان تاريخ اليمن قد عرف النظام العبودي ونقول لهم : انكم مخطئون !. لقد عرف العبودية ولا يعرف (النظام) العبودي !

(١٤) الزبيري ، مأساة واق الواق ، ط ١ ، ص ٢٩٩ .

(١٥) اليمن ، الثورة في الجنوب الانتكاسة في الشمال ، ص ٤٥ .

(١٦) نفسه ، ص ٤٥ العلاقة ليست كما يتصورها الدكتور . وبيت الوزير في تلك الفترة وجه من وجوه المعارضة .

(١٧) الزبيري ، مأساة واق الواق ، ص ٣٠٣ .

(١٨) الزبيري ، خطر الامامة على الوحدة اليمنية ، دار الهنا للطباعة ، ١٩٧٢ ، ص ٣٥ .

(١٩) الزبيري ، مأساة واق الواق ، ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤ .

(٢٠) انظر اليمن الثورة والانتكاسة ، ص ٥٠ ـ ٥٢ .

(٢١) نفسه ، ص ٥٣ .

(٢٢) نفسه ، ص ٥٤ .

(٢٣) ديوان « صلاة في الجحيم » دار الهنا للطبع ، ١٩٦٢ ، ص ١٣٤ و٢٤٢ .

(٢٤) خطر الامامة على الوحدة اليمنية ، ص ٥٤ .

(٢٥) نفسه ، ص ٥٥ .

(٢٦) مأساة واق الواق ، ص ٣٠٢ .

(٢٧) نفسه ، ص ٣٠٣ .

(٢٨) نفسه ، ص ٣٠٣ .

(٢٩) الثقافة الجديدة اليمنية ، العدد الثالث ، اكتوبر ، ١٩٧٠ ، ص ٩٠ .

(٣٠) اليمن الثورة والانتكاسة ، ص ٥٤ .

(٣١) ديوان صلاة في الجحيم ، ص ٢٥ .

(٣٢) نفسه .

(٣٣) نفسه ، ص ٣٧ .

(٣٤) نفسه ، ص ١٤٨ .

(٣٥) ديوان « ثورة الشعر » ، دار الهنا ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٦٢ ، ص ١١٧ ـ ١١٨ ·

(٣٦) مأساة واق الواق ، ص ٣٠٢ ·

(٣٧) نفسه ، ص ٣٠٣ ·

(٣٨) نسبة الى سيف بن ذي يزن واشارة الى اعتماده على الفرس في طرد الاحباش · ·

(٣٩) مأساة واق الواق ، ص ١٨٥ ـ ١٨٦ ·

(٤٠) مجلة الثقافة الجديدة العدنية اكتوبر ١٩٠ ص ١٠٦ ·

(٤١) اليمن ، الثورة والانتكاسة ، ص ٤٨ ·

(٤٢) نفسه ، ص ٤٩ ·

(٤٣) نفسه ، ص ٤٩ ·

* عمر الجاوي ايضا يدين تلك المساومة ،، يشجبها ، ولكنه يقصرها على الجناح البرجوازي في الحركة ويبرىء منها الجناح الاقطاعي · انظر (اليمن الثورة والانتكاسة ، ص ٤٤) ·

(٤٤) الحركة الوطنية المصرية ، ط ١ ، عام ١٩٥٧ ، ص ١٤ ـ ١٥ ·

(٤٥) نفسه ، ص ٣٥ ·

(٤٦) ديوان « ثورة الشعر » ص ١٤٠ ·

(٤٧) مأساة واق الواق ، ص ٣٧ ·

(٤٨) نفسه ، ص ٦٩ ·

(٤٩) نفسه ، ص ١٠ (قوله « قد تكون واضعة ·· ») تابع لسياق الموضوع · حيث يحاول اخفاء هويته عن الجماعة المصريين الذين يحدثهم عن ارض (واق الواق ويقصد بها اليمن) ·

- ٢ -

الزبيري مناضلا في سبيل الحرية

أشرنا في مطلع الفصل الاول - بعد ان حاولنا اقامة الدليل على ان الزبيري شاعر الحرية لا شاعر الوطنية كما هو شائع - الى المبادىء العامة التي ناضل من اجلها «الزبيري» ضد طغيان حكم بيت حميد الدين في الشطر الشمالي من الاقليم اليمني ، والتي اجملناها في كلمة « الحرية » بشقيها السياسي والاجتماعي . وسنحاول في هذا الفصل - بشيء من التفصيل - ابراز مواقف الزبيري بهذا الصدد - شعرا ونثرا وممارسة .

أ - تعريف الزبيري للامامة :

يرى الزبيري « ان الامامة من أساسها ، فكرة مذهبية طائفية يعتنقها من القديم ، شطر من الشعب وهم الزيدية أي « الهادوية » سكان اليمن الاعلا (الاعلى) فقط . اما غالبية

الشعب في اليمن ، بما في ذلك الجنوب المحتل (٥١) . فانهم جميعا لا يدينون بهذه الامامة » (٥٢) . ويشيع الامام « ان الله هو الذي ولاه ، الله هو الذي أمر الناس أن يطيعوه وأن يخدموه وان يقدسوه وان يموتوا في سبيل نصرته » (٥٣) .

ومن مهامه « تدعيم مركزه الروحي بين القبائل تحت ستار التشيع لآل البيت حتى يرسخ في عقلية الشعب بالقسم الاعلى ، ان الامام ظل الله ونائبه حقا وان منزلته كمنزلة رسول الله » (٥٤) .

ب ــ مراحل موقف الزبيري من الحكم المتوكلي :

كان من الطبيعي أن تتعدد وتتبدل مواقف الشاعر الزبيري من حكم « بيت حميد الدين » تبعا للظروف التي مر بها شخصيا ومرت بها حركة الاحرار اليمنيين وحول هذه القضية تضاربت آراء الكتاب في تحديد مراحلها وفي تبريرها أو ادانتها ..

فالدكتور عبد العزيز عتيق يرى ان الزبيري قد مر بأربعة أطوار في عهد الامام يحيى وهي (٥٥) :

(١) طور التبشير بأفكار عصرية بحتة ، لم تجد استجابة على المستويين ،الرسمي والشعبي فانطلقت الشائعات من حولهم ــ أي الاحرار ــ كشائعة « اختصار القرآن » المنسوبة اليهم كذبا . وأودع بعضهم في السجون .

(٢) طور الدعوة عن طريق الدين ، الذي هو دعامة الحكم المتوكلي ، فان رفض الحكم افكارهم المرتكزة على مبادىء

الدين الاسلامي ، فقد أصبح حكمهم – في هذه الحالة – بدون اساس ·

(٣) طور اللجوء الى اسلوب الملاينة بعد ان زاد التنكيل بهم ·

(٤) طور اللجوء الى اسلوب المعارضة العنيفة من عدن ١٩٤٤م ، والقاهرة اما في عهد « الامام » احمد فيرى ان الزبيري قد مر بطورين :

(١) مدحه مخدوعا به ·

(٢) اعلان الثورة عليه بعد ان تمت عناصر اليقين الثوري ·

والواقع ان الدكتور عبد العزيز عتيق قد لخص هذه المراحل – وبالحرف احيانا – من مقدمة الزبيري لديوانه « ثورة الشعر » · ولقد جانب الدكتور الصواب عندما أشار الى مدح الزبيري للامام احمد · ولعل الامور قد اختلطت عليه حيث لم يستطع التفريق بين الامير احمد – وكان وقتها ولي العهد – وبين الامام احمد وقد أصبح اماما · فالزبيري مدح احمد بن يحيى أميرا ولم يمدحه وقد نصب اماما ·

اما الشاعر اليمني « عبد الله البردوني » فيرى امكان ان يقسم شعر الزبيري الى اربع مراحل (٥٦) :

(١) مرحلة الارادة والتردد في العهد الثاني من النهضة · فقد كان يريد القول ويداري الصمت ·

(٢) مرحلة النصح للحاكمين بالعدل والتقرب اليهم

أملا في اصلاحهم .

(٣) مرحلة النضال الانقلابي . وكان موطنها عدن . وحقلها صحيفة « صوت اليمن » والنصح في هذه المرحلة تبدى في صورة أعنف . حيث انتقل الزبيري من نصح الحكام بتحسين الاوضاع الى تصوير هذه الاوضاع ونقدها . بل والى الدعوة الى الانقلاب .

(٤) مرحلة الثورة وشعر الثورة بعد ركود شعبي استمر اربع سنوات في اعقاب فشل انقلاب عام ١٩٤٨م .

وفي الحقيقة لسنا على اتفاق مع هذه التحديدات لمراحل موقف الزبيري . ولا نرى فيها سوى محاولة لترديد ما قاله الزبيري نفسه في مقدمة ديوانه « ثورة الشعر » وهي محاولة – في تقديرنا – تطمس اشياء وتبسط وتسطح أمورا فيها من التعقيد والتداخل أشياء أخرى .

وفي ضوء هذا فاننا نرى ، ان الزبيري قد مر بثلاث مراحل هي : مرحلة التغيير ، التغيير عن طريق الحكام ، ومرحلة التغيير عن طريق اسقاط الحكام الطغاة ، ومرحلة التغيير عن طريق اعلان الجمهورية .

(١) مرحلة التغيير عن طريق الحكام :

لقد بدأ الزبيري – كغيره من الشعراء اليمنيين – مداحا للحكم المتوكلي ممثلا في الامام « يحيى حميد الدين » الذي أصبح في نظر البعض – بعد كفاح الشعب اليمني المجيد ضد الاحتلال التركي ونيل الاستقلال – « بطلا قوميا » . ويقول

الزبيري : « كان كثيرون من قادة العرب الاحرار يرشحون الامام يحيى لقيادة الامة العربية نحو الوحدة والتحرر • وكان « ياسين الهاشمي » من رؤساء الوزارة العراقية يرى ان تكون اليمن قاعدة النضال العربي ومنطلقه لانها أول دولة عربية استقلت » (٥٧) • ولا شك لدينا في ان مدح الزبيري للامام « يحيى » في تلك الفترة ، كان مدحا صادقا ومخلصا • ثم ذهب الزبيري الى القاهرة للدراسة عام ١٩٣٩م • وعاد منها الى صنعاء عام ١٩٤١م فذهل مما رأى خارج اليمن • وشعر بمأساة شعبه • فبدأ يروج لافكار عصرية – مرتبطة بحركة الاحرار – لعل الامام « يحيى » يطبقها • فلما لم تجد صدى وهوجمت رسميا وشعبيا استعان بما في الدين الاسلامي من قيم انسانية مشرقة ، عل الامام يطبقها – وهو الحاكم بأسم الدين – فلما لم تجد صدى – لان الامام مرتبط بمصالح طبقية هي مصالح طبقته – لجأ الى التقرب من الامام ومدحه ومحاولة توجيهه ونصحه ، وتصوير مشاكل الشعب من خلال قصائد المديح • ولقد يئس الزبيري من الامام « يحيى » • فمدح ولي العهد « احمد بن يحيى » الذي أصبح – كما يقول الزبيري – « الرجل المؤمل للمستقبل » و « كان رمز الامل ومناط الرجاء في القضاء على أسباب الفساد المعروف عن حاشية الامام يحيى • وكان رجال هذه الحاشية يرتعدون من المستقبل كلما تذكروا « احمد » حتى لقد ارسل عصابة من رجاله وحرسه ، فأحرقوا قصر احد رجال الحاشية • بعدما اشتد تذمر الناس منه • وهو السيد « علي لطفي » و « كانت الانظار تتجه الى بطولته كلما تذكر الناس الجنوب اليمني

المحتل وحاجتهم الى بطل يحرره من الاحتلال الانجليزي » ٠
ويواصل الزبيري قوله :

« في هذا الجو بالذات ، انتقلت بعد خيبة الامل من صنعاء الامام يحيى الى تعز ابنه ولي العهد ، البطل ، المؤمل المرموق ٠ ولقد وجدنا في هذا الرجل العجيب فعلا ما يخدع، وما يغش ، وما يذهل ٠٠ لقد استطاع هذا الرجل ، الممثل الداهية ، ان يجعل البلاد تعيش ــ من ألاعيبه ــ في مسرحية مبرمة فصولها ، محكمة أدوارها فهو يغضب من أبيه ويثور ويبكي أحيانا ويتوعد أحيانا ٠ وانه ليتأوه على سجناء الشباب حتى كأنه أخ لهم حميم ! وكان يقوم بدور اطلاق سراحهم وتأمين ساحتهم ومطارحتهم الافكار والاشعار في مجالسه في تواضع وانطلاق وتحرر (٥٨) ٠ لقد خدع الزبيري اذن بولي العهد احمد كما سبق ان خدع بأبيه ، وانطلت عليه ألاعيبه المسرحية ، فمدحه وأراد أن يتم الاصلاح على يديه ٠ ومما قاله من مديح في « احمد بن يحيى » :

بعثت شعبا دفينا كان منطبقا ٠ عليه ترب وأشواك وأحجار
فقام نحوك يلقي الترب في يده فتنجلي عنه أوصاب وأكدار
يرى بأنك من يهوى فليس له في غير ذكرك تهيام وتسيار
يرى بوجهك آمالا تسجلها لنا شهور وأعوام وأعصار(٥٩)

وقوله :

يا حامل الشعب الكبير بقلبه الشعب في طيات قلبك يخفق
جدد له عهد الجدود بعزمة لو تجذب الماضي لجاءك يشرق
لا تبنه حجرا ولكن فيلقا ينساب فيه للمنايا فيلق
واجعل بمفسح الهواء طريقه فالبر عن خطو العزائم أضيق
وارفع على قنن السماء قلاعه فالارض توطأ بالنعال وتطرق(٦٠)

قصائد المدح والمبررون :

ونحب ان نشير الى اختلافـات البعض حول قصائـد الزبيري التي مدح بها الامام « يحيى » وولي العهد « احمد » · فهناك من يحاول ادانته بها · وهناك من يجتهد في تبريرها· فالزميل « عمر الجاوي » يرى ان حب الزبيري للشعب الى حد التأليه وخضوع الشعب الاعمى للحكم المتوكلي هو الـذي « ساق الزبيري الى مدح الحكام في بعض الاحيان لان الشعب يريد ذلك » (٦١) وربما وجدنا نصف الحقيقة في قول الزميل الجاوي · اما الزميل الشاعر « عبد العزيز المقالح » فقـد كان « لابيريا » أكثر من الزبيري ! فهو يستغرب ان يدين الزبيري نفسه ويصـف – أي الزبيري – قصائـد المـدح بـ « القصائد الوثنية » في مقدمته لديوانه « ثورة الشعر » : وهو يستغرب ايضا ان يسعى الزبيري الى تبرير تلك القصائد· فهي – في نظر الزميل المقالح – ليست في حاجة الى تبرير · لسبب بسيط – وهنا يدخل في التبرير – وهو انها قصائد تصور احوال الشعب وتخفي في باطنها سخط وألم الشاعر حتى ليبدو الشاعر فيها و « **كأنه لا يمدح بل يأمر · انـه لا يستجدي الاصـلاح والتغيير بل يطالـب بهمـا بالحـاح** » لذلك ، فان ، الزبيري في مدحه يذكره – على سبيل المثال – بالمتنبي « الذي كان يؤكد وجوده دائما ازاء ممدوحه » ذلك **لان الزبيري في مدح الامام « كان يحاول أن يؤكد وجـود الشعب ازاء هذا الحاكم (الباطش) وهي خطوة أولى نحـو تحويل الشعر كله للشعب** » · وعلى هذا الاساس فان الزميل المقالح يرد على قول « زيد الوزير » – وهو يقارن بين حافظ

والزبيري » ـ « انه ليس بشاعر الشعب من توزع شعره بين الكوخ والقصر وبين الطاغية والشعب » بقوله « والفرق كبير جدا بين حافظ والزبيري • فالاول قد تورط في مدح الانجليز كما حاول أن ينافس شوقي في الحصول على لقب •• « شاعر القصر » وهو لم يتصدر الحركة الوطنية في بلاده بل كان بمنأى عن الحياة السياسية • وفي اخر حياته بخاصة • ومع ذلك فلم تمنع هذه المواقف الدارسين من ان يغدقوا عليه الالقاب • ومنها لقب « شاعر الشعب » هذا الذي يستكثره « زيد الوزير » على الزبيري •• » ثم يواصل الزميل المقالح قوله ــ وهو الان اكثر اقترابا من الحقيقة ــ « وقد حاولت ــ هنا ــ ان اعرض لمدائح الزبيري من خلال رؤية فنية اجتماعية غير متأثر بمرافعة الشاعر عن نفسه • ولا بآراء خصومه السياسيين الذين لا علاقة لهم بالادب والذين لم يدرسوا هذه المدائح بمقاييس ظروفها وما أحاط بها أولا من تلقائية • ثم ما اكتنفها ثانيا من مرحلية وتكتيك أو « تقية » بحسب تعبير ذلك الجيل وقد وجدت ان المبرر الفني يوازي المبررات السياسية والتاريخية » (٦٢) •

واذا كنا نتعاطف مع الزميل عبد العزيز المقالح ونشاطره الحب والتقدير للزبيري • ونعمل معا على رفع الظلم عنه ورد اعتباره بمقاييس « الحقيقة الموضوعية » • الا اننا لا نستطيع ان نجاريه الى هذا الحد في مسألة « قصائد المدح » هذه • ولربما وجدنا في أقواله ــ هو الاخر ــ نصف الحقيقة * •

وفي الحقيقة ، ان الزميلين المقالح والجاوي ــ وغيرهما

من المبررين ـ متأثران بتبريرات الزبيري اضافة الى حماسهما المعروف له • يقول الزبيري « الذي أجزم به ان الشعب لم يكن يطيق أية قسوة على الامام بقول او عمل • وكان يعتبرها طيشا •• في حين كان شعر المدائح والاستعطاف والتشجيع يلقى استحسانا عاما من المواطنين » ويقول ايضا « ومن جهة اخرى ، ان المبالغات في المدح والشكوى والاستعطاف ، يقدم الى الاجيال صورة رمزية لبشاعة العلاقة بين الحاكم والمحكومين الذين اوقعتهم الاقدار تحت رحمته فاضطرهم بقسوته واستبداده ومنطقه المتأله الى ان يمدحوه ذلك المدح الذي يتحول بطبيعته الى لون رمزي من الوان الهجاء » (٦٣) •

وبصدد هذه القضية ـ قضية مدح الزبيري للحكام ـ نقول : ـ

(١) لقد مدح الزبيري الامام يحيى في بداية الامـر مدحا صادقا ومخلصا باعتباره « البطل القومي » • ثم اضطر الى مدحه بعد ذلك كوسيلة اخيرة لقيام الاصلاح على يديه •

(٢) بعد ان يئس من الامام يحيى • اتجه الزبيري لمدح ولي العهد احمد بن يحيى وكان صادقا ومخلصا في مدحه • فهو في نظره ونظر الناس ـ كما قال الزبيري ـ البطـل المؤمل • وليس ـ كما قال الزميل المقالح ـ « الحاكم الباطش »، صفة « الباطش » لم يكن الزبيري يعرفها وهو يمدح احمد بن يحيى لقد عرفها بعد ذلك ، اثناء الخروج الى عدن وبعده • قبل هذه الفترة كان احمد بن يحيى شيئا مختلفا لدى الزبيري وها هو الزبيري في لحظة صدق مع النفس يقول عنه « كنت

فعلا في سن النوازع الروحية معجبا بشخصيته مأخوذا بها.
وكنا ننتظر ان تكون تجربتنا معه ناجحة وان يكون هو العوض للشعب عن خيبة الامل في أبيه . وان يكون المرحلة الآمنة التي يتطور فيها مصير بلادنا في سهولة وأمن من الاخطار »(٦٤)

(٣) فالزبيري اذن .. لم يمدح لان الشعب كان يريد ذلك فقط . ولم يمدح ليهجو و « يتكتك » فقط . لقد مدح بصدق وباخلاص ايضا . وهذا هو نصف الحقيقة الضائع .

(٤) لم نكن نريد من الزبيري أن يبرر مدحه . فنحن لا ندينه ولا نملك الحق في ادانته لاننا نعرف ظروف تلك الفترة تماما ونعرف ايضا نزاهة الزبيري . وبالمقابل ، ولهذه الاسباب ، لا نريد من أنفسنا ان نكون مبررين ، فنشتط ، ونحمل الاشياء اكثر مما تحتمل . و .. بدون مبرر !

(٥) لنتمسك بحقائق موضوعية عند الزميلين المقالح والجاوي كان يجب ان تكون منطلقهما بدون حاجة الى مبررات.
لنقل مع الجاوي « من الصعب جدا ادانة الزبيري فهذه ثقافته وهذا فهمه » ولنكمل ذلك ـ لا بد من الاكمال ـ بقول المقالح، لا بد من دراسة تلك المدائح « بمقاييس ظروفها وما أحاط بها » ونقف عند هذا الحد . ولا نواصل معه ما يعقب هذه العبارة الصحيحة من تبرير « نصف صحيح » . ولنستمع جيدا لقول الزبيري « ان الشعب كله كان يقدس هؤلاء الحكام . وكان كل من يملك شعرا أو نثرا لا يكاد يقدمه الا مدحا للامام او نجله . وليس هناك فرق بيننا وبين الكثيرين . الا اننا تغيرنا ولم يتغيروا وثرنا ولم يثوروا وقدمنا حياتنا وشبابنا

قربانا في سبيل الحق ومن أجل الشعب » (٦٥) ·

نعم ·· ليس المهم ان يمدح الزبيري ولا ان نبرر مدحه في تلك الظروف · المهم في نظرنا ان الزبيري قد تغير عندما تغيرت الظروف في حين بقي البعض من المتخاذلين واصحاب المصالح الذاتية ، يراوحون في مكانهم على الرغم من تغير الظروف واتضاح طغيان وفساد الحكام · وباختصار شديد :

لقد مدح الزبيري الحكام مدحا صادقا ، خاصة قبل سفره الى القاهرة للدراسة · وقد اضطر الى المدح بعد عودته من القاهرة عام ١٩٤١م · ثم مدحهم مدحا صادقا في فترة التعلق بولي العهد أحمد بن يحيى وتعليق الآمال عليه وكان ، في معظم مدحه ، يشير الى أحوال الشعب وضرورة اصلاحها على يد الحكام · ولسنا في حاجة الى ادانته · فتلك هي الظروف المحاطة به ، وهو محصلة الظروف ، وما دمنا نعترف بذلك ، فان البحث عن التبريرات ـ بما يخرج عن هذه الحقيقة المعترف بها ـ هو ضرب من المغالاة وردود الفعل كثيرا ما تكون على حساب الحقيقة ·

ولقد انتهت المرحلة الاولى · واسلم الزبيري نفسه ، للمرحلة الثانية ·

(٢) مرحلة التغيير عن طريق اسقاط الحكام الطغاة :

توصل الزبيري الى قناعة جديدة · فالتغيير عن طريق الحكام ، وهم وسراب ، وولي العهد « احمد » من طينة أبيه « يحيى » ·· « انقلب ولي العهد على مر الايام الى طبيعته

وخلع أزياء المسرحية . وصرح على الملأ بأنه سيلقى الله ويده مخضبة بدماء الادباء . وان من يقرأون كتب طه حسين والعقاد والرافعي ، « سيلقون الموت » (٦٦) والنصح والتوجيه والدفع بالتغيير أمور غير مجدية ومؤدية الى السجن والتنكيل:

نصحت فقالوا هدمت البلاد — وزلزلت بنيان اقطابها
وما أنت والنصح في أسرة — تنال السماء بأنسابها
وقد نزل الوحي من أفقها — وحل النبي بأثوابها
وما الحق والعلم والعالمون — الا قرابين محرابها
حذار الخطابة ان السجون — تهش اليك بترحابها (٦٧)

والمدح للحكام لم يعد نافعا « شعر المدح الذي صنعناه بأسلوب لو توجهنا به الى الشياطين والابالسة ، لربما حولناهم الى سبيل اخر أو جعلنا منهم ملائكة وأبطالا » (٦٨) لذلك .. لم يبق امام الزبيري ورفاقه الاحرار ، سوى اختيار واحد هو « التغيير عن طريق اسقاط الحكام الطغاة » . يقول « انتهت تجربتنا مع السيف احمد ولي العهد الى النهاية التي انتهت اليها تجربتنا مع أبيه الامام يحيى . وبذلك تمت عناصر اليقين الثوري ـ الذي يفرض علينا ان ننفض أيدينا من كل أمل في الوصول الى تغيير الاوضاع سلميا بأيدي الحكام . وقد سلمتنا هذه التجربة الى مصيرين لا ثالث لهما ، فاما ان نرضخ .. أو نثور وآثرنا الاشق الاصعب ولكنه الاشرف .. وتمردنا » (٦٩) من هنا يتجه الزبيري الى عدن عام ١٩٤٤ (وقيل ١٩٤٣م) ويقول أول قصيدة له بعد خروجه اليها : (٧٠)

خرجنا من السجن شم الانوف كما تخرج الاسد من غابها
نمر على شفرات السيوف ونأتي المنية من بابها
ونأبى الحياة اذا دنست بعسف الطغاة وارهابها
ونحتقر الحادثات الكبار اذا اعترضتنا بأتعابها
ونعلم أن القضا واقع وان الامور بأسبابها
ستعلم أمتنا اننا ركبنا الخطوب حنانا لها
فان نحن فزنا فيا طالما تذل الصعاب لطلابها
وان تلق حتفا فيا حبذا المنايا تجيء لخطابها

وفي هذا العام ، تكتسب « حركة الاحرار اليمنيين » صفة التنظيم بعد التبعثر والعشوائية · ويقوم « حزب الاحرار اليمنيين » برئاسة الزبيري · وينشد الزبيري قصيدة في أول اجتماع للحزب ، يمجد هذا الحدث التاريخي ويبرر حدوثه ، ويشحذ الهمم ، وسوف نقتطف منها بعض الابيات : (٧١)

سجل مكانك في التاريخ يا قلم فههنا تبعث الاجيال والامم
هنا القلوب الابيات التي اتحدت هنا الحنان هنا القربى هنا الرحم
هنا البراكين هبت من مضاجعها تطغى ، وتكتسح الطاغي وتلتهم
لسنا الاولى ايقظوها من مراقدها الله ايقظها والسخط والألم
ان القيود التي كانت على قدمي صارت سهاما من السجان تنتقم
ان الانين الذي كنا نردده سرا ، غدا صيحة تصغى لها الامم
والحق يبدأ في آهات مكتئب وينتهي بزئير ملؤه نقم
جودوا بأنفسكم للحق واتحدوا في حزبه ، وثقوا بالله واعتصموا
لم يبق للظالمين اليوم من وزر الا انوف ذليلات ستنحطم .

والشعب لو كان حيا ما استخف به   فرد ، ولا عاث فيه الظالم النهم

ثم يقدم لنا الزبيري ما يشبه العهد والقسم بعدم العودة الى تأييد « حكم الطغاة » والخضوع لهم ونشدان التغيير عن طريقهم : (٧٢)

كفـرت بعزمتي الصـامـدة   وقدسية الغضبـة الحاقـده
وبالشهـــداء وأرواحهـم   تراقبـي من عـل شاهـده
اذا أنا أيدت حكـم الطغـاة   وهادنتهـم ساعـة واحده

كفرت بعهد الطغاة البغـاة   وما زخرفوه ومـا زيفوه
وأكبرت نفسي عن أن أكون   عبدا لطاغيـــة توجـوه
وعن ان يراني شعبي الذي   يعذب ، عونا لمـن عذبـوه
أأجثو على ركبتـي خاشعـا   لجثة طاغيـــة حنطـوه
أتعنـو لطاغيـة جبهتـي   فمن هو؟من أصله؟ من أبوه؟

هل ارتد الزبيري عن هذه المرحلة ؟

والى هنا ٠٠ والامور تبدو واضحة تماما ٠ الا اننا نرى من الوقائع بعد ذلك ، ما يبدو وكأنه خروج على هذه المرحلة٠ ونكوص الى المرحلة السابقة ٠

فبعد ان غادر السيف « ابراهيم » ـ ابن الامام يحيى صنعاء الى عدن عام ١٩٤٦ ، وأعلن انضمامه الى حركة الاحرار اليمنيين ٠ رحبت به الحركة وبقيت منتظرة الخلاص على يديه ٠ ثم كانت الحركة وراء انقلاب عام ١٩٤٨ ، وتحت قيادة « عبد الله بن احمد الوزير » الذي نصب امام « حكومة

الدستور » ـ وقد اختير الزبيري فيها وزير معارفها ـ ودامت ـ كما أشرنا سابقا ـ مدة ستة وعشرين يوما • وبعد ذلك اختلفت قيادات الحركة في انقلاب عام ١٩٥٥ ، الذي نصب السيف « عبد الله بن يحيى حميد الدين » بعده اماما لمدة خمسة أيام • فقد أيده بعض الاحرار ، والذين اختلفوا معهم في تأييده ، كانوا على عهد مع سيف اخر ، هو « بدر بن احمد ابن يحيى » نجل الامام « احمد » وولي عهده • ولقد قال الزبيري ـ في هذه المرحلة قصيدة في السيف « عبد الله بن يحيى » الذي أوفده والده الامام يحيى الى اجتماع الدول العربية : (٧٣)

يا سمو الامير خطوتك الكبرى •• تعزي قلوبنا الاسوانه
انت صوت الشعب اليماني المدوي أنت أقوى أحداثه الرنانه
انت في قلبه الشعور الذي أيقظ •• أعصابه وهز كيانه
انت يمناه في يد المجمع الاعلى •• تحيي اقطابه ولجانه
انت ميثاقه العظيم وأنت السر •• في نفسه ، وانت الامانه
انت باب العصر الذي يرقب التاريخ •• من ضوء فجره مهرجانه
انت نبع الحياة فجره الله •• لاسعاف أمة ظمآنه
فتخير لها الطريق فان الليل •• داج وعينها حيرانه
وتحدث عن شعبك الصامت المكبوت •• اذ ليس يستطيع الابانه

فهل خان الزبيري عهده وقسمه ، وعاد ليؤيد الحكام ؟ هل انتقل الى المرحلة الاولى ؟ مرحلة « التغيير عن طريق الحكام » • اننا ـ امام هذه الوقائع والاحداث ـ في حاجة ماسة الى ان نقف وقفة مسؤولة ، تضع الامور في نصابها ، وتساعد على اخراج بعض المتصدين للزبيري ولحركة الاحرار

اليمنيين ، من البلبلة الفكرية والحيرة . ويمكن اجمال ذلك في هذه النقاط : ـ

(١) عندما انتقل الزبيري ومعه حركة الاحرار ـ من المرحلة الاولى الى المرحلة الثانية ـ فقد كان هذا الانتقال يأسا من اصلاح حكام طغاة متعنتين . وعند الدقة ، كان يأسا من اصلاح الإمام يحيى ومن ولي عهده « احمد » .

(٢) بعد انتقال ثقل الحركة الى عدن ، مع توجهها الجديد ـ وهو توجه ينشد التغيير عن طريق ضرب حكم الامام يحيى بالذات . مع يأس واضح من ولي العهد « احمد » لم يكن من المستغرب ـ حسب الظروف وقتها ، وخاصة ، ظرف الجماهير الشعبية ـ ان ترحب الحركة بسيوف الاسلام . وقد رأت الحركة أنهم آمنوا ببرنامجها و « انضموا الى صفوف الشعب » على حد تعبير الزبيري .

(٣) لم يكن الزبيري ـ ومعه حركة الاحرار ـ ضد الامام ـ في هذه المرحلة كأمام وانما كان ضده كمعرقل للاصلاح : (٧٤)

كنا نراك أبا برا ، ومذ لمعت
سيوف بطشك ردت ما زعمناه
ما كان أجدر ان تسمو الى «المثل
الاعلى» وتفهم شيئا من مزاياه
اذن لكنت « أمير المؤمنين » كما
يقضي لك الحق في أسمى قضاياه
لكن تجنيت حتى لم تدع أحدا
الا وأفسدت دنياه واخراه

وعلى هذا الاساس فان هذه المرحلة تعني فقــط رفض حكم الائمة (الطغاة) أي الذين ألهوا أنفسهم وتعنتوا وعرقلوا اي نوع من التغيير لذلك .. اطلعنا على هذه المرحلة ـ بوعي تام ـ « التغيير عن طريق اسقاط الحكام الطغاة » .

ولذلك ايضا قال شاعرنا الزبيري وهو يعاهد الشعب ويقسم له بعدم تأييد الحكام :

اذ أنا أيدت حكــم (الطغــاة)
كفرت بعهد (الطغاة) البغــاة
وأكبرت نفسي عن أن أكـــون
عبدا (لطاغيــة) تــوجـــوه
وأجثو علــى ركبتــي خاشعـــا
لجثــة (طاغيـــة) حنطـــوه
وتأبى الحيــاة اذا دنســـــت
بعسف (الطغاة) وارهابهـــا
هنا البراكين هبت من مضاجعها
تطغى وتكتسح (الطاغي) وتلتهم
أتعنــو (لطاغيــة) جبهتــي
فمن هو ؟ من أصله ؟ من أبــوه

(٤) ورب قائل يقول :

ليس هناك فرق بين المرحلــة الاولى والثــانية . كلتــا المرحلتين لا تخرجان عن محور « التغيير عن طريق الحكام » .

واعترف انني ـ شخصيا ـ قد احترت في هذا الامر . وبدت لي القضية كأنها شيء واحد . الا انني ـ بعد تمعــن

وتدقيق ـ وجدت فروقا تتطلب تمييز المرحلتين ، ويصعب على الباحث الموضوعي الاستهانة بها أو طمسها • وأهم هـذه الفروق :

(١) تميزت المرحلة الثانية بالتنظيم والتمرد العلنـي ، والتخطيط الانقلابي • ففيها اذن ارادة التغيير عن طريق الاسقاط • اسقاط الحكام الطغاة •

(٢) قبول الحكام أو مدحهم في هذه المرحلة • مختلـف عن المرحلة السابقة • فالحكام الان مجرد مؤيدين لبرنامج حركة الاحرار • ووضعهم شبيه بوضـع اعضاء الحركة الموافقين على برنامجها • وانقلاب ١٩٤٨م جاء بحكومـة الدستور وهـو من أهـم مطالب الحركـة • بغض النظر عن تمرد امـام الدستور بعد نجـاح الانقـلاب ، وتوجسه مـن الاحرار •

لكل ذلك ـ وغيره ـ تعين علينا ضرورة التفريق •

(٣) مرحلة التغيير عن طريق اعلان الجمهورية :

بعد انقلاب عام ١٩٥٥ واختلاف الاحرار حوله • بـدأ الشاعر الزبيري يتميز عن حركة الاحرار قليلا • واذا كـان قد أيد « البدر » كما يرجح الدكتور الشهاري ، فانه بعد ذلك قد كفر تماما بالائمة •• بالحكام • فرفض التوقيع على برقية تأييد « البدر » بعد وفاة أبيه الامام « احمد » عام ١٩٦٢م • ولقد انتشرت دعوة « الجمهورية » في حركة الاحرار بعد فشل انقلاب ١٩٥٥م • وكان وعي الزبيري الفكري والسياسي قد

أخذ في التبلور الى حد المناذاة بالمساواة والعدالة الاجتماعية . وكان يدرك ان الديمقراطية السليمة ستجعل الاكثرية الكادحة تطالب بالاشتراكية نظاما اجتماعيا . وذلك ما أوضحناه في الفصل الاول ونحن بصدد الرد على تهمة تمثيله للاقطاع . ولقد أيد الزبيري ـ تطبيقا لموقفه الاخير ـ ثورة السادس والعشرين من سبتمبر عام ١٩٦٢م واعلان الجمهورية وعاد الى أرض الوطن ، مدافعا عن بقاء وصمود الجمهورية في وجه أعدائها الداخليين والخارجيين حتى اغتياله عام ١٩٦٥م .

ج ـ أشكال الاستبداد الامامي في شعر الزبيري

شعر الزبيري ، معاناة وجدانية وذهنية ونضالية ارتبطت ارتباطا وثيقا بقضايا وهموم الجماهير في الشطر الشمالي من الاقليم اليمني . وهو ـ على هذا الاساس ـ وثيقة تاريخية هامة . تطرح امام الباحث واقع « الحكم المتوكلي » في اليمن ، بكل طغيانه وقساوة بطشه وقهره الاجتماعي ولقد استطاع الزبيري ـ وهو يصور هذا الواقع ، أحيانا بحذافيره أن يحتفظ بالقيم الفنية لشعره . وأن يجعلنا حقا ـ حتى هذه اللحظات ـ مبهورين بتمكنه الفني وصوره الشعرية الرائعة مما يدلل على شاعريته الاصيلة الفذة . والزبيري ـ وهو يصور لنا أشكال الاستبداد الامامي ـ ألم بكل الظروف والوقائع . فاذا بنا نعيش مع شعره ، فترات تاريخية ، من أحلك وأبشع فترات الشعب اليمني . فكان ـ بحق ـ حاملا بين يديه مشعل الحرية ، يكشف به الواقع ، ويدعو الى التحرر من كآبته وظلامه وجبروته .

فعلى المستوى السياسي يشير الزبيري الى العزلة التي فرضها الحكم على الشعب حتى كاد العالم ان يفقده وكاد

العرب أن ينكروا صلتهم به :

ظل في العزلة الطويلة حتى كاد أن يدعي الورى فقدانه
وتناسى ذو الوشيجة قرباه كأن ما كانوا همو جيرانه

ويتساءل الشاعر ساخرا ، موجها حديثه الى العرب :

ان يكن هان قيمة شعبه الفاني فهلا تسلموا بلدانه ؟
فعساهم أن يذكروه اذا ما نظروا في خريطة ألوانه
فلعل التاريخ في متحف الآثار يهدي اليهم عنوانه(٧٥)

ويشير الى حظر « حرية الكلمة » والتجمع : (٧٦)

والناس بين مكبل في رجله قيد ، وفي فمه البليغ لجام
والاجتماع جريمة أزلية والعلم أثم والكلام حرام

ويرد على مزاعم الحكام – بهذا الصدد – المتلحفة برداء الدين :

ليس في الدين أن تكون بلا رأي .. ولا عزة ولا حرية

وينادي باطلاق الحريات العامة والحقوق المشروعة :

اطلق الشعب من أسار ومكنه من الحكم في الخطوب الاسيه
واعطه حقه ورد اليه دون بطء حياته المنسيه(٧٧)

وهناك السجون والجلادون ، أدوات قمع وارهاب : (٧٨)

تغذي البلاد بأسواطها وتسقي الرعية من صابها
رجالهم عند سجانها وأموالهم عند سلابها

وكم من دماء غالية سفكت على أيدي هؤلاء الحكام الطغاة، دون ذنب وبلا محاكمة : (٧٩)

وسلوهم كم من دم سفكوه دون حكم او حجة او شهود؟
وسلوهم كم قطعوا من رؤوس غاليات ومزقوا من جلود ؟

ويصور لنا الزبيري تصويرا دقيقا ومؤثرا ، ما حدث لبعض الاحرار بعد فشل انقلاب ١٩٤٨م حيث « شدت أعناقهم بالسلاسل وطاف بهم زبانية الطغاة مسافة ايام طويلة ، كانت بدايتها بالطواف حول صنعاء ، وكانوا يسيرون في الطرقات الوعرة وبين الجبال والشعاب مشيا على أقدامهم ، والسياط من ورائهم . والاغلال في رقابهم تشد بعضهم الى بعض وقد عاشوا ايامهم السود تحت رحمة هذه الاغلال ، حياة موحدة وعذابا موحدا ونوما وبتولا وتحركا وسكونا » : (٨٠)

طافوا بهم حول صنعا يطمسون بهم
حقا يضيق به الطاغي ويخشاه
وطوقوهم جميعا ضمن سلسلة
من الحديد ، يهول الناس مرآه
يكب بعضهم بعضا بمنكبه
وتلتقي أرجل منهم وأفواه
اذا تحرك فيهم واحد صرخوا
واستفحلت فيهم الآلام والآه
كل امرىء منهم خطب لصاحبه
يؤذيه وهو بريء حين آذاه
ضاقت رقابهم في الغل واحترقت
أقدامهم من رحيل طال مناه
اذا استغاث أسير من متاعبه
ليته بندقة الجندي ورجلاه

فن من البطش والتعذيب مبتكر
خليفة الله للاجيال أهداه
سيقوا جياعا ولم يسمح معذبهم
ان يستعدوا بزاد يوم بلواه
وسار من خلفهم جند زبانية
اذا أتوا خزية من أمرهم تاهوا
يستمخون من الاسرى مآكلهم
يا لؤم من راح يستجدي ضحاياه
والعسكري بليد ، بالاذى فطن ،
كان ابليس للطغيان ربـاه !

ـ الحاكم لا يؤمن جانبه • فمهما تقربت اليه ومدحته وخضعت له ، فانك ملاق سجنه وبطشه ونكرانه : (٨١)

نبني له عرشا يسود فيبتني
سجنا نهان بظله ونضام
تعنو الرؤوس له خشوعا ظلعا
وتنوء من أصفاده الاقدام
كم سبحته السن فتجرعت
منه مذاق الموت وهو زؤام
كم من أب واسى الامام بروحه
ماتت جياعا بعده الايتام

وعلى المستوى الاجتماعي يصور الزبيري « الحكم المتوكلي » القائم على أساس طائفي عائلي ، هاشمي • ومزاعمه القائلة ، أنه ظل الله في الارض وانه معصوم عن الخطأ وما عداه باطل (٨٢) :

ان الامامــة عصمة عظمــى تجـل عن النكير

و .. (٨٣)

تظن السماوات تحنــو لها وتجثو خشوعـا لا حسابها
وأن النبوءة ارث لهــا تتيــه بهــا وبألقابهـا

و .. (٨٤)

عمل الورى في رأيه كفر وما يأتيه فهو شريعـة ونظـام

ويرد الشاعر على تلك المزاعم الباطلة وعلى الطائفية ، مستعينا بالتاريخ والاصول :

أرضنا تلعن الطغاة الاولى سادوا علينا بالفرقةالمذهبية
أرضنا حميريةالعرق ليست أرض زيديــة أو شافعيــة

ويحدد موقفه من النسب « الهاشمي » الذي على أساسه يحاول الحكام أن يتميزوا ويطغوا :

وبنو هاشم عروق كريمات .. لنا من جذورنا اليعربية
انهم اخوة لنا غيــر أسياد .. علينا في عنصر أو مزيه
أرضنا أرضهم تقاسمنا نحن .. واياهم العلى بالسويــه
برئت منه هاشم واقشعرت .. في خلاياه النطفةالعربية
نحن أدنى لله من كل جبار وأولى بالشرعــة النبويــة

ويشير الزبيري الى الامتيــازات القائمــة علــى أساس طائفي عائلي وطبقي بقوله :

والمزايا فيالشعب للبعضدون البعض سمالاخوةالقومية(٨٥)

وقوله : (٨٦)

أكلوا لباب الارض واختصوا بها   وذوو الخصاصة واقفون صيام

ولقد كانت العلاقة بين الحاكم والشعب ، هي علاقة السيد بالعبد الذليل (٨٧) :

أيها الظالم الذي يتباهى   انه ابن الوحي أو سمط طه
نشهد الناس يركعون حواليك   دهورا ، ويخضعون الجباها
تتوخى بأن تكون شريك الله   .. فيهم او ان تكون الله
ان تكن أنت مؤمن باله   فلماذا تكون أنت الاله ؟!

وقوله : (٨٨)

وتذل أمتنا لفرد واحد   لا تستقاد لمثله الانعام

ومثل هذا الامر ، موقف تعافه الانسانية ، وترفضه قيم العصر الحديث . وهو ايضا خروج على مبادىء وتعاليم الاديان السماوية ، وبخاصة الدين الاسلامي : (٨٩)

وأنا عبيد خلقنا بها   لنبقى سجودا بأعتابها
ؤ

الركوع الذليل في غير وجه الله   .. رجعى بنا الى الوثنيه
وعبيد الاحجار أشرف ممن   يجعل السيف ربه ونبيه
نحن شعب مشيئة الله أن تفرض   .. منا على الطغاة المشيه
لا سيوف تذلنا لا سجون   تصنع الرق في دمانا الابيه (٩٠)

ويصعب على الشاعر ان يرى شعبه خاضعا خضوع العبيد لفرد طاغ ، ويستعين بالتاريخ محاولا ان يقارن بين حالهم بالامس وحالهم الحاضر . لعل في هذه المقارنة ما يجعل الشعب يفيق من غفوته المخدرة حين يرى عظمة الامجاد التي صنعها على مدى التاريخ (٩١) .

أبناء قحطان عبيد بعد ما عبدتهم الزعماء والحكام
كانت سيوفهم تؤدب كل جبارا بغير السيف ليس يقام
كانوا الاباة وكانت الدنيا لهم والملك والرايات والاعلام
نزلوا بيثرب والعراق فشيدوا ملكا كبير الشأن ليس يرام
وهم الاولى اقتحموا على اسبانيا أسوارها ، فتحكموا وأقاموا
قحطان أصل العرب، منذ تهاونوا بحياتها ، عاشوا وهم أيتام
لهم الجبال الراسيات وأنفس مثل الجبال الراسيات عظام
أتراهمو صنعوا الذرى أم أنها صنعتهم ، أم انهم أتوام
ولدوا عمالقة محنطة ، كما ولدت فراعنة لها الاهرام
اين القصور الشم أين بناتها الاقيال؟ أين ملوكها الاعلام؟
اين البحار من السدود يرى لها بين الشواهق زخرة وزحام؟
أين السلالة من معين وحمير؟ هل أيقظوا الدنيا لهم أم ناموا؟
هل سابقوا الاقطار في وثباتها؟ هل حلقوا حول النجوم وهاموا؟

ويعرض الشاعر للقهر الإجتماعي • فالحاكم معتمد على الشعب – وخاصة الفلاحين – في جمع الاموال له ولحاشيته – اذ ليس هناك مورد اخر – وعلى الرغم من ذلك وبدلا من ان يحمد الشعب ، مصدر رزقه وبحبوحته ، نراه ينظر اليه بعين متوجسة وجلة حاقدة : (٩٢)

نسدي له اموالنا ونفوسنا ويرى بأنا خائنون لئام
يمتص ثروة شعبه ويميته جوعا ، ليسمن آله الاعلام

والجيش – الذي هو أداة من أدوات القمع بيد الحاكم – متفرغ للسلب : (٩٣)

والجيش يحتل البلاد، وماله في غير أكواخ الضعيف مقام
يسطو وينهب ما يشاء، كأنما هو للخليفة معول هدام

و « كان القبيلي المجند تحت لواء الامام ، والذي قدم من شمال صنعاء الى سهول تهامة وأب وتعز والبيضاء ، لا يسمى جنديا بل مجاهدا في سبيل الله · وعلى هذا الاساس ، أبيح له أن يسكن في مساكن الاهالي بالقوة ، حتى لو أدى الامر – وكثيرا ما كان يؤدي – الى اخراج رب المسكن ، ليحتله المجاهد في سبيل الله ، ويفرض على الزوجة ان تتولى خدمته واطعامه ما يختار من طعام · وليس هذا بالامر المجهول بل هو شائع العلم كما يصوره الحوار الشعري الذي أداره الاستاذ الزبيري بين العجوز والعسكري في احدى قصائده ، اذ يقول :

العسكري : أين الدجاج وأين القات فابتدري
انا جياع ومنا في حيكم كرم
العجوز : يا سيدي ليس لي مال ولا نشب
ولا ضياع ولا قربى ولا رحم
الابن الذي يبكي لمسغبة
وتلك أدمعه الحمراء تنسجم
العسكري : اني اذن راجع للكوخ أهدمه
يا شافعية ، ان الكذب دأبكمو

وكم من أكواخ هدمت أو أحرقت لان فلاحا أو فلاحة اعتذرت بالفقر عن تلبية الرغبات المسعورة للجنود · والتي لا قبل لاحد بها » (٩٤) ·

الفقر والجهل والمرض – هذا الثالوث الرهيب – هو المحصلة الطبيعية لحكم طائفي اقطاعي مستبد · والشعب راضخ ومستسلم الحياة الكئيبة ، وكأنها قدر لا يقوى على

مقاومته وتغييره : (٩٥)

ماذا دها قحطان ؟ في لحظاتهم
بؤس وفي كلماتهم آلام
جهل وأمراض وظلم فادح
ومخافة ومجاعة وامام

والحاكم في موقفه من العلم ، يدرك عن وعي تام ، دوره في التغيير ان هو رفع الحظر عنه : (٩٦)

لا تتركوا قلما يسطر أو دماغا يستنير
لا تأمنوا العقل المفكر ، فهو خوان كفور
لا تنشروا العرفان الا في المبادىء والقشور
فالعلم يكتشف الزوايا والخبايا والستور ·

د ــ دور الشعر في نظر الزبيري :

في مقدمته لديوان « ثورة الشعر » يتحدث الزبيري عن قصته مع الشعر · وقصته مع الشعر ــ كما يقول ــ هي قصته مع الحياة · ذلك لان هناك تلازما وتشابها وتشابكا بين أطوار الحياة وأطوار الشعر ·

ويشير الى انه بدأ حياته « طالب علم ينحو منحى الصوفية في العزوف والروحانية » وانه تعشق هذا اللون من الحياة ونعم به كما لم ينعم بشيء اخر (رغم اليتم والشظف والقلة) ولم يصور الشعر هذا الطور من حياته ، طور « تكوينه الروحي » لانه استطاع ــ أي الشعر ــ أن يقتحم به « دنيا العصر الحديث قفزة ظافرة اجتازت القرون في سنين وخاضت مع جيل العصر ، مختلف الافكار والتيارات ومصطرع المذاهب

الدينية والسياسية والادبية والاجتماعية » • ولقد أخرجه الشعر من ذلك القمقم وقاده الى « غمار الحياة الواسعة الزاخرة بالمفارقات » • وتفاعلت نفسه مع الشعر وتفاعل الشعر مع نفسه ونما خلال نموها • وشعره ـ أو معظمه ـ تطغى عليه السياسة ذلك ، لان حياته كلها « ليست حياة شخصية منفكة عن الحياة العامة بأي حال من الاحوال » •

والزبيري ـ كما يقول ايضا ـ كان مفتونا بشعره الى أبعد حدود الفتنة • اذ كان يعطيه « ثقة خيالية بالنفس وأمنا غامضا لا مبرر له من الواقع المحسوس » وكان الشعر يشعره « بقوة الاستغناء عن كل ما في الحياة • وبنزوع الى الاستعلاء على الاهتمامات العادية » ، كما كان يشعره بالايمان بقدرة لا يمتلك في يده شيئا منها • ويواصل قصته مع الشعر قائلا : « **كنت أحس احساسا اسطوريا بأني قادر بالأدب وحده أن أقوض ألف عام من الفساد والظلم والطغيان** » (٩٧) •

لقد أحب الزبيري الشعر حبا عظيما • وكان يقاوم أحوال الزمان ، محافظا على شباب روحه : (٩٨)

أحب القريض وأحيا بـه مع الهول طفلاضحوكا لعوبا
وروع الطفولة في نزعتـي وفني ستمنعني ان أشيبـا

وهو لا يقول الشعر الا صادقا ومعبرا به عما يغيش في سرائر نفسه دون تكلف : (٩٩)

تسعى القوافي لي فلاأحني لها قلما اذا جـاءت بدون مراد
وأكاد أرفضها اذا ما لم تكن نزلت الي على روى فؤادي

والزبيري يدرك تمكنه من قول الشعر الاصيل الجزل •

لذلك فهو يجاهر ـ مفتونا ـ بهذه الحقيقة متمثلا المعري (١٠٠)

لقد جئت بالشعر الذي أنا شاعره   وأوله في العالمين وآخره

ودور الشعر عنده من أسمى الادوار وأخطرها • فبواسطته ، يحرك ما ترسب في أعماق الشعب من شعور بالظلم لا يقدر على البوح به • ويذكره بأمجاده التليدة وقدرته المستمرة على العطاء الانساني المجيد • ويشيع الامل والبهجة في نفسه المظلمة ويعمل على انقشاع سحائب الظلم والاهوال القاسية عن كاهله المثقل بها : (١٠١)

أتبركوا من أعماقه   وأوقظ عزته النائمه
واغزو دياجير أغواره   فاشعلها بالرؤى الحالمه
واطرد اشباح كابوسه ••   الرهيب وأهواله الجاثمه

والشعر عنده بمثابة قاض لا يرحم : (١٠٢)

عندي لشر طغاة الارض محكمة
شعري بها شر قاض في تقاضيه

لذلك ، فان الحكم العادل على من طغى وأفسد ، هو الموت المليء بحقد الشعوب : (١٠٣)

أذيقه الموت من شعر اسجره
أشد من موت عزريل قوافيه
موت تجمع من حقد الشعوب على
•• الطغيان ، فازداد هولا في معانيه
يؤزه في اللظى غمزي ، ويدهله
عن الجحيم ، وما فيه ، ومن فيه

والزبيري ـ بشعره ـ قادر على أن يحول آهات الشعب الى نيران ملتهبة كاسحة ، ودموعه الى طوفان عارم يزيل من يقف في طريقه . وعلى أن يتصدى للظلم ويحاربه مهما كانت قسوته ومهما حاكى الظلم الذي يضرب به المثل في تاريخ البشرية : (١٠٤)

سأنبش الآه من تحت الثرى حمما
قد أنضجته قروق من تلظيه
وأجمع الدمع طوفانا أزيل به
حكم الشرور من الدنيا وأنفيه
أحارب الظلم مهما كان طابعه
.. البراق أو كيفما كانت اساميه
جبين « جنكيز » تحت السوط أجلده
ولحم « نيرون » بالسفود أشويه
سيان من جاء باسم الشعب يظلمه
أو جاء من « لندن » بالبغي يبغيه
«حجاج حجة»(١٠٥) باسم الشعب أطرده
وعنق « جنبول » باسم الشعب ألويه

ويلخص الزبيري دوره كشاعر ـ أروع تلخيص ـ في مقطع قصير بعنوان « اعلان مروع » : (١٠٦)

قوضت بالقلم الجبار مملكة
كانت بأقطابها مشدودة الطنب
فان فشلت ولم أنهض بدولتنا ..
الكبرى لشعبي ، ولم أظفر بمطلبي
فسوف أبني له مجدا من الادب ..
العالي ، يبوؤه في أرفع الرتب

ولن يكون الذي قد كـان مـن حـدث
مروع ، غيـر اعـلان عـن الادب

يقول الدكتور عز الدين اسماعيـل « كـان طبيعيا ان يكون للشعر دور في حياة الشعب اليمني وأثر ملموس فـي تحريك النفوس وتوجيه العقول · لا جرم ان يكون الشعر في اليمن سلاحا من أسلحة النضال في زمن النضال ، لا يقل فعالية عن أي سلاح اخر ، بل ربما كان أمعن فتكا وأبلـغ أثرا » ·

ويقول « في هذه البيئة تصبح عبارة « الشعر سلاح في معركة النضال الوطني » عبارة أقرب الى الحقيقة العملية منها الى المجاز البلاغي · وفي هذه الحالة ، يعود الشعر الى قوته السحرية الاولى ونفوذه القديم » (١٠٧) ·

هـ ـ الاصرار والامل في شعر الزبيري :

تميز الزبيري المناضل ـ منذ بداية عهده بالنضـال ـ بالصمود العنيد في وجه الواقع الراكد الشاحب الكئيـب ، والاصرار على اصلاحه وتغييره · ولا شـك ، في ان ذلـك الاصرار في تلك الظروف · كان شبيها بالموقف المثالـي · فالحكام قد استطاعوا تخدير الشعب بما زعموا لهـم مـن امتياز ونفوذ ، وخاصة ، لدى القطاع المسمى « زيديا » وبهذا الصدد يقول الزبيري « **الذي أجزم به ان الشعـب لم يكـن يطيق أية قوة على الامام بقول أو عمل · وكان يعتبرها طيشا وينفر منها أشد النفور** » (١٠٨) · وقد كتب قصيدة بعـد فشل الانقلاب ١٩٤٨م بعنوان « نكسة الثورة » صدرها بقوله

« تصور هذه المقطوعة دهشة الاحرار المثاليين منذ ان فجعوا بانبعاث روح الطغيان بعد مصرع الطاغية وتحول الجماهير الى وحوش تفترس منقذيها » (١٠٩) · في مثل هذه الظروف ، كان الزبيري مصرا على النضال ومؤمنا بقدرة شعبه على الاطاحة بحكم الطغاة مهما بدا عليه من تخدير وسبات عميق : (١١٠)

وأقسم بالله خير القسم
وما صنته من كريم الشيم
لارمي بقلبي في المزدحم
وأمحو عن الشعب عار الصنم
وأجعله عبرة للامم !
سأمضي عنيدا فلا انثني
وأحيا كريما فلا أنحني
وأرفع نحو السما جبهتي
كما ارتفعت جبهة المؤمن
أموت خميصا ! ولا أقبل الفتات
·· من القاتل المحسن

ومن منطلق الاحرار على المضي في طريق النضال · يندد الزبيري دائما بالمتخاذلين اليائسين من يقظة الشعب المذعورين من بطش الحكم : (١١١)

أيها الغاضبون من ثقة الشعب
·· بنا والمؤلبون علينا
أيها المرهقون يأسا وغما

وانهماكا في هدم ما قد بنينا
أيها الزاعمون انا احتكرنا
دعوة الحق وحدنا وانزوينا
ما احتكرنا نضالنا بل دعونا
فرفضتم أن تفهموا ما عنينا
هالكم صبرنا على كل خطب
.. فوقفتم من ذعركم ومضينا

كما يندد بالمأجورين والمشبوهين : (١١٢)

فاجمعوا أمرهـم للغـدر وانتـدبـوا
لكيدنـــا كـل مأجـور ومشبـــوه
واستكبلت ضدنـــا آلاف السنــــة
تسومنـــا كـل تجريـح وتشويـه
من كـل مرتـزق لو نـال رشوتنـــا
أنالنـــا كـــل تبجيـــل وتنويـــه

لقد كان الامل يملأ قلب الزبيري • وثقته بالشعب بلا حدود :

هراء يقول الكافرون بشعبهم
فسحقا لما فاهوا به وتكلموا

وكان بالامل والثقة يصل الى حد النبوءة ، فيقـول ـ موجها حديثه للطاغية الامام يحيى ـ : (١١٣)

ألم تخش من أمـة أصبحـــت
اليك تكشر عن نابهـــا
وتزأر غضبى زئير الاسود

وأنت الملوم باغضابها
ستلقى مغبة مـا قـد صنعـت
وتجنـي المخالـب مـن غـابهـا

وبعد أربع سنوات من هذه النبوءة ، سقط الطاغيـة مضرجا بدمائه · وعلى الرغم من فشل الانقلاب · ومجـيء الامام « احمد » · وعلى الرغم من موقف الشعب من الانقلاب ومدبريه ، نرى الزبيري يقول : (١١٤)

ألمح الشعب قابعا يدرس الثورة
·· كيما يأتي بأخرى جديدة
يتحرى الاخطاء ويغفر للاحرار
··· اخطاءهم ليبقوا جنوده

وتتحقق النبوءة بعد سبع سنوات في انقلاب ١٩٥٥م ·

ذلكم هو « محمد محمود الزبيري » · الشاعر المناضل في سبيل تحرر شعبه من حكم الطغاة وحظيرة القرون الوسطى المؤمن بيوم الخلاص رغم الآلام والمحن والظروف الصعبة في الداخل والخارج :

تجلـدا أيهـــا الاحـــرار ان لكـم
وتـرا عـزيـزا علينـا مـا دفنـاه
انا وهبنا شبـاب العمر للوطـن الدا
مـــي وانقـــاذ عطشـاه وغرقـــاه
لا بد ان تدركـوا يـوم الخلاص ومـا
بدلنـــا ان نلاقـــي مـا طلبنـــاه

و ·· كان يوم الخلاص · وسقط الحكم المتوكلـي الى

الابد ، بعد ثورة الشعب اليمني في السادس والعشرين من سبتمبر عام ١٩٦٢م • ولعله من المفارقات العجيبة •• ان ينجو الزبيري من الموت في عهد الطغاة •• ويسقط شهيدا في عهد الثورة ، علـى يد أعداء الشعـب اليمني •• أعـداء الزبيري •

....

(٥١) الان جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية وعاصمتها « عدن » •

(٥٢) خطر الامامة ، ص ٣٧ • (٥٣) نفسه ، ص ٤١ •

(٥٤) نفسه ص ٤٣ •

(٥٥) الاداب البيروتية • يناير ١٩٦٤ ، ص ٥ •

(٥٦) مجلة الحكمة العدنية • اكتوبر ١٩٧١م ص ٤٦ – ٤٧ •

(٥٧) ديوان ثورة الشعر ص ٣٣ • (٥٨) نفسه ، ٢٨ – ٢٩ •

(٥٩) مخطوطة • عن رسالة ماجستير بعنوان « الابعاد الموضوعية والفنية لحركة الشعر المعاصر في اليمن » للزميل عبد العزيز المقالح ص ٩٠ •

(٦٠) مخطوطة ، عن المصدر نفسه ، ص ٩٠ •

(٦١) مجلة الثقافة الجديدة العدنية ، اكتوبر ١٩٧٠ ، ص ٩١ – ٩٢ •

(٦٢) انظر ، عبد العزيز المقالح (رسالة الماجستير) ص ٨٧ – ٩٠ •

* د• عز الدين اسماعيل يقول بهذا الصدد « لم يكن ذاك المـدح والاستعطاف اذن حقيقين بل كانا لعبا بعقل الامام واستهواء له » • « الشعر المعاصر في اليمن » ١٩٧٢ ص ٣٥ •

(٦٤) ثورة الشعر ، ص ٣٠ • (٦٥) نفسه ، ص ٣٧ •

(٦٦) ثورة الشعر ، ص ٣٦ (٦٧) صلاة في الجحيم ، ص ٥٨ •

(٦٨) ثورة الشعر ، ص ٣٦ (٦٩) نفسه ، ص ٣٨ •

(٧٠) صلاة في الجحيم • ص ٥٥ – ٥٦ •

(٧١) نفسه ، ص ١٣٠ – ١٣٢ •

(٧٢) نفسه ، ص ٤٣ – ٤٦ •

(٧٣) نفسه ، ص ١٣٠ ـ ١٣١ ٠

(٧٤) صلاة في الجحيم ، ص ١٠٣ ٠

(٧٥) ثورة الشعر ، ص ١٣١ ـ ١٣٣ ٠

(٧٦) صلاة في الجحيم ، ص ٦٦ ٠

(٧٧) ثورة الشعر ، ص ٨٨ ٠

(٧٨) صلاة في الجحيم ، ص ٥٧ ٠

(٧٩) ثورة الشعر ، ص ١٤١ ٠

(٨٠) صلاة في الجحيم ، ص ١٠١ ٠

(٨١) صلاة في الجحيم ، ص ٦٢ ٠

(٨٢) نفسه ، ص ٤٨ ٠

(٨٣) نفسه ، ص ٥٧ ٠

(٨٤) نفسه ، ص ٦٣ ٠

(٨٥) ثورة الشعر ، ص ٨٩ ـ ٩٠ ٠

(٨٦) صلاة في الجحيم ، ص ٦٧ ٠

(٨٧) نفسه ، ص ١٧٥ ٠ (٨٨) نفسه ، ص ٦٢ ٠

(٨٩) نفسه ، ص ٥٧ ٠ (٩٠) ثورة الشعر ، ص ٨٦ ٠

(٩١) صلاة في الجحيم ، ص ٦٣ ٠ (٩٢) نفسه ، ص ٦٢ ٠

(٩٣) نفسه ، ص ٦٦ ٠

(٩٤) محمد أحمد نعمان ، الاطراف المعنية في اليمن مؤسسة الصبان ٠ عدن عام ١٩٦٥ ٠ ص ٢٧ ـ ٢٨ ٠

(٩٥) صلاة في الجحيم ، ص ٦٦ ٠

(٩٦) نفسه ، ص ٤٨ ٠

(٩٧) انظر ثورة الشعر ، ص ٥ ـ ١١ ٠

(٩٨) صلاة في الجحيم ، ص ١١ ٠

(٩٩) نفسه ، ص ٤٠ ٠

(١٠٠) نفسه ، ص ٤٣ ٠

(١٠١) ثورة الشعر ، ص ٤٥ .

(١٠٢) صلاة في الجحيم ، ص ١٤٢ .

(١٠٣) نفسه ، ص ١٤٣ .

(١٠٤) نفسه ، ص ١٤٤ .

(١٠٥) يقصد الامام « احمد » . وحجة منطقة في اليمن عرفت بسجنها الرهيب .

(١٠٦) صلاة في الجحيم ، ص ٦ .

(١٠٧) الشعر المعاصر في اليمن ، ص ٥٠ ـ ٥١ .

(١٠٨) ديوان ثورة الشعر ، ص ٢٥ .

(١٠٩) نفسه ، ص ٥٩ .

(١١٠) نفسه ، ص ٤١ ـ ٤٧ .

(١١١) نفسه ، ص ٩٩ ـ ١٠٠ .

(١١٢) صلاة في الجحيم ، ص ١٣٦ .

(١١٣) نفسه ، ص ٦٠ .

(١١٤) ثورة الشعر ، ص ٦٢ .

الزبيري ومعركة النقاد

عبد الباري طاهر

بداية المعركة النقدية :

لم يثر الجدل والنقاش ، ولم تحتدم المعارك النقديـة والادبية والفكرية في اليمن حول أي أديب من الادباء أو مفكر من المفكرين في مرحلتنا الراهنة ـ بل ولم تتعدد الاجتهادات والتخريجات وتتباين حول أي شخصية وطنية كمـا تعددت وتباينت حول أبي الاحرار شاعر اليمن العظيم وشهيدها الخالد (محمد محمود الزبيري) فما هو السر ؟.

لا شك ان تعاظم المد الوطني والتحولات الاجتماعية التي شهدتها وتشهدها اليمن وبالتالي حركة الجدل والاستقطاب الحادين اللذين تمخض عنهما تفجر الصراع بصورة مكشوفة لم يسبق لها نظير في تاريخ البلاد على جميع الاصعدة ، وبصفة أخص على نطاق السياسة والادب والفكر .

وقد اتخذ الصراع الفكري والادبي في بعض جوانبه طابع المراجعة النقدية والدراسة والتقييم لتجارب شعبنا وتراثه الفكري والادبي خصوصا ما يمت الى حركته الوطنية بصلة •

وبديهي ان يكون « الزبيري » أحد رموز الحركة الوطنية ـ الاكثر معاصرة وغنى وشمولا ـ احد محاور تلكم المعارك التي ـ رغم بعض جوانبها السلبية ـ سيكون لها اعظم الاثر في اغناء حركتنا الادبية ، ورفدها بتيار نقدي زاخم اضافة الى التأصيل الخلاق للقيم الفنية والجمالية التي يحتدم حولها الجدل ، ومن ثم ابراز الجوانب الاكثر اشراقا وروعة في تراثنا الانساني لا لاستناد اليه فحسب بل ولاستلهامه وتطويره ليغدو سلاحا قويا بيد جماهير شعبنا في معاركها المصيرية لاعادة بناء (يمنها الجديد الموحد) •

ان المعركة الفكرية والادبية التي تحتدم من حول الزبيري لا يمكن عزلها اطلاقا عن مواقفنا ووجهات نظرنا المختلفة والمتباينة حول تحليلنا لطبيعة حركة الاحرار بصورة خاصة ، والحركة الوطنية بصورة عامة والتي كان الزبيري قطبا من اقطابها هذا من جهة •

ومن جهة اخرى فان لعبقرية « الزبيري » الشعرية دخل في تفجير هذا الصراع ، فالزبيري لم يكن شاعرا عظيما فحسب ـ كما هو الحال بالنسبة لبعض شعراء عصر النهضة أمثال **الرصافي ومطران وحافظ وشوقي ومحي الدين فارس** وانما هو ايضا مناضل وطني تزعم حركة الاحرار اليمنيين ولربع قرن من الزمن بل ومثل فيها الجانب الاكثر صلابة وصدقا وطنيا وطهارة •

والزبيري كشاعر عظيم لعب دورا كبيرا في « التجديد الشعري . **فقد كان (الزبيري) أكثر معاصريه** أمثال «**العزب**» و « **الموشكي** » و « **محمد عبد الله الارياني** » ـ قدرة وتمكنا من احداث ثورة في المضامين الشعرية القديمة التي اتسخت من طول تكرارها من قبل الشعراء الكلاسيكيين طوال اجيال عديدة ، ونجح الى حد بعيد في خلق مضامين جديدة ، وموضوعات حديثة استمدها (الزبيري الشاعر) من ذلكم الينبوع العميق الزاخم الذي لا ينصب ابدا الا وهو الشعب الذي آمن به الزبيري .

وآمنت بالشعب حتى وقد
رآه الورى جثة هامدة

فالزبيري لم يضرب بخياله في تخوم الكتب الصفراء ولم يستنجد بحوليات (الجاهلين) ولم يعاقر خمريات (أبي نواس) ولا مدائح المتنبي وانما رمى ببصره في أغوار مآسي شعبه وآلامه وطموحاته ورغباته وهمومه العظيمة ، وراح يستمد منها صنع قيثارته الشعرية التي وقفها في التغني بتاليهه وهواه ، واعتبر الخروج عنها بوارا وموتا .

فلقد تجلى تجديد « الزبيري » في تجسيده للواقع الحياتي الذي كان يعيشه بكلما فيه من خير وشر وسلب وايجاب ، وتمكن بقدراته الشعرية الهائلة وتراثه اللغوي واحساسه المرهف بهموم مواطنيه تمكن من حقن المدرسة الكلاسيكية (العمودية) بدماء حده من المضامين الاجتماعية ، ورفدها بالصور والاخيلة واللغة المعبرة عن طبيعة روح العصر

بدلا من فضلات عصر الانحطاط ومومياء القواميس ،

متى بدأت المعركة ؟؟

المعركة ضد « الزبيري » لم يقدها الاستاذ عبد الله البردوني كما يتصور البعض ، وانما ترجع الى بداية الستينات عندما أصدر الاستاذ محمد أحمد الشامي كتابه « عبقرية الامام الناصر » وكذلك كتابه « قصة الادب في اليمن » فقد حاول اظهار الزبيري كأحد مداح القصر أو باستعارة بعض تعابير الشامي نفسه ـ ان جازت الاستعارة ـ محاولة اثبات «الشامي» ان انفاسه ليست الوحيدة التي تنشر مكروب الامامة وتستنشق ريحتها الموبؤة ، وما دفاع الاستاذ الشامي عن « الزبيري » في كتابه « من الادب اليمني » الا من قبيل « ازقم خبيرك » .

اما « زيد الوزير » فيرى ـ بعد مقارنة ظالمة على حد تعبير الاخ المقالح ـ بين « الزبيري » وحافظ ابراهيم ، ان الزبيري ليس بشاعر الشعب لتوزع (...) بين الكوخ والقصر ، وبين الطاغية والشعب ؟! (١) .

ويتهمه بالغموض ، وعدم النظر الى القضية الوطنية الا من خلال الامام ؟؟ (٢) .

وقبل التعرض بالتفصيل لاراء النقاد اليمنيين في الزبيري ينبغي الاشارة الى ان هناك كتابا اخرين « عرب » قد

(١) الأبعاد الموضوعية والفنية لحركة الشعر المعاصر في اليمن ، عبد العزيز المقالح .

(٢) دراسات في الشعر اليمني القديم والحديث ١٨٤ و١٨٧ .

كتبوا الكثير عن الزبيري أمثال - **عبد العزيز عتيق - و• عز الدين اسماعيل ، وعبد الستار الحلوجي ، وهلال ناجي** وآخرين ولكنها لم تخرج في خطها العام عن آراء كثير من النقاد اليمنيين المنصفين •

اننا ونحن بصدد استعراض آراء النقاد اليمنيين في « الزبيري » نود الاشارة الى أن البعض من كتاب الزبيري قد تناولوه من الجانب السياسي ، ولاغراض سياسية معينة فقد اتخذوا من بعض سلبيات حركة الاحرار اليمنيين ، وما أكثرها قميص عثمان للتحامل على الزبيري ومحاولة التشكيك في وطنيته ، ومن هنا فقد جاءت احكامهم على جانب كبير في الحيف والتجني •

وراح البعض الاخر يحاكم الزبيري السياسي والشاعر معزولا عن الظروف المحيطة ، وبدون تأطيرها بظرفها الزماني والمكاني مع تجاهل - بسوء نية ومع سبق الاصرار - لمراحل تطور تجربة الزبيري الشعرية ومواقفه السياسية تبعا لنمو وتطور الحركة الوطنية بشكل عام وحركة الاحرار اليمنيين بصورة خاصة مع الفهم العلمي لطبيعتها الاجتماعية وتكوينها الفكري والسياسي •

فلنتناول الآراء النقدية المختلفة بشيء من التفصيل مع طرح بعض الملاحظات المتواضعة عليها •

الزبيري والبردوني

لعل أكثر النقاد اليمنيين كتابة عن الشهيد الزبيري هو

شاعر والناقد الاستاذ عبد الله البردوني فلقد تعددت جتهادات البَردوني وتخريجاته عن الزبيري الى حد اتسمت بطابع التناقض والارتباك ٠

فبينما يرى البردوني في كتابه « رحلة في الشعر اليمني قديمه وحديثه » ان الزبيري حامل راية التجديد في الهرم الكلاسيكي للقصيدة اليمنية ، وان شهرته العبقرية والتي تشبه شهرة المتنبي ترجع الى انه امتداد متجدد لمدرستي ، الزنمه وأوائل عهد النهضة (١) ويضيف : اذن فشهرة الزبيري قامت على أسس ثلاثة :

الاول : انه امتداد متجدد للشعر العربي في عهد فحولته وفي عهد النهضة فكان عهده **الاول يمتاز بالمبالغة ان لم تكن مقبولة واقعيا فهي مقبولة فنيا !٠**

الاساس الثاني : المشاركة الوجدانية للافراد والشعب فكما يموت عالم أو يؤلف فقيه كتابا لا يشيد الزبيري بالميت أو يثني على المؤلف **وكان شعره منتظر في كل مناسبة !**

الاساس الثالث : في شهرة الزبيري يمت الى الاساسين الاولين ٠ فقد جدد لكن على الاساس القديم ، فلم يشذ عن القديم كل الشذوذ ، ولا تقيد به كليا لهذا لم يكن تجديده غريبا ، وهذه الحجج وسيلة لكل فن ، فلا ينجح الجديد الا على أساس **قديم** لان الجذور سر حياة كل نبت في الطبيعة والانسان والفنون والافكار ٠٠٠ وعلى هذا قامت شهرته ،

---

(١) رحلة في الشعر اليمني قديمه وحديثه ـ ص ١٢٤ ٠

وأكبر من هذا وذاك انه كرس شعره وحسه للوطنية ، فكان الوطن ذاته وموضوعه ، ولعل هذا سر خطورة شعره ودلالة بقاء شعره حتى وان مات الزبيري فموت المناضل احياء للقضية وبالاخص اذا سجل المناضل هذه القضية في شعر سائر كشعر ابي عمران محمد محمود الزبيري (١) .

ويقسم الاستاذ البردوني شعر الزبيري الى أربع مراحل :

١ ــ الارادة والتردد في العهد الثاني من النهضة .
٢ ــ مرحلة النصح للحاكمين .
٣ ــ مرحلة النضال الانقلابي .
٤ ــ مرجلة الثورة والدعوة لقيام النظام الجمهوري (٢)

وبقطع النظر عن صواب أو خطأ التقسيم لمراحل تطور شعر الزبيري ، والذي واكب الحركة الوطنية ، والمد الثوري كثائر موهوب ، وقائد سياسي بارز في حركة الاحرار اليمنيين وهو ما أكد عليه الاستاذ نفسه « فلا يمكن فصل الزبيري المناضل عن الزبيري الشاعر ، وبالاخص اذا عرفنا انه أراد لحروفه ان تقاتل وان تملك أمر السياسة !! » (٣) .

ان تناقض او بالاحرى تباين وجهات نظر البردوني في الزبيري لا تقف عند هذا الحد بل تتعداه الى القيم الجمالية والخصائص اليمنية ايضا فبينما يرى البردوني النص : « ان الزبيري قد جعل من الشعب وقضيته كل موضوعات قصائده

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٢٩ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٢٩ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٢٩ .

فدعى الى الدستور وبكى مصرعه ، وناضل الطغيان في عدة أساليب من الشعر والنثر **لكثرة اتصال وجدانه بقضية الشعب** » (٤) .

في حين يستدرك الاستاذ « ان شعر الزبيري قد أخفق في التقاط ملامح الارض اليمنية ؟! ومن ذكر أسامي أمكنة أو نبات !! » .

ويتسائل البردوني « هل غابت هذه القضايا لقربها من نفسه ؟؟ فكان من شدة الوضوح الخفاء !! أم هل النكبات والبحث عن الخلاص أبعدته عن التقاط ملامح أرضنا وعاداتنا !! مهما تكن الدواعي فان شعر الزبيري تنقصه ملامح اليمن ، وروائح اليمن ، فلا نجد في كل شعره ذكر البن ، وهو رمز اليمن الاخضر ، ولا ذكر الجبل أو أرض جبال اليمن وآثارها الخ ... (٥)

وتتعدد آراء الاستاذ في الزبيري لتصل في النهاية الى الجزم ـ بأن معظم قصائد الزبيري أو أكثرها هي مدائح للامام (٦) .

ولنعط لانفسنا الحق في مناقشة آراء أستاذنا !!

هل صحيح ان شعر الزبيري في المرحلة الثانية قد اتخذ

---

(٤) المصدر السابق ، ص ١٢٩ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٣٠ .

(٦) جريدة السلام عدد ـ ٢٦ ، ٢٧ ـ في مقابلة اجراها معه محمد الفضلي بالقاهرة .

شكل المشاركة الوجدانية للافراد والشعب فكان شعره منتظر في كل مناسبة ؟؟

لا نختلف مع أستاذنا في ان الزبيري قد أبن رئيس الاستئناف « يحيى الارياني » ولكن ألم يتخذ منها الزبيري سمفونية حزينة لتأبين الشعب ؟؟

ألم برسم فيها لوحة لوباء « التيفوس » الذي اجتاح البلاد ، وفتك بعشرات المئات من أبناء شعبنا في حين يردد فيه الطاغية على مسمع مطالبيه بفتح بيوت المال لاطعام ضحايا « التيفوس » والمجاعة « من عاش فهو نجى ومن مات فهو شهيد » ؟! .

ألم يسجل في تلكم المرثية لعنة الله والشعب على سارقي أقوات الجماهير المتحمسين بالدين زورا ؟؟

ولسنا مع أستاذنا في ان شعر الزبيري تجريدي « فاقد الخصوصيات » يمكن ان يصدق على غير اليمن !! فالصور الكاريكاتورية الساخرة التي رسمتها ريشة الفنان الموهوب والسياسي المولة بحب شعبه لاعداء الشعب أو للاوضاع العامة في اليمن لا يمكن ان تنطبق على أحد غيرهم ولا يمكن ان تكون الا صورة بديعة الصنع ليمن « أحمد ياجناه » وأشعار الزبيري سجل حافل بمخازي الامامة ومساوىء الظلمة وتصوير عبقري لعذاب اليمنيين وليل اغترابهم .

ان افتقار أشعار الزبيري الى الخصوصية المحلية التي اكتشفها الاستاذ ولم يسبق اليها أحد من قبل ، والتي اتخذ منها الاستاذ الشامي قميص عثمان لماحكته المشحونة حقدا

وكراهية ، قد سبق وإن تناولها الاخ صالح الدحان في العدد الثاني من الحكمة في حينه مشيرا الى قضية بديهية هي ان مهمة الشاعر مختلفة تماما عن مهمة المؤرخ أو الجغرافي ، والقصيدة في النهاية ليست خارطة ستقرأ فيها الاماكن والآثار، والخصائص المحلية أو الصدق الفني في الابداع ليس محصورا في رسم ملامح التربة وحدها رغم أهميتها ، ولكنها يمكن ان تجسد ايضا في الإنسان وارث الارض وما عليها وخالق مجدها وحضارتها ، وهو ما عمله الزبيري بقدرات رائعة .

ان تباين وجهات نظر البردوني هذه يمكن تبريرها أو تعليلها بالاجابات السريعة غير المتأنية والاطروحات المتعجلة التي غالبا ما يضطر اليها الاستاذ من جهه ، والى موقفه من ٤٨ و٥٥ وحركة الاحرار اليمنيين بشكل عام .

الا ان الشيء الذي لا يمكن تبريره على الاطلاق هو تصريح البردوني في المقابلة التي أجراها معه الاخ محمد الفضلي ونشرت بصحيفة السلام بأن أغلب قصائد الزبيري هي مديح للامامة .

فليس بخاف على احد ان الزبيري أصدق شعرائنا « المخضرمين » على الاطلاق في تسجيل تجربته الشعرية وفقدها وهو الوحيد أكرر الوحيد الذي سجل قصائده الامامية مطلقا عليها تسمية « الوثنيات » .

ووثنيات الزبيري على قلتها من الناحية الكمية قياسا الى ديوانيه المنشورين ، فانها من الناحية النوعية لا تعتبر مديحا بالمعنى المجرد او الحرفي ، بمقدار ما هي دعوة الى

الاصلاح وحث الحكام على احترام ارادة الشعب ، وفي اعتقادي ان الاستدلال بهذا النموذج أو ذاك لا يخدم الحقيقة التي ينبغي علينا جميعا البحث عنها وتوخيها ، وانما الذي ينبغي ان يكون حكما فهو دراسة مجمل اعمال الشاعر وربطها بظرفها الزماني والمكاني ، ومن ثم الخصائص الجمالية والفنية لها والاثر الذي تركته في صفوف الجماهير ، ومدى خدمتها لقضاياها المصيرية، ولسوء حظ بلادنا فان كثيرا مما نادى به الزبيري وتغنى به يزال بعيدا عن متناول أيدينا جميعا .

ومهما يكن الامر فقد اتخذ الشامي من نقاط الضعف في آراء الاستاذ البردوني عكازا يتوكأ عليه في التجريح اللاموضوعي والاهواء الذاتية القريبة الى الضغينة والحقد بمقدار بعدها عن « الادب » والنقد .

الزبيري والمقالح

يتناول المقالح الزبيري في كتابه « الابعاد الموضوعية والفنية لحركة الشعر المعاصر في اليمن » ومع عدم تعويله على اختيار تسمية ما للزبيري كما فعل الجاوي وبركات ، مع العزوف ايضا عن تقسيم مراحل شعر الزبيري كما فعل الدكتور عبد العزيز عتيق ، والاستاذ عبد الله البردوني الا ان المقالح يخضع تناوله لشعر الزبيري للمنهج الذي اختاره في دراسته للشعر اليمني المعاصر ، والتطورات الموضوعية والنفسية التي مر بها تبعا للتغيرات الاجتماعية والتطورات السياسية والاقتصادية والفكرية .

فالمقالح يتناول شعر الزبيري - وفق منهج رسالته للماجستير - من ناحية ابعاده : الوطنية والقومية ، والاجتماعية على النطاق المضموني ، اما الاشكال الفنية لتجربة الزبيري فالمقالح يحددها وفقا للتطورات التي طرأت على تجربة الزبيري ابتداء من التجديد في البناء الكلاسيكي العمودي وتتسم هذه المرحلة في شعر الزبيري بالخطابية والمباشرة والصوت الجهوري المجلجل .

المرحلة الثانية مرحلة النفس الرومانسي ومن ثم الميل الى الاوزان الخفيفة او القافية الجديدة على حد تعبير الاستاذ البردوني .

فمن الناحية الوطنية يرى المقالح ان الزبيري قد بدأ شعره الوطني بقصيدة « الخروج من السجن » وكانت هذه القصيدة ذات النبرة العالية المتحدية بداية هذا الانعطاف الكلي في الشعر نحو الوطن كما كانت النشيد الوطني أو «المارسلييز» الذي ردده الشاعر وهو يغادر قصر الطاغية في طريقه الى الشعب بعد مهادنة عقيمة وبعد أمل كاذب لم يثمر سوى المخاوف والتهديد بالموت (١) .

وهو يرى ان شعر الزبيري في هذه المرحلة لم يعول كثيرا على المعايير او المقاييس الفنية والجمالية (٢) ويضيف : « قد يكون في هذا الاسلوب الصريح المباشر جناية على الفن ولكن أي فن **هذا الذي يمكن له ان يخدم الانسان العادي من**

---

(١) الابعاد الموضوعية والفنية لحركة الشعر المعاصر في اليمن ص٦١ و٦٢
(٢) المصدر السابق .

التعرف على قضية كما هي » (٣) .

ويؤكد « ان شعر الزبيري كزميله الموشكي قد اتسم بالوضوح ودقة التوصيل الامر الذي دفع الزبيري الى الاعتقاد بأن شعره قد عوقب بالسياسة (٤) لانشغاله بها عن مواصلة الانتاج الشعري » .

ويضيف « ان شعر الاثنين « الزبيري » و « الموشكي » **كان يخضع لقدر غير قليل من الخطابية والتعبير المباشر » (٥)**

وان كانت عند الزبيري أقل منها عند الموشكي ، ومع اعتراف المقالح بأن الزبيري لم يكن الوحيد من شعراء اليمن الذين حاولوا اتباع اسلوب جديد يتناسب مع روح العصر ، ورؤيته في تجديد الاغراض القديمة ، وفي تطويرها لنقل مشاعره المشرئبة للتجديد ، وان كان هذا الاسلوب في التجديد قد وصل عند الزبيري قمة التطوير (٦) .

اذن فما هو بالضبط موقف المقالح من القضايا التي أثارها نقاد الزبيري وفي مقدمتهم الاستاذ عبد الله البردوني ، والدكتور الشهاري ، وزيد الوزير وبصورة أخص ما يتعلق بـ ـ وثنيات ـ الزبيري على حد تعبيره هو وهي مدائحه للطاغية يحيى وابنه الجلاد احمد .

يقدم المقالح لطرح وجهة نظره بالاستشهاد بفقرة من

---

(٣) المصدر نفسه .

(٤) هلال ناجي شعراء اليمن المعاصرون .

(٥) الابعاد الفنية والموضوعية لحركة الشعر المعاصر في اليمن ص ٧٢ .

(٦) المصدر السابق .

مقدمة الزبيري لديوانه ثورة الشعر « النص : (اذا كانت الحرب خدعة فالشعر احيانا سلاح من أسلحة الحرب ، ولا بأس في ميدان الصراع ان تكون الخدعة سلاحا شاعرا على ان المعيار الحق في وزن أقدار الرجال وآدابهم واشعارهم لا يتجه الى الاستنادات والمواقف المؤقتة والجانبية والسطحية ، وانما ينبغي ان يتجه الى تقييم الاهتمامات الرئيسية ، ومظاهر السلوك وأهدافه والطابع العام الاعمق والنهايات الكبرى ، تلك ما ينبغي للمصنفين ان يضعوها في الميزان عندما يدرسوا حياة الناس وآثارهم كبشر لا بمخلوقات خرافية أو ملائكة سماوية ، وهذا التمييز بين ما هو رئيسي وثانوي وبين ما هو حقيقة جوهرية وعملية تحايل في سبيل الحقيقة هو الطريق الآمن السوي وسط الدروب المشبوهة الماكرة والمتاهات المظللة » .

ويعقب المقالح على مقدمة الزبيري : « ويبدو ان هذه الحيثيات التي لا مبرر لها في نظري لم تقنع خصوم الزبيري الشخصيين بل لقد فتحت الباب على مصراعيه امام اصدقائه المتحاملين » (١) .

ويضيف المقالح : « ان الفرق كبير جدا بين حافظ والزبيري فالاول قد تورط في مدح الانجليز كما حاول ان ينافس شوقي في الحصول على لقب شاعر القصر ، وهو لم يتصدر الحركة الوطنية في بلاده بل كان ينادي عن الحياة السياسية وفي آخر حياته بخاصة ، ومع ذلك فلم تمنع هذه المواقف الدرامية من ان يغدقوا عليه الالقاب ومنها لقب شاعر الشعب هذا الذي استكثره زيد الوزير على الزبيري » ! .

وعبد العزيز المقالح لا ينفرد بهذا الرأي فالباحث السوداني والناقد تاج السر الحسن يرى في مقابلة أجرتها معه « مجلة الكلمة » ان ما يميز الزبيري عن حافظ وشوقي والصافي ومحي الدين فارس هو المضمون الوطني الصارم لشعر الزبيري ووجوده على رأس الحركة الوطنية ومشاركته الفعلية في معارك النضال الوطني ضد الملكية الرجعية (٢) .

ويمضي المقالح قائلا : (لقد حاولت هنا ان اعرض لمدائح الزبيري من خلال رؤية فنية اجتماعية غير متأثر بمرافعة الشاعر عن نفسه ولا بآراء خصومه السياسيين الذين لا علاقة لهم بالادب ، والذين لم يدرسوا هذه المدائح بمقياس ظروفها وما أحاط بها أولا من تلقائية ، ثم ما اكتنفها ثانيا من مرحلية وتكتيك أو (تقية) بحسب تعبير ذلك الجيل ، وقد وجدت ان المبرر الفني يوازي المبررات السياسية والتاريخية) ، وسأتعرف لآراء الاخ المقالح بعد استعراض آراء زكي بركات لها في دراسته القيمة « الزبيري شاعر الحرية » .

اعتبر الجاوي الزبيري « شاعر الوطنية » وأطلق هذه التسمية على كتابه المكرس لدراسة شعره .

فهو يرى ان « **الزبيري** » **شاعر فحل** غني الصدر يملك ثروة عظيمة في التعبير لا تخونه القوافي ، ولانه شاعر من هذا النوع يجد القارىء نفسه ينساق في قراءة شعره حتى ما كان شعر المناسبات والمدح والذم .

ويضيف ان شاعرية الزبيري لم تأت صدفة فلقد ورث الزبيري من أسلافه تراثا عظيما فالشعر في اليمن فيما سمى

بـ « مرحلة الانحطاط » في الادب العربي كله لم يعان من هذا الانحطاط كبقية الشعر في البلدان العربية ٠

والجاوي في كتابه تناول الزبيري من الناحيتين السياسية والشعرية ويربط بينهما ربطا جدليا شأنه شأن كل من عبد الودود سيف (١) وعبد الله سلام ناجي (٢) ٠

فعلى النطاق الوطني يرى الجاوي ان (الزبيري سياسي صوفي) امتدت جذور التصوف الديني الى حياته السياسية و « انه في عقله الباطن يؤمن ايمانا لا جدال فيه ان شعر وحي وما دام كذلك فهو رسالة والرسالات لا تخطىء » (٣) ٠

ويجزم الجاوي بأن هذا الاتجاه ظل يتحكم في حياة الزبيري وعلاقاته بالحركة الوطنية اليمنية والشعب « فلم يستطع أعداء الزبيري وأصدقاؤه الا ان ينعتوه بـ «بالطيبة» ٠

ان صوفية الزبيري تكمن في حب الشعب وتأليهه بطريقة غير موضوعية :

وآمنت بالشعب حقا وقد رآه الورى جثة هامدة

ويصل الى قمة المثالية :

هو الشعب حقا شيئان صواب ورشد خطيئاته

ويؤكد الجاوي ان هذا الاتجاه أحد اسباب مقتل الزبيري (ان شاعرا يؤمن بالشعب بهذه الطريقة ويضعه في مصاف

---

(١) مجلة الكلمة ، العدد ، « نظرة في تجربة الزبيري الشعرية » ٠

(٢) مجلة الحكمة ، العدد ، « الواقع والانتماء في حركة الشعر المعاصر »٠

(٣) الزبيري شاعر الوطنية ، ص ٩٠ ٠

الآلهة لا شك وانه يتعامل دون حيطة مع كل فئات الشعب حتى الذين قتلوه » (٤) .

والجاوي وان كان له رأي مختلف في مقدمة الزبيري لديوانه ثورة الشعر عن رأي الاخ عبد العزيز المقالح الا انهما يتفقان تماما في الموقف من وثنيات الزبيري .

فالجاوي يرى ان مديح الزبيري للامام في محصلته النهائية دعوة الى الاصلاح وتنبيه للشعب الى ضرورته والمطالبة به .

ويشدد الجاوي على رفض الزبيري لكثير من مواقف حركة الاحرار اليمنيين وبعض الاخطاء التي وقع فيها بعض قادتها وفي المقدمة رفض ومحاربة الطائفية والعرقية والعلاقات المشبوهة ببعض الدوائر الاستعمارية (٥) .

وشيء اخر هو ان الزبيري حاول في شعره أو حتى في كتابته عن شعره ان يوجد وحدة عضوية بينه وبين انتاجه وعندما يروي تاريخه السياسي والوطني يرويه حسب تطور شعره شكلا ومضمونا ، الامر الذي يؤكد ان الاخطاء السياسية التي وقع فيها الزبيري لم تكن بقصد ، وعن سبق اصرار ، وانما نتيجة للايمان المطلق بوظيفة الشعر في الحياة اليومية .

وشعر الزبيري تاريخ كامل للحركة الوطنية في الشمال اليمني فلم يمر حدث الا ويؤرخ له شعراء ، لقد كان يعرف

---

(٤) المصدر السابق .

(٥) المصدر السابق .

جيدا أن قصائده كانت منشورات يتداولها الشعب ، وان كلامه كان سحرا •

الشيء الاهم في دراسة الجاوي هو تناوله الخصائص السياسية والفنية ذات الريحة اليمنية فقد تناول «الكاريكتور» السياسي في شعر الزبيري الذي رسمه للطاغية الحميذيين وزبانيتهم وأذنابهم •

ويضيف : « ان لشعر الزبيري نكهة خاصة يتميز بها دون غيره من الشعراء اليمنيين والعرب بشكل عام فهو سياسي رومانسي وصوفي سياسي ، ومن الصعب ان نجد له قرينا من الشعراء السياسيين في العالم العربي » •

وتعتمد صور الزبيري في شعره على احداث وقعت في اليمن بالذات ، احداث سياسية ووطنية في عهد الجلاديــن يحيى واحمد ولا نبالغ إذا قلنا ان كل هذا الظلم الامامي قد انتقل بتفاصيله الى ديوان الزبيري ، ويكفي ان يقرأ الانسان نبذة ولو بسيطة عن تاريخ اليمن الحديث ليتعرف بسرعة على الشاعر اليمني محمد محمود الزبيري •

ثمة أساليب كثيرة للتعبير عن الوطن والوطنية فيضطر بعض الشعراء الى ذكر اسم الوطن الذي ينتمون اليه أو حتى ذكر بعض معالمه ، مدنه وقراه ومنتزهاته او حتى بعض منتجاته المشهورة كالبن في اليمن ، وقد استخدم الزبيري مثل هذه الاساليب في جزء من قصائده الا انه ركز بالدرجة الاولى على الاحداث السياسية والوطنية التي لا يمكن ان تجري الا في اليمن الامامية •

الزبيـري وبـركـات

كان الاحرى ان أعنون في عرضي لتناول آراء « زكـي بركات » بعنوان « زكي بركات ونقاد الزبيري » وهو العنوان الفرعي الذي اختاره زكي بركات لاطروحته عن الزبيـري أو بالاصح عن نقاد الزبيري ٠

فباديء ذي بدء يتناول زكي آراء النقـاد في الزبيري ابتداء من الجاوي مرورا بالمقالح وانتهاء بالشهاري الذي بدى في كتابه « الثورة في الجنوب الخ » والمصاب بداء اليسارية المدمن كما لو انه يفهم الصراع الاجتماعي بأنه لا يعني الا الحقد على المواهب الكبيرة !٠

يناقش بركات الجاوي في مدى صحة التسميـة التـي أطلقها الجاوي على الزبيري « شاعر الوطنية » ويجزم بأن الجاوي لم يوفق في التسمية « العنوان » ، فالزبيري من وجهة نظر بركات لم يدخل في مواجهة مع الاستعمار البريطاني ولم يسجل الا قصيدة أو قصيدتين ضده وهو يرى ان التسمية قد استخدمت في معنى مغاير تماما « أي في مقارعة الامامة والتنديد بها » فبركات يرى :

« ان النضال ضد التدخل الاجنبي سواء كان ذلك التدخل مباشرا في صورة احتلال أم غير مباشر في صورة استثمـار وهيمنة سياسية وركائز محلية هو وحدة النضال الوطنـي ، اما نضال « الزبيري » ضد الائمة فقد كان نضالا سياسيـا اجتماعيا ، وليس نضالا وطنيا فالائمة بفسادهم باستبدادهـم

بانغلاقهم ، لا يشكلون ـ على أي حال ـ تدخلا أجنبيا (١) .

وعندما عرض أحد النقاد المصريين لجانب من شعر « شوقي بك » وأطلق تسمية « شوقي شاعر الوطنية » فانما عنى بذلك القصائد التي قالها شوقي ضد الاحتلال البريطاني لمصر ، وضد التدخل الاجنبي في بعض الاقطار العربية ، فعلى هذا الاساس جاءت التسمية . ومن المعروف ان « شوقي بك » وهو « ربيب القصر » لم يهاجم الحكم الملكي الفاسد في مصر .

ويخلص بركات الى بطلان تسمية « شاعر الوطنية » واصفا بديلا لها هو « شاعر الحرية » .

« اذ ان معظم شعر الزبيري يدور حول هذه القيمة الانسانية ، قيمة الحرية ـ وان كانت قد اقتصرت على قضايا الشعر الشمالي من الاقليم اليمني في نضاله ضد الاستبداد الامامي من اجل الحرية السياسية والحرية الاجتماعية .

ونود ان نناقش زكي في الحيثيات التي قدمها أساسا لدعم رأيه في حجب تسمية شاعر الوطنية عن الزبيري واستبدالها بـ « شاعر الحرية » .

ان بركات يدرك ان البلاد كانت شبه مستعمرة فاستعمار الشطر الجنوبي في الوطن لا يعطي الشمال الواقع تحت الكابوس الامامي المعنى الحقيقي للاستقلال هذا من جهة ومن جهة اخرى فالزبيري كانت القضية العربية والقومية احد ابعاد

---

(١) مجلة الثقافة الجديدة .

شعره بل والعالم الاسلامي .

فقد وقف الزبيري الى جانب نضال الامة العربية ضد الاستعمار والرجعية ، ان ملحمته الخالدة « من احرار اليمن الى احرار العراق » وتتكون من مائة بيت لهي خير دليل على ذلك .

فالزبيري مثله مثل الشعراء الوطنيين والتقدميين العرب قد وقف الى جانب الحركة الثورية في الوطن العربي ، فقد كتب القصائد عن فلسطين والثورة المصرية والجزائرية ، وفي وقت أدان فيه الحلف الثلاثي ووقف الى جانب البرلمان السوري ضد الاستعمار الفرنسي ودعى الى وحدة عربية تقوم على أسس ديمقراطية سليمة وقد أورد الزميل أمثلة كثيرة من ذلك .

أما من الناحية الوطنية ففي اعتقادي ان القضية لا ترتبط بقلة قصائد الزبيري أو كثرتها في هذا الصدد وانما تقوم على أساس فهم طبيعة المرحلة الوطنية لليمن كلها بعيدا عن التجزأة للقضية من جهة والى صداها في تجربة الشاعر نفسه وعموما فقد سجل الزبيري في بعض قصائده على قلتها موقفا حازما ضد الاستعمار والتدخل واستحق لقب الوطنية وفي نفس الوقت ايضا « شاعر الحرية » لتغنيه بها ونضاله من اجل تحقيقها . وفي نظري ان البحث عن التسمية ومبررات اطلاقها ليس بالشيء الكبير الاهمية .

وزكي بركات لا يتفق اطلاقا مع رأي الشهاري والبردوني حول موقع الزبيري من حركة الاحرار وتحديد موقعه الاجتماعي

فزكي ـ وهو على حق الى حد بعيد ـ يرى ان الزبيري ليس صورة طبق الاصل لحركة الاحرار فهو بمقدار ما يأخذ منها صفتها العامة « الدستورية الاصلاحية » يتميز عنها في اشياء اخرى تتصف بالاتساع أليس في الرؤية على المستوى المحلي ، والعربي وبالثبات بعد خروجه من عدن عام ١٩٤٤ ، وبحساسية نضالية صادقة مع نفسها نابعة من تكوينه الثقافي « الهجين » وشاعريته المرهفة ونزعته الصوفية (١) .

ويجيب بركات في شكل تساؤل على احكام الدكتور الشهاري الجائرة في الزبيري وهي الاحكام التي أطلق عليها الجاوي بحق « مرض الطفولة الشهاري » :

« هل كان الزبيري ممثلا للاقطاع ؟؟ » .

« هل كان الزبيري طائفيا ؟؟ » .

« هل كان الزبيري اقليميا ؟؟ » .

« هل كان الزبيري متورطا مع الانجليز ؟؟ » .

وهي التهم الخطيرة التي تبرع بها الدكتور الشهاري للزبيري في كتابه الميت الذكر « الثورة في الجنوب والانتكاسة في الشمال » .

وبرصافة موضوعية وأمانة أدبية يتصدى زكي لدعاوي الشهاري مبرهنا ان الزبيري قد نذر حياته للنضال ضد هذه الامراض الخطيرة وصدق شعبه ما عاهده عليه .

فعلى النطاق الوطني تغنى الزبيري بالشعب وقدسه حتى بلغ حد التأليه :

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٧ .

هو الشعب حق شيئاته   صواب ورشد خطئان

وناضل أدبيا وسياسيا وعمليا لاسقاط نظام الامام واستبداله بنظام يمثل الشعب على أسس ديمقراطية سليمة

ـ ٢ ـ يقول الزبيري :

إننا نريد ان نتحرر من العبودية الاجتماعية الكامنة في بعض التقاليد الرجعية والفوارق التي تميز بين طبقات الشعب وفئاته تمييز الا يقوم على أساس من المنطق والحق (١) ويذهب الزبيري الى أبعد من ذلك حين يعترف بحقيقة علمية مفادها : ان الحلم الديمقراطي السليم لا بد ان يتيح للاكثرية الكادحة ان تختار طريقها الحتمي طريق الاشتراكية حيث يقول : وحين يحكم الشعب نفسه حكما ديمقراطيا سليما ، ستكون لكل فئة من فئات الشعب فرصة عادلة للتعبير عن وجهة نظرها والمطالبة بحقوقها .

ولكن البروقراطية النزيهة السليمة في عهد ثوري نظيف ستتيح للاكثرية الكادحة ان تختار الاشتراكية نظاما اقتصاديا يجعل العدالة والحرية والمساواة والوحدة القومية حقيقة واقعة لا كلاما ضائعا في الهواء (٢) .

وعلى النطاق القومي فقد تغنى الزبيري بالقومية العربية ونادى بقيام تلكم الوحدة وشارك كل الشعوب العربية أفراحها وأتراحها في النضال ضد الملوك الخونة والاستعمار :

---

(١) الزبيري خطر الامامة على وحدة الشعب اليمني .

(٢) الزبيري مأساة الواق الواق .

ان العروبــة جسـم ان يئـن به
عضو تداعت له الاعضـاء تنتقـم
ان يضطهـد بعضه فالكل مضطهد
أو يهتضم جزؤه فالكل مهتضيـم

ويقـول :

صفقي يـا عروبـة النيـل هـنا
موكـب صفقت لـه الحادثـــات
واطمئني على العروبـة اذ هبـــت
وهبــت آدابهـــا العـاصفـــات
واعلمـي انمـا العروبــة نـــار
أججتهــا آمـالهـا الثـائـرات

ويعرج بركات على النقاد وتقسيماتهم لمراحل تطور شعر الزبيري لكي يقف على قصائد المدح والمبررون ٠

فهو يرى ان الجاوي في تبريره لقصائد المدح بأنها قد عبرت ـ على كل حال عن حب الزبيري للشعب وان خضوع هذا الشعب للحكم المتوكلي هو الذي « ساق الزبيري الى مدح الحكام في بعض الاحيان لان الشعب يريد ذلك » لم يقل الا نصف الحقيقة فقط ٠

ويرى بركات ان عبد العزيز المقالح هنا كان زبيريا اكثر من الزبيري نفسه !٠

« فهو أي ٠٠ المقالح » يستغرب ان يدين الزبيري نفسه ويسمي أي الزبيري قصائد المدح بـ « القصائد الوثنية » في مقدمته لديوانه « ثورة الشعر » ويستغرب تبرير الزبيري

لتلك القصائد فهي ـ في نظر المقالح ـ ليست بحاجة الى تبرير ـ .. لانها قصائد تصور احوال الشعب وتخفي في باطنها سخط وألم الشاعر حتى ليبدو الشاعر فيها وكأنه لا يمدح بل يأمر . انه لا يستجدي الاصلاح والتغيير بل يطالب بهما بالحاح ، لذلك فان الزبيري في مدحه يذكره ـ على سبيل المثال ـ بالمتنبي « الذي يؤكد وجوده دائما ازاء ممدوحه » ذلك لان الزبيري في مدح الامام « كان يحاول ان يؤكد وجود الشعب ازاء هذا الحاكم « الباطش » وهي خطوة اولى نحو تحويل الشعر كله للشعب » .

ويعقب بركات « واذا كنا نتعاطف مع الزميل عبد العزيز المقالح ونشاطره الحب والتقدير للزبيري الشعر كله للشعب » ونعمل معا على رفع الظلم عنه ورد اعتباره بمقاييس « الحقيقة الموضوعية » الا اننا لا نستطيع ان نجاريه الى هذا الحد في مسألة « قصائد المدح » هذه ولربما وجدنا في اقواله هو الاخر الحقيقة .

ويرى زكي ان كلا من المقالح والجاوي قد تأثر بتبريرات الزبيري اضافة الى حماسها المعروف له ، ويحدد هو وجهة نظره في :

١ ـ لقد مدح الزبيري الامام يحيى في بداية الامر مدحا صادقا ومخلصا باعتباره « البطل القومي » ثم اضطر الى مدحه بعد ذلك كوسيلة اخيرة لقيام الاصلاح على يديه .

٢ ـ بعد ان يئس من الامام يحيى اتجه لمدح ولي العهد احمد وكان صادقا مخلصا في مدحه .. فهو في نظره البطل

المؤمل وليس كما قال المقالح « الحاكم الباطش » .

٣ – فالزبيري اذن لم يمدح لان الشعب كان يريد ذلك فقط ولم يمدح ليهجو و (وبتكنيك) فقط .. لقد مدح بصدق وباخلاص ايضا .. وهذا هو نصف الحقيقة الضائع .

٤ – ولم نكن نريد من الزبيري ان يبرر مدحه فنحن لا ندينه ولا نملك الحق في ادانته لاننا نعرف ظروف تلك الفترة تماما ، ونعرف ايضا نزاهة الزبيري ، وبالمقابل ولهذه الاسباب لا نريد من أنفسنا ان نكون مبررين فنشتط ونحمل الاشياء اكثر مما تحتمل .. وبدون مبرر !

٥ – لنتمسك بحقائق موضوعية عند الزميلين المقالح والجاوي كان يجب ان تكون منطلقهما بدون حاجة الى مبررات.

لنقل مع الجاوي « من الصعب جدا ادانة الزبيري فهذه ثقافته وهذا فهمه » ولنكمل ذلك لابن من الاكمال بقول المقالح لا بد من دراسة تلك المدائح « بمقاييس ظروفها وما أحاط بها » ونقف عند هذا الحد ولا نواصل معه ما يعقب هذه العبارة الصحيحة من تبرير « نصف صحيح » ولنستمع جيدا لقول الزبيري ان الشعب كله كان يقدس هؤلاء الحكام وكان كل من يملك شعرا ونثرا لا يكاد يقدمه الا مدحا للامام او نجله .

وليس من فرق بيننا وبين الكثيرين الا اننا تغيرنا ولم يتغيروا وثرنا ولم يثوروا وقدمنا حياتنا وشبابنا قربانا في سبيل الحق ومن اجل الشعب » (١) .

---

(١) الزبيري ثورة الشعر ٣٧ .

نعم ليس المهم أن يمدح الزبيري ولا أن نبرر مدحه في تلك الظروف •

المهم في نظرنا ان الزبيري قد تغير عندما تغيرت الظروف في حين بقي البعض من المتخاذلين واصحاب المصالح الذاتية يراوحون في مكانهم على الرغم من تغير الظروف واتضاح طغيان وفساد الحكام (٢) •

ونحن لا نرى في الحقيقة في وجهات النظر الثلاث أية خلاف عند الدراسة ولكن ما الذي يمنعنا ان نقول ان هذا المديح في محصلته النهائية وفي دلالته العامة دعوة للاصلاح وتنبيه اليه خصوصا اذا كانت النماذج ليس لها ما يبررها خصوصا المتأنية والمتمعنة كلنا متفقون على مدح الزبيري للطاغية يحيى وابنه الجلاد احمد وهو يؤكد على صدق عاطفة الزبيري في الطاغية يحيى وابنه احمد في المراحل الاولى ما الذي يمنع ان تكون هذه القصيدة أو تلك مديحا للطاغية في دلالتها ولكنها ايضا تحتوي على عناصر الدعوة للاصلاح وتحسين احوال الشعب والوطن خصوصا اذا كان هذا الشاعر من طراز الزبيري الا ان هذا لا ينفي دراسة الاخ زكي بركات اتسامها بالرصانة وتوخي الدقة والموضوعية الى حد بعيد •

وتبرير منهجية الاخ زكي بركات بصورة خاصة في تقسيمه لمراحل تطور شعر الزبيري من الناحية المضمونية على الاقل فقد ركز زكي بصورة واضحة على القضايا السياسية والمضمونية ولم يتعرض للنواحي الفنية الا عرضا ، وقد

---

(٢) الزبيري شاعر الحرية مجلة الثقافة الجديدة السنة الرابعة عدد ابريل

تعرض بتوسع لاشكال الاستبداد الامامي في شعر الزبيري ، وهو يرى ان شعر الزبيري يشكل وثيقة تاريخية هامة تطرح امام الباحث واقع « الحكم المتوكلي » في اليمن بكل طغيانه وقساوة بطشه وقهره الاجتماعي (٣) .

وهناك آخرون تناولوا شعر الزبيري أمثال الاخ عبد الودود سيف « نظرة في تجربة الزبيري الشعرية » كما تناول جوانب معينة في شعر الزبيري الاخ عبد الله سلام في دراسته « الواقع والانتماء الفني في حركة الشعر اليمني » وكتب كثيرون عن الزبيري ولكنها لم تثر قضايا خلافية كما هو شأن دراسات البردوني والمقالح والحاوي وبركات .

---

(٣) المصدر نفسه ، ص ٥١ .

الزبيري بين الدين والثورة

محمد الشرفي

ولد الشهيد محمد محمود الزبيري في صنعاء في بيئة دينية وأسرة محافظة وقد عرف عنه منذ صباه الذكاء الحاد والبديهة المؤاتية والقدرة على استيعاب كلما يقرؤه بفهم وعمق فلم يبلغ الثانية عشرة من عمره الا وقد حفظ القرآن عن ظهر قلب بقراءتي حفص ونافع ·

وقرأ واطلع على كثير من كتب الادب والتأريخ والبلاغة فلم يبلغ السابعة عشرة من عمره الا وهو من العلماء النوابغ ·

وقيل انه بدأ قول الشعر وهو في العاشرة من عمره ·

وفي عام ١٣٥٧ هجرية سافر الزبيري الى مكة لاداء فريضة الحج والتحق هناك بدار العلوم القاهرية ·

وقد أتاحت له رحلته الى القاهرة الفرصة لان يطلع على الجديد في الادب والشعر والحياة الادبية الحديثة ، كان لها التأثير الكبير على عبقريته الشعرية ، اذ رجع الى اليمن قمة

الشعب ، سبتمبر ، ١٩٦٩ ·

في التجديد الادبي فما ان أحدث ثورة كبيرة في تاريخ الادب اليمني حتى ارتاع لها مجتمع صنعاء المنغلق ، كما ارتاع لها اكثر الامام يحيى حميد الدين وحاشيته ، كما أتاحت له هذه الرحلة ان يلم بالكثير من افكار جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده ومحمد رشيد رضا وغيرهم .

ونزوع الزبيري المبكر للحج دليل على قوة روحه المتدينة وتأثير الدين القوي على نفسه ، كما ان التحاقه بدار العلوم القاهرية دليل اخر على نزعته الدينية وطموحه الى الاستزادة من العلم والمعرفة بقدر الامكان ، الا ان ذلك كان عاملا هاما في تغيير مجرى حياته الصوفية التي يصفها لنا في كتابه « ثورة الشعر » .

فقد وجد هنالك في القاهرة بداية العصر الحديث والعالم العربي يزخر بالتيار الوطني ويلهج بالوطنية والتحرر من الاستعمار ويطالب بالتخلص من أوضاعه البالية ، وينادي بالثورة على كل قديم واستبداله بالجديد في كل مجالات الحياة ، بينما وجد نفسه يعود الى اليمن في جو مشحون بالتعصب والانغلاق معصب العينين عن كل جديد ، وهنالك الامام يحيى حميد الدين يشيع جوا من الرعب والارهاب ويرسي دعائم عرشه بشتى وسائل الطغيان .

اذن كيف بدأ الشاعر الزبيري حياته ؟
وكيف تطور حتى أصبح شاعر ثورة وزعيم شعب ؟
يصف نفسه في بداية مراحله الاول فيقول :

« بدأت حياتي طالب علم ينحو منحى الصوفية في

العزوف والروحانية ، وتعشقت هذا اللون من الحياة رغم اليتم والشظف والقلة ونعمت به كما لم أنعم بشيء اخر بعد ذلك •

ولم يستطع ان ينتزعني من هذه الاجواء غير نشدان الشعر والادب وتعشقت الحياة الادبية وهمت بها هياما ولم تصدني عن التفرغ لها الا المعارك النضالية السياسية التي تمخضت عنها « الحياة الادبية » •

من هذا نعرف ان اصل تكوين الزبيري ديني محض ليس له أي اتصال بالسياسة أو المجتمع أو الحديث عنهما بشيء لولا شيء واحد هو الشعر •

ولقد ظل مرتبطا اخلاقا وسلوكا بأصول تكوينه طيلة حياته الا انه ارتباط ثوري خلاق موصول بمأساة الشعب وحياة الجماهير •

لقد خرج الزبيري من روحانيته الصوفية بفعل الشعر وعبقرية الشاعر الى صوفية الحياة الادبية التي هام بها هياما كما يقول ، الا ان الحياة الادبية زجت به في معارك سياسية عنيفة •

وبالرغم من ذلك فالشعر اولا والسياسة ثانيا ، لم يقضيا على روحانيته كعالم ورجل دين ولم يتغلبا على شعره كشاعر مبدع وواجهة ناصعة للتجديد في الادب اليمني •

بل لقد عاش كما يعيش المتدين والشاعر والسياسي تتجاوب في اعماقه هذه الثلاثة الاشياء الدين الشعر والسياسة

ومضى بها أو مضت به في طريق واحدة هو طريق النضال والثورة .

ان صوفية الزبيري الدينية الاولى أثرت فيه تأثيرا كبيرا جعلته بفعل الشعر وعبقرية الشاعر يبحث عن صوفية اخرى من نوع اخر تكون لها نفس القوة ونفس الروح يطمئن اليها وتطمئن اليه يهيم بها وتهيم به فوجد في الشعر زاوية صوفية رائعة تمده بابعاد الخيال وأعماق الوجود وسرائر الحياة حتى لكأنه في هذه الزاوية الجديدة المبدع الخلاق يبدل ويغير ويفعل بالوجود المعجزات ، بطاقة لا تقهر وقوة لا تستكين أو تهون .

قوضت بالقلم الجبار مملكة
كانت بأقطابها مشدودة الطنب

فان فشلت ولم انهض بدولتنا
الكبرى لشعبي ولم أظفر بمطلبي

فسوف أبني له مجدا من الادب
العالي يبوؤه في أرفع الرتب

الا ان الشعر مهما بعدت أخيلته وتنائت مراميه لا يزود النفس المبدعة والروح الفياضة بما يشبع نهمها ويروي ظمأها ما لم يتصل بالحياة الواسعة العريضة يأخذ منها ويعطيها وما لم تقوض ممالك للطغيان وتنهض بدولة الشعب الكبرى .

وهكذا وجد الزبيري نفسه مرة اخرى ينتقل بصوفية الشعر الى محراب الشعب يقدسه بلا حدود ويهيم به أشد الهيام يصلي للثورة الكامنة في أعماقه ويتبتل للكرامة النائمة بين جوانحه يضوع اليه ان يثور ويدعوه بدموعه وقلبه ان

يستيقظ . كل هذا والشعر حسامه الصارم في وجه الطغيان ومحكمته القاسية التي لا ترحم .

علت بروحي هموم الشعب وارتفعت
بها الى فوق ما قد كنت أبغيه

وخولتني الملايين التي قتلت
حق القصاص على الجلاد أمضيه

عندي لشر طغاة الارض محكمة
شعري بها شر قاض في تقاضيه

ادعو لها كل جبار واسحبه
من عرشه تحت عبء من مساريه

يحني لي الصنم المعبود هامته
اذا رفعت له صوتي أناديه

وشر هول يلاقيه ويسمعه
صوت الملايين في شعري تناجيه

وهنا استعاض عن صوفيته الانعزالية المتأرجحة بين صوفية الدين وصوفية الشعر بصوفية الثورة الصاخبة الهادرة .

واذا به في محراب الشعب يعالج مأساة الملايين فيه بروح التصرف الخاشع في محراب أم تحس الدموع والالم والجراح تنساب في كل حرف من كلماته وتحس بروحه تسيل وتتدفق على كل قطعة من شعره أو نثره .

وكتابه « مأساة واق الواق » يدلنا على ما لديه من طاقة ثورية عميقة ، وعبقرية أدبية رائعة ، وصلاة خاشعة في محراب الشعب المعذب .

ان الدين هو الذي طبع في الزبيري روحه المخلصة الصادقة وهو الذي غرس في نفسه الصدق والوفاء والتضحية ازاء أمته وبلاده حتى أصبح لا يساوم ولا يجامل ولا ينحرف قيد شعرة عن اتجاهه الشعبي الخالص منذ بدأ حتى انتهى ٠

وكما ان الصوفي ينقطع الى الله انقطاعا كاملا يقنع من دنياه بما يسد الرمق ولا يهتم من مغريات الحياة بشيء يخلص روحه لله وحده ، وحسبه انه يناجيه ويتبتل اليه ليله ونهاره٠

فكذلك كان الزبيري مع الشعب ، أعرض كل الاعراض عن نفسه وعن الحياة وكرس كل دقائق حياته للشعب وللشعب وحده ٠

وفي الوقت نفسه فالله جل وعلا هداه ورشده وهو قواه الروحية المندفعة دائما الى الامام الا انه لم يؤمن بأن الله وحده هو الذي يجب ان يخلص بلاده من جبروت الطغيان وسياط الظالمين فايمانه ليس ايمان العجائز لان لكل تغيير أسبابا ومسببات ولكل تحويل او تبديل نتائج ومقدمات ٠

والشعب لو كان حيا ما استخف بـه
لص ولا عـاث فيـه الظالـم النهـم

فدين الزبيري دين الاحرار الثوار لا يبتهل الى الله أن يستقص للشعب من ظالميه ولكنه يبتهل للشعب ان يستقيظ ويثور ٠

صنعاء ويحك ما للظلم قـد رسخـت
أثامـه فيـك واستشرت خطايـاه

وسعت صدرك للطغيـان يصنـع مـا
يهـوى وعينـك تحميـه وترعـاه

لان الله كما يقول ـ الذي خلق الشعوب وخلق الطغاة معا قد فرض على الناس حتى الانبياء منهم ان يناضلوا حتى الموت في سبيل مبادئهم ٠

والارض للـه لا يلقـي مقادتهـا
للعاجزيـن ولا يعطـي الاذلينـا

وفي مقدمته لاحدى قصائده يضرع الى الله ان لا يرسل الصواعق ولا يفجر البراكين على الطغاة ، وانما يضرع اليه ان يبعث الكرامة النائمة في نفس الشعب ليثأر بنفسه مـن جلاديه ويخلص بيده أوضاعه من ربقة العبودية والاذلال ٠

ـ وهو في قصيدته بمناسبة العيد الاول لباكستـان ـ أثناء غربته ، لم يقل ان اضطهاد الشعوب قضاء وقـدر وان تحررها قد يكون بمعجزات سماوية وآيات كونية انما يقول :

يوم من الدهر لـم تصنـع أشعتـه
شمس الضحى بل صنعناه بأيدينـا
قد كونتـه الـوف مـن جمـاجمنـا
وجمعتـه قـرون مـن مـآسينـا

وبعد عودته من الباكستان المسلمة بعد تحررها من حكم الهند على يد قائدها محمد علي جناح ينادي شعبه اليمني المسلم ليقول له ان السماء لا تحرر الشعوب بقدر ما تحررهـا دماء أبنائها وتضحياتهم الهائلـة ولا يمكـن ان تنقذهـا الدمـوع والاستكانة من بطش الجبارين ٠

يا شعبنا نصف قرن في عبادتهم لم يقبلوا منك قربانا تؤديه
رضيتهم أنت أربابا وعشت لهم تنبلهم كل تقديس وتأليه
لم ترتفع من حضيض الدق ولم تدق راحة مما تقاسيه
ولا استطاعت دموع منك طائلة تطهير طاغية من سكرة التيه

فالدين مهما قيد الزبيري بنواميسه وروحانيته الناتجة عن صوفيته العازفة عن الحياة والمجتمع في بداية تكوينه الا انه هو الذي أنار له طريق الحياة النبيلة الصادقة الصافية فيما بعد .

تلك الطريق التي تتجلى فيها الانسانية بمعانيها الرائعة ومثلها العليا التي يرتفع بها الانسان الى مستوى الانسان العظيم فينفخ في الحياة كلها روح العزة والكرامة ، ويخلق فيها النبض والشعور والاحساس .

واذا به بروحه الانسانية تكسر الحواجز الحياتية العادية وتتخطى الاهواء والنوازع البشرية فتشمل حياة الناس وحياة المجتمع بجناحين من الطهر والصفاء والجمال .

لهذا فان الزبيري الذي أخذ الدين بفهم وعمق وعرف فيه ثورة القرآن وثورة محمد بن عبد الله على الطغاة والظالمين لم يكن كأحد افراد جيله من العلماء الراضين لما يدور حولهم من تشويه لقدسية الحياة وتحد لنواميسها العادلة .

فلقد عرف كيف يستخدم الطغاة دين الله ولاي غاية يتوسلون به فاذا هو في قصورهم نعيم ورفاهية وعبث وهو في الشعب جوع واستعباد وفقر ومرض .

ولهذا فقد اندلعت طاقة الزبيري الروحية في محراب الشعب قوية جبارة تعري فساد الائمة وتفضح دينهم المزيف وتكشف للشعب ما هو فيه من الجهالة والضلالة ٠

ليس في الدين أن نقيم على الضيم ونحني جباهنا للدنية
ليس في الدين أن نؤله طغيانا ونعنو للسلطة البربرية
ليس في الدين أن نقدس جلادا ويمناه من دمانا روية

وطاقة الروح أقوى من أي طاقة أخرى ، تختصر الابعاد والمسافات وتذللها تذليلا ، وذلك سر استمرار الزبيري في اخلاصه للشعب وسر استمرار حرارة الثورة وقوتها واندفاعها في نفسه منذ بدأ حتى انتهى ٠

وطاقة الزبيري الروحية هي كانفراده بالزعامة الروحية للشعب لانه اتصل به اتصالا روحيا اولا وقبل كل شيء ٠

والاتصال الروحي بالشعوب هو الذي خلق الزعامات عبر التاريخ ٠

وهو الذي يجعل الزعيم الرائد يعيش مع الشعب كالشعب ، عاريا أو جائعا ، متألما أو ناعما مرفها ٠

وحتى حين يرى الزعيم الروحي الشعب قد مارس الظلم والعبودية والاذلال حتى استكان وذل ولم يعد يحس أو يتألم ، فان مأساته تكون أعمق أثرا وأشد ضراوة على نفسه وعلى روحه لانه في الوقت الذي للشعب الآمال العريضة والمستقبل الكبير اذا بالشعب لم يزل تحت سلطان الظلام والجهالة بعيدا عن احساسه بمأساته والاحتراق بآلامه ، وهذا ما كابده

الزبيري وعاناه مع شعبه الا ان ايمانه بالشعب كقوة جبارة لا تفتأ ان تنفجر بالحمم والبراكين ٠

ان اتصال الزبيري الروحي بالشعب وفهمه لطبيعته والظروف القاسية التي حجرته وجمدته كل هذا جعله يمضي في طريق النضال الشاق باصرار وعزم قويين لا تزيده روح الشعب الا استمرارا لاحتضان الملايين الكادحة بقلبه وروحه احتضان الام الحانية الحريصة لوليدها الصغير ٠

هو الشعب حق مشيئاته صواب ورشد خطيئاته
له نبضنا وأحاسيسنا فما نحن الا نباتاته
له دمنا وله دمعنا يغذى عليه ويقتاته
يحطم بالموت زهر الحياة منا لتصلب شركاته

وبالرغم من أن الزبيري بقي كبير الصلة بربه وثيق العرى بخالقه يفزع اليه عند البلوى ويقرع اليه عند الشدة الا ان بلواه وشدته هما ما يقاسيه الشعب من نكبات وما يكابده من المصائب على أيدي حكامه المنحرفين ٠

فهو عندما يناجي ويبتهل اليه لا يتمثل امامه الا مأساة بلاده ولا يتصور الا عذاب وطنه فصلاته دموع الشعب ودعاؤه ضراعة من اجل الشعب ٠

فهو مع شعبه عندما يكون مع ربه وهو مع ربه عندما يكون مع شعبه ، مخلص في اداء واجباته الوطنية كما هو مخلص في واجباته الدينية ٠

انه لم يقصر في حق خالقه عليه بل انه وفاه كل حقه بجهاده الدائم ونضاله المستميت من اجل تخليص عباد الله من

الكادحين من ضراوة الجائرين وبطش الظالمين ·

وهو عندما تأتي المناسبات الدينية لا يفتأ ان يتذكر مأساة بلاده فيضج لما بها من آلام وما في حناياها من ويلات ·

سيد المرسلين قم وانظر الامة ماذا يصيبها من شقاء
وتأمل كم في الكواهل من نير وكم في الرقاب من أعباء
أنبت الدهر في مضاجعها الشوك فلم تلق راحة في وطاء
وتولى شؤونها وحش مرهف الناب مولع بالدماء
يأكلون الدنيا باسمك مكرا واختداعا للسذج الاغبياء
ويعدون غشهم للملايين مرانا على فنون الدهاء

وانه لمما يميز الثوار الحقيقيين عن غيرهم هو ذلك الزخم الثوري الصاخب الذي يمتد على طول وعرض حياتهم فنجدهم يقضون ايامهم ولياليهم غارقين في حيوية ثورتهم وفي قمة نشاطهم الثوري ، مندفعين وراء مبدأ معين ، وهدف واحد ، يعالجون بشتى الوسائل ومختلف الطرق ، يضعون لكل مرحلة قياسها العادل ، وينصبون في كل طريق السلم الطبيعي الذي يعبرون عليه ·

ثورة دائبة ، خطى ثابتة ، فكر مستنير ، عمل هادىء ، عمق في الاحساس وفهم لكلما يحيط بهم من ظروف وملابسات·

الا انه بالرغم من كل ذلك فلكل ثائر ظروفه المرتبطة به ابعادا وآفاقا ولكل مناضل بيئته وواقعه المتحكمان فيه ، وفي اخلاقه وسلوكه وتصرفاته العامة ·

وما يهمنا ويهم الشعب ان الثائر بدأ واستمر فيها حتى

النهاية لم يخادع ولم يتجر بقضية وطنه ولم يساوم في حق من حقوق الشعب ٠

وحسبنا من الثائر انه استمر ثائرا رغم تعقيدات الحياة وتناقضات المجتمع ، بل حسبنا من الثوار انهم تحملوا ظروف كفاحهم وثبتوا على مبادئهم وصبروا على مواجهة ما في كفاحهم من تحديات ومتاعب كما كان الزعيم الثائر الزبيري ٠

وآمنت بالشعب يوم جثا امام الطغاة على ركبتيه
ويوم انبرى في ذهول الهوان يرمي مكاسبه من يديه
ويوم مددنا شعاع الصباح له فانزوى وحمى مقلتيه
ويوم عصرنا رقاب الطغاة وسقناهم كالجواري اليه
فأطلقهم من هوان الاسار ذئابا علينا صلالا عليه

(وأخيرا) :

فاننا حيثما فتشنا عبر التاريخ اليمني قديمه وحديثه وأينما بحثنا عن ثواره واحراره فلن نجد الصورة الزاهية المتكملة الجوانب والواضحة الخطوط والالوان كالصورة الناصعة التي تتجلى في شخصية الزبيري ٠

وقد نجد من يتحدث عن الشعب ومأساته بتفاصيلها الكبيرة منها والصغيرة وما فيها من سهول ومنحدرات ، وما تشتبك خلالها من تضاريس ومنعطفات ، الا اننا لا نجد فيه روح الزبيري الثائرة الصادقة ، الصافية المخلصة ، تلك الروح التي تتدفق كالسيل نقية عندما تشرح مأساة الشعب ودموعه وجراحه ، وتتفجر كالجحيم وكالعواصف عندما تخاطب الطغاة والجلادين ٠

أيها الظالم الذي يتبـاهـى انه ابن الوحي أو سبط طه
تشهد الناس يركعون حواليك دهورا ويخفضـون الجباهـا
تتوخى بأن تكون شريك الله فيهـم أو أن تكـون اللـه
لا تبالي سمعت انغام موسيقى تغنيـك أو سمعـت الاهـا
واذا جئت للمصلـي رأيناك نفـاقـا مـوحـدا أواهـا
كلهـا لـذة الالوهية النكراء فـي سمتهـا وفـي معناهـا
ان تكـن انـت مؤمنـا بآله فلمـاذا تكون انـت الالـه

نماذج من كتابات الشهيد الزبيري
التي لم تنشر من قبل

من نحارب ·· ومن نسالم ★ ؟

·· يوجد في تكتيك كل الاحزاب والمنظمات والـدول أسلوب مدروس للتعاون أو عدم التعاون مع كل عنصر خارج الحزب أو المنظمة أو الدولة ·

·· والتعاون درجات متفاوتة يبلغ بعضها الى حد التشابه في المبادىء والمحالفة والاتحاد في جبهة ·· ويقف البعض الاخر في حدود المواقف السلبية والكف عن الالتحام في حزب · كما أن عدم التعاون درجات كذلك ، تبدأ من المقاطعة فالتراشق بالكلام فالحرب ·

نماذج من تجارب التاريخ

لا بأس أن نستعرض تجاربنا نحن وتاريخنا ·· اننـا نتذكر جيدا أنه كان لدينا قاعدة مقررة استلهمناها من تكتيك الحرب الثانية ، فلقد وجدنا من أبرع الخطط التي نجح بها هتلر نجاحا رائعا هي تركيز المعركة في جانب واحد من جبهة

★ من الوثائق الخاصة بالاستاذ الزبيري التي لم يسبق نشرها ·

الاعداء العريضة ، فكان يبتلع الدول ، دولة دولة في أوروبا ، وكان هم الانجليز أن يفتحوا للالمان عدة جبهات • وكل انتصارات هتلر الرائعة تمت في الوقت الذي كان ينجح فيه بتوحيد المعركة ، فلما نجح أعداؤه في فتح الجبهات عليه بدأ الانهيار •

فبدأنا ونحن في عدن على اساس من هذه القاعدة •• هجوم مركز على الامام « يحيى » فقط ، حتى ابنه « احمد » لم نكن نستفزه كثيرا في المرحلة الاولى •• فماذا كانت النتيجة ؟ ••

ارتاح لحركتنا أقرب المقربين الى الامام حتى أولاده وأسرته كلها ، وتجمدت قدرة الامام يحيى على البطش والحركة والمناورة ، فكل من كان الامام يستشيرهم أو يستعين بهم أو يبعثهم لمقاومتنا ، كانوا يغشونه ويعملون على دفع حركتنا اكثر مما كانوا يعملون على صدها أو حربها ، وما كانوا يأذوننا الا عندما يكلفون بتدابير معينة ومحددة من الامام نفسه •

لا ننكر أننا خسرنا الجماهير في المهجر التي تتعصب للامام ، فلم نستطع أن نتخذها قاعدة للدعوة ، ولكنا ما كنا نستطيع كسبها الا لو بدأنا وسالمنا الامام ، وهذا ما لم يكن في برنامجنا ، وقد فاتنا بسببه الكثير •

ومع ذلك فلنا في الداخل مكاسب بهذه الخطة ، فقد نطلقت حرب الاعصاب الى جانبنا من كل أسرة ومن كل شخص بارز ، وبالتالي امتد التأييد والرجاء في النطاق الشعبي العريض •

ماذا لو عكسنا الخطة ؟

لو أعلناها حربا على كل الفئات والشخصيات فلا ريب ان النتيجة ستكون العكس ٠٠ سنجمد أنفسنا ، ونطلق كل القوى في يد العدو ، ونصبح معزولين عن الجماهير وسائر الطبقات ، وستكون حرب الاعصاب في جانب الامام ضدنا تشهيرا وتحقيرا واشاعات لا نهاية لها ٠

وما كان لصوتنا أو دعوتنا ان تبلغ الى القبائل أو الجماهير في الداخل أو الفئات الاخرى الا مشوهة محرفة ، تزيد الامام قوة وحياة ، وتزيدنا موتا وتجمدا وتقضي على حركتنا في المهد ٠٠ تلك هي التجربة الاولى ٠

التجربة الثانية

في مصر استأنفنا نفس الخطة ، بل وبدأنا حتى بمجاملة الامام نفسه حتى اذا وضعنا أقدامنا على أرض صلبة كشفنا صفحتنا له وحده ٠

وعلى هذا الاساس نجحنا نجاحا كبيرا ٠٠ المفوضيات والمفوضون معنا في كل مراكز تحركنا ، يشجعون الطلاب ويؤازروننا في الاوساط العربية والدولية ، ويضللون الامام ، ويخدرون اعصابه ، ويشلون قدرته على مقاومتنا والنيل منا ٠

وانكسرت هذه القاعدة ، فانضمت الى الامام حفنة من المسؤولين وأفراد من جماعتنا ٠٠ ورغم ان الطلاب كانوا الى جانبنا فقد عجزوا عجزا تاما عن التحرك معنا بعد أن سل على

رقابهم سيف المرتبات ، ولم يتحرك معنا الا الفدائيون الذين قبلوا أن يبنوا رقابهم ذلك السيف الآثم ٠

وفي المحيط العربي حوربنا من هؤلاء المسؤولين المنضمين الى الامام ، فنجح الامام لاول مرة في مقاومتنا بأساليب بارعة٠٠ فقدنا أكبر قوة كانت معنا ٠٠ حوربنا في جميع الاوساط العربية والدولية ، حيث لا نستطيع نحن أن نرقى الى مستوى المسؤولين فندافع عن أنفسنا ٠

فقدنا صوتنا في « صوت العرب » وبهذا عزلنا عن الشعب بعد أن كنا قد دخلنا الى كل بيت وكل قرية ٠٠ توقفت « صوت اليمن » ٠٠ توقف نشاط المحاضرات في الاتحاد ٠٠ زود المنشقون بالقدرة على التحرك في محيط المهاجرين ، فتبلبل الاحرار واضطربوا ، وتبلورت قوى المنشقين في حزب جديد ٠

حاولنا التحرك في المهاجرين ، فحوربنا بشدة ، وطردنا رسميا ٠٠ كل ما في أيدينا الان هو الاستفادة من قوة الانطلاقة الاولى ٠

نقطة الضعف في خطتنا الاولى

ان امتداد العطف علينا في المحيط الواسع العريض يعتبر مكسبا هائلا ، كما رأينا ولمسنا ٠٠ ولكننا للاسف لم نستطع الانتفاع بهذا المركز الفريد الذي كنا فيه ، فقد كان همنا كله منصبا على المؤامرة وحدها ، وهذه هي نقطة الضعف ٠

ان العطف العام كالمادة الخام •• ماذا تجدينا كتلة ضخمة من الحديد ؟ انها ثروة لا شك فيها ولكنها لا تنفع ما لم نصهرها ونحيلها الى آلات وأدوات •• وكذلك شعبيتنا والعطف العام الذي كان ولا يزال معظمه معنا ، لا يجدينا ولم يجدنا في الماضي ، لاننا لم نحوله الى تنظيم عقائدي دقيق •

هذا هو موطن الخطأ وليست هي المجاملة والمسالمة التي انتهجناها •

لو جمعنا مع الشعبية الواسعة والفرص العديدة ومنطقة السلام العريضة ، تنظيما دقيقا للمؤيدين وحولناهم الى مؤمنين ، لكسبنا الكثير •

ولكن ••• هل كنا نستطيع ••؟ أما أنا فلا أظن ••• لاني كنت شخصيا أحس أن أعظم خدمة نقدمها لبلادنا هو نجاح مؤامرتنا في سرعة خاطفة ، لانها عرضت لنا فرصة لا تأتي في مئات السنين الا مرة واحدة ، وكنت أحس ايضا ان هذه الفرصة قد تفلت من أيدينا بين عشية وضحاها ، فهي فرصة غير طبيعية وشاذة ونادرة ••• آه لو وجدت هذه الفرصة بعد أن أتممنا مرحلة تنظيمية كافية ، لكنا اليوم قد نجحنا في مهمتنا نجاحا ساحقا •

دروس من هذه التجارب

أولا ‥ تحديد الاخطاء

١ ـ أثرنا عداءات حاقدة شخصيا ، فعملت مع الامام عمل المجند المنظم المؤمن قبل أن نكسب نحن عضوا واحدا مجندا ، فتغلبت حفنة مجندة مع الامام على كل ما لدينا من شعبية واسعة مائعة ٠

٢ ـ أهملنا التنظيم الحزبي ، فعجزنا عن الاستفادة من شعبيتنا التي لا تكاد تتمتع بمثلها هيئة اخرى ٠

٣ ـ خسرنا ولم نحاسب أنفسنا على الخسارة ، ولم نحدد نوع الخطأ ، فتخبطنا وأوشكنا على ارتكاب أخطاء أخرى ٠

ثانيا ‥ حقائق تعلمناها :

١ ـ اليمنيون تشملهم أشياء عامة ، وتأييد للقضية ، ولكنهم سلبيون وغير مؤمنين ولا يعملون أي شيء ذي بال تعبيرا عن أشيائهم ٠

٢ ـ اليمنيون لا يعملون الى جانب الامام الا حينما يغضبون لانفسهم ويستفزهم الاحرار ، أو حينما تصدر اليهم أوامر صارمة محددة لا يستطيعون المماطلة فيها ولا التحوير ٠

٣ ـ لا نستطيع ان نسترجع الفرص التي ذهبت ، لا صوت اليمن ، ولا صوت الغرب ، ولا مؤامرة في المنازل ، لقد تغير الوضع الدولي نفسه تغيرا هائلا وكأننا في عصر اخر ٠

٤ ـ يجب أن نجمع بين الاحتفاظ بما نستطيع من منطقة العطف والسلام وبين التنظيم الحزبي السريع الدقيق : واذا ركزنا همنا على هذا الهدف فاننا سنتقدم بسرعة :

٥ ـ سنخسر ولا شك عند تحديد مبادئنا ونفقد عطف الذين يخافون هذه المبادىء من اليمنيين ٠ ولكن اليمنيين الخائفين من المبادىء لن يتحول خوفهم الى مقاومة ضدنا الا اذا تعجلناهم بالاذى المباشر المتصل بأشخاصهم ، ذلك لان خوفهم من مبادئنا لا يقترن ببعد نظر ونضج وخصومة عقائدية، ستكون كراهيتهم لنا ككراهيتهم للامام ٠٠ سلبية لا تؤذي ٠٠ فعلينا ان نعي هذا جيدا ، فلا نثير الخصومات الشخصية المباشرة ٠

اننا نستطيع ان نهدىء خوف الخائفين ، وأن نجامل المترددين ، وان نجمد كثيرا من الخصومات ٠٠ وكلما فعلنا ذلك اتسعت منطقة السلام حولنا ، وازدادت قدرتنا على التحرك في مجالات عديدة ، وبعد هذا لن يقف في الميدان في وجهنا الا تنظيم حزبي عقائدي مضاء ٠

٦ ـ ان قدرتنا التنظيمية الكافية لن تتم الا بعد وقت

طويل جدا ، فلا بد أن تمر بنا مرحلة فراغ عقائدي وتنظيمي طويلة . وفي هذا الوقت بالذات ربما تعقدت مشكلة اليمن ووقعت في قبضة الاستعمار ، اما بواسطة الشركات أو بواسطة تحالف « البدر » مع السعودية ودخول قوات سعودية باسم البدر ، اذا مات الامام ، أو بأخطار اخرى لا نتوقعها ، وبذلك تفلت من أيدينا الظروف الملائمة التي نعيش فيها نحن ازاء العدو .

خطتنا في مرحلة الفراغ او مرحلة البناء ..

١ ـ بناء حزبي نشيط .

٢ ـ دعاية واسعة .

٣ ـ احتفاظ بالشعبية والعطف العام حتى تبقى في أيدينا المادة الخام للتنظيم .

٤ ـ تصنيف اليمنيين الى :

أ ـ جبهة محاربة .

ب ـ جبهة محايدة .

ج ـ جبهة متحالفة .

د ـ جبهة مؤيدة ، أو مادة خام .

هـ ـ جبهة متعصبة عن جهل ، تعادينا ولا نعاديها ، بل نحاول اما كسبها أو تحذيرها أو عزلها .

ز ـ الجبهة الحزبية المنظمة المؤمنة .

٥ ـ كل قوتنا في مرحلة الفراغ انما هي القوة الادبية . ولكن هذه القوة سلاح خطير جبار يجب أن نستعين به على

الاقل في الاحتفاظ بهذه الاوضاع السيئة كما هي ، فلا تزداد سوءا ٠٠ **يجب أن لا تستعمر اليمن ، ولا يتسلط عليها السعوديون** ، ولا تنجح الشركات ، ولا تقوم دولة اتحادية في الجنوب ٠٠ اننا نستطيع ان نعمل الى هذه الاهداف بقوتنا الادبية بشرط أن نفلح في تكوين جبهة عريضة متحالفة من مختلف التيارات والشخصيات اليمنية ، نتوصل معها الى نقط التقاء وتجمع ، يكفل لنا ايقاف مضاعفات السوء ٠

متى يكون الصراع قوة دافعة ؟

اننا لا ننكر ان الصراع قوة دافعة في كثير من الاحيان ، ولكنه في مثل حالتنا نحن لا يفيدنا بل يفيد العدو اذا جعلنا صراعنا من أجل المبادىء ٠

اننا لا نجد في المجال الشعبي الان من يصارعنا ، وبهذا نجد المجال كله ممهدا صالحا لنشاطنا نبذر فيه ما نريد ، وعندنا من قوة الصراع بيننا وبين الامام ما يكفينا ، فاذا استثرنا أعداء آخرين فلن نزيد من قوة الصراع لدينا بل سندفع الى صف الامام قوة صراع جديدة تزاحمنا في المجال الشعبي الذي لا يزال مائع المشاعر والمبادىء يتقبل أي دعوة أخرى تستخدم مبادئنا أو تزيفها أو تأتي بما هو أشد تطرفا ٠

ان شعبيتنا لم تتطور الى تنظيم عقائدي ولذلك فهي عرضة لان تلين لمبادىء اخرى وتتكيف على اساسها ، فلا يجوز أن نخلق الظروف التي تؤدي الى هذه النتيجة ٠٠ وعدا

ذلك فان الشعب الذي لم يتطور وعيه الى عقيدة من شأنه أن يسأم الصراع بين الهيئات ويشمئز منها ما دام ليس متحمسا لهذا أو ذاك ٠

ولو حللنا عناصر النفسية السياسية عند الشعب ٠٠ تلك العناصر التي تكون ما نسميه وعيا ، لو حللناها لوجدنا أكثرها منبعثا من قوة الامل الغامض الباسم العريض الذي لا حدود له ، فاذا جاءت معارضة اخرى فناقشت هذا الامل وجسدته لكانت جديرة بصورة تلقائية سريعة ، فهي الصراع الطبقي أو العنصري أو الاقليمي أو القبلي ٠

ذلك لان هذه القوالب للمجتمع الانساني قد تحددت معالمها من عصور سحيقة وتمايز بعضها عن بعض فاذا أثرت واحدا من قبيلة وتوفرت لهذا الواحد ظروف الاثارة الصالحة لاستطاع أن يخلق لنفسه في فترة خاطفة عصبية جماعية من القبيلة كلها ٠

بينما لو أراد شخص من غير القبيلة أن يخلق عند هذه القبيلة فكرة ما فأنه سيحتاج الى جهود كبيرة بطيئة النتائج ٠

لما ثار الجيش اليمني في تعز سرت نفس الروح الثورية في طبقة الجيش في المناطق النائية لا بتأثير التعلق «بالثلايا» أو الايمان بالفكرة ، بل تجاوبا مع الرابطة التي تربط العسكريين جميعا ٠

وهكذا فالحدود والصفات التي تخص الجيش وتميزه عن سائر فئات الشعب تخلق فيه شعورا موحدا بالترابط ٠

وهكذا العمال والفلاحون والقبائل والعناصر العرقيـة المتميزة عن غيرها ، فعندما تضطر حركة لا حزب لها ان تخلق قوة دافعة من الصراع فانها تصب مثيراتها وحوافزها وفلسفتها في هذه القوالب الاجتماعية الواضحة المعالم ، ولكنها قبل أن تسير في هذا الاتجاه تضع هذه القوى كلها فـي موازيـن سليمة ، فبلاد كاليمن مثلا لا يستطيع فيها مفكر ثـوري ان يجعل من العمال قاعدته الثورية فيعبئوها ضد أي طبقة من طبقات الشعب ، لان كل الطبقات في اليمن أقوى من العمال وأكثر عددا وأدنى الى التجمع والتنظيم •• ان افضل قاعدة تنصب فيها مهيجات الثورة ونوازع التحرر هي مركز الثقل في الشعب هم الفلاحون والقبائل أو الجيش •

اذا سرى فيهم شعور بالترابط وتيسرت أسباب توصيل الشعور من قبيلة الى قبيلة ومن قرية الى قرية •

وان السر في نجاح الامامة واستقرارها اكثر من الف عام انها نجحت في كسب قاعدة شعبية عنيدة صلبة وهـي مناطق القبائل ، فما لم نستطع غزو هذه القاعدة ستبقى كل حركاتنا عرضة للانتكاس والاندحار •

عن « المأساة » والفن في (واق الواق) *

عبد الودود سيف

– ١ –

واق الواق ·· المأساة وأبعادها

لئن كانت « واق الواق » في نظر العالم مجرد اسطورة فان « الزبيري » الذي يؤمن بوجودها اكثر « من ايمانه بوجود الشمس والقمر » يعتبر « مأساتها » دليل وجودها الفعلي · ومأساتها في نظره ذات جوانب وابعاد متعددة ·

فهي تبدو – في واقعها – المحاط بسور غليظ من التعاويذ والدماء ·· والذي لا تتنفس فيه « واق الواق » مطلقا· واذا تنفست فليس الا من خياشيم حكامها العتاة الاسطوريين ·

* كتب الزبيري مؤلفه الادبي الوطني « مأساة واق الواق » في حوالي عام ١٩٦٠م ·

وهي تبدو من جانب اخر ·· في شعبها الذي لا يعرف غير جلاديه · وجلادوه لا يعرفون ـ بالمقابل ـ غير الاسواط وفرقعة الرؤوس العاصية · وما بين « الطرفين » يقوم حبل الواسطة الذي يسيس علاقة الشعب بمحكوميه ، وهو الدين·· الخيط الذي يتلون في كل يوم وفقا لما تقتضيه مصلحة الحكام وارادتهم ·

ومن جانب ثالث تتجسد مأساة « واق الواق » في ذاتيتها المفتقدة ·· والتي في ظل افتقادها افتقدت « واق الواق » كل معانيها الانسانية والروحية والحضارية ·

ولم تعد ـ فيما هي عليه ـ سوى اشباح وركام تاريخي لغزوات « الامامة » الدموية طوال فترات تحكمها المشين ·

وتبدو ـ من جانب رابع ـ في تقطع الصلات بين واق الواق وبين من حولها ·· الامر الذي أدى الى أن ينسى العالم وجود واق الواق تقريبا ، بل انه نساها فعلا وأصبح لا يعيها الا من خلال « الاسطورة » التي تدلل عليها « اسميا » من دون ان تحدد لها موقعا متعارفا عليه ضمن سطح الكرة الارضية · على ان هذا لا ينطبق الا على الدول غير ذات الشأن وعلى الافراد العاديين من بني البشر · اما الدول القوية ذات التأثير في موازين القوى السياسية العالمية فانها تعرف « واق الواق » وتعرف موقعها الجغرافي خير المعرفة · لكنها تدخر معرفتها لوقت مناسب لها حين يحين أوان مصالحها فتتسابق عليها كالجراذين ·· (راجع كيف يحلل مواقف هذه القوى واحدة واحدة ص ٩ ـ ١٣ من مأساة واق الواق) ·

ومن جانب اخير تبدو مأساة واق الواق في مـا هـو ملموس في واقع حركتها الوطنية التي اختارت موقع المعارضة لمناوئة « الامامة » ٠٠ غير ان تواجد هذه المعارضة في خارج البلاد ، وبعدها عن مواقع التأثير « داخليا » قد أعاقها عـن الالتصاق روحيا ونضاليا بالشعب ، وجعلها تستسلم للاوهام في رفع شعاراتها وفي ممارستها العملية ٠

وقد زاد من حجم المأساة ـ عبر هذا الجانب ـ ان الامال التي كانت تتجه بها « حركة الاحرار » الى الداخل قد فشلت وتلاشت بعد فشل تمرد القبائل في عام ١٩٥٩م وراح ضحيته عديدون كان على رأسهم « حميد الاحمر » الذي يعتبره الزبيري « شهيد كربلاء حاشد » ٠٠ وبفشل هذه الحركة أصبحـت المعارضة السياسية في الخارج مطالبة في ان تصبح على قدر مسئوليتها التاريخية ٠ وأنى لها ذلك وهي ـ على بعدهـا ـ واقعة في حيص بيص مشاكلهـا الخاصـة التي أخذت مـع الستينات تقوى كأشدها وتنذر بزلزال عميق يهدد مستقبـل العمل الوطني كله ؟ (١) ٠

وهذه الجوانب المتعددة لحقيقة المأساة في واق الـواق تكتمل كأكثر ما يكون في قرارة الزبيري الخاصة ٠٠ عندمـا اكتشف تلقائيا بأنه ذاته وان كان يحس بواق الواق وبمأساتها عبر كل دقيقة من كيانه العضوي والوجداني الا انه لا يمتلك ازاءها الادلة [illegible] التي يمكن من خلالها البرهنة موضوعيا على وجودها الفعلي في [illegible] وجملة ما يمتلكه ـ فوق احساسه بمأساتها [illegible]

- وجوده الشخصي •• حيث وهو ينتمي الى « ترابها الطاهر » •

- ايمانه العميق بأن واق الواق حقيقة الحقائق التي يبتدىء وينتهي بها كل الوجود •

لكن هل يستطيع بكل ذلك ان يبرهن « منطقيا » على صحة معتقده وينفي ما هو شائع في تصور العالم برمته ؟ انه لما يزيد الطين بلة ان وطنه الذي غادره اثناء عام ١٩٤٨ بعد نكبته المريعة قد اضطر على الدوام الى ازاحته من ثنايا ذاكرته حتى لا يتذكر الصورة الرهيبة التي رسمتها له الفجيعة •• الامر الذي احال هذا التحاشي مع الزمان الى نوع من الواقع وأصبح الزبيري بموجبه لا يتذكر كيف ولا لماذا غادر وطنه • وهنا تكمن مأساة الزبيري الخاصة لانه أصبح لا يذكر شيئا عن وطنه الذي يحاول اثبات وجوده للعالم • وما يتذكره بالتحديد ـ من صورته المدفونة في مكان ما من اعماقه ـ بقايا خيالات لا يعرف كنهها وبقية صوت ما يزال يشرخ جدار ذاكرته •• يتسلق الزمان ويأتي اليه منذ عهد الطفولة ـ عندما كان يحبو ـ على لسان أمه وجدته فيقول له « هذا تراب طاهر لانه من أرض واق الواق » • ومعنى هذا في الاخير انه افتقد فاعلية التبرير في أهم جزء من مبرراته ، وغدا وطنه مجرد « تاريخ » ظني في نظر العالم ليس الا ! ولئن كان هو يحس به على شكل « انتماء » واسع يصله بطفولته فمن وجهة نظر ـ هذا ـ العالم انه مجرد احساس ذاتي ! وهل يكفي الاحساس الذاتي للبرهنة على « موضوعية » شيء ما لا يوجد في الواقع •

وفيما كان الزبيري يقيم في نفسه شيئا من الفلسفة الخاصة لاثبات وجود وطنه (انا موجود ٠٠ اذن وطني موجود ــ ص ٨) يكتشف ان هذا « الكوجيتو » الجديد لا يكفي لتأكيد «الشك» من موقع «اليقين» ـ على النحو العكسي «لديكارت» ــ كما كان ينوي الزبيري ٠ خصوصا ونحن في عصر يتعامل فيه أبناؤه بمنطق « الكم » والحقائق الرياضية ٠ ما العمل اذن ؟

ان « الزبيري » الذي أعيته الحيل المنطقية لتأكيد وجوده ووجود وطنه لا يملك في الاخير سوى مواجهتنا بالتالي :

« ٠٠ من الجائز ان السيدتين (يعني أمه وجدته) كلتيهما توارثتا هذه الاسطورة كفن من الفنون الشعبية الشائعة ، ولكنهما لفتنانيها لا كأسطورة ، بل كعقيدة وحقيقة ٠ ولذلك فأنا أجاريكم وأجاملكم في تسميتها اسطورة ، والا فانني أؤمن بها اكثر من ايماني بوجود الشمس والقمر ٠٠ (ص ٦) »٠

وعند هذه النقطة يضعنا الزبيري في منطقة ضيقة امام حلقة مغلقة ٠ ولذلك يقترح كحل بديل ان نلجأ الى « الايمان » كي نبحث في ظله عن الجانب المغفل من الحقيقة التي لن تتكامل معرفتها دائما الا بتكامل العقل والروح معا ٠ لا سيما وقد ثبت لديه من تجربته السياسية ان العلم لا يخدم الا السياسة!!

« لا تصدقوا ان العلم يعلو على كل اعتبار فلا تزال العلوم الانسانية والحضارية والبشرية بكل امكانياتها حتى اليوم مسخرة للسياسة ، ولا يوجد في العالم أمر ذو بال يفلت من اليد الشيطانية للسياسة ٠ والدول الكبرى هي ذات الشأن السياسي الاول في العالم ٠ ومن الجائز جدا انها فيما يتعلق

بمشكلة كمشكلة واق الواق ، تلك المشكلة الباردة التي تردمها الغيوم والثلوج وطاقيات الاخفاء ، من الجائز ان تكون هـذه الدول الكبرى ـ على غير اتفاق أو مشاورة ـ قد اتفقت على مؤامرة صمت وتعايش اثيم ! ص ١١ » ٠

وبمعنى آخر ان هذه الدول « العلمية » اذا تآمرت على واق الواق ـ وهذا واضح من خلال تكتمها على قضيتها ـ فانها تتآمر ضمنيا على وجود الزبيري ذاته الذي يعتبر جزءا مـن القضية قبل ان يكون احدى نتائجها ٠

وما دام ان « الزبيري » قد أفلح في ايصالنا الى هذا الحد من التهيئة النفسية في مناقشة قضيته الخاصة « واق الواق » فقد أصبح القبول واردا للحلول التي يطرحها لنا طالما اننا شغوفون بمعرفة ما وراء ظاهر هذه القضية ٠

لذا فقد اتفق مع جماعة من علماء الازهر ـ الذين كان يخوض معهم النقاش ـ على اللجوء الى علـم « الروحانيات » لاكتشاف حقيقة واق الواق من عدمها ٠ وتوقف الامر علـى مسألة اختيار نوع « الاسلوب الروحي » الذي يمكن وقفه لهذه العملية ٠ وقد تم الاتفاق على ان يكون التنويم المغناطيسي هو الحل الامثل ٠

من البرهنة علـى وجـود
واق الواق الى البحث عن خلاصها

وبدأت رحلة « التنويم المغناطيسي » الى قلـب « واق الواق » بقصد كشفها للعالم ٠٠ وحدثنا الزبيري عن بدايتها :

« يا للعجب ! ماذا أصبحت وماذا رأيت ! انفرجت في عيني دنيا كاملة كنت قد حيل بيني وبينها بحاجز صلب عنيد من النسيان ، ورأيت قصة حياتي كاملة ، وتذكرت الاسم الحقيقي لبلادي وقصة خروجي منها وكيف انقطعت صلتي بشعبي عن طريق التنويم الوطني الذي نقلني من مستوى شعبي الذي لا يزال يعيش في عصر قديم الى مستوى روح القرن العشرين . وتذكرت كيف يومئذ انقطعت صلتي بالشعب في مستواه وأخذت أكافح للارتفاع به الى المستوى الذي وصلت اليه ، حتى اعتقدت بحكم اصرار الامل وفاعليته التكرار انني قد نجحت . وما كادت تقوم حركة ٦٧هـ ٤٨م وتنتكس حتى أصبت باغماءة قطعت الصلة بيني وبين وطني وتاريخي وخرجت الى اهل الارض فكنت أجزع حين لا أرى وطني في مسرح الزحف التاريخي للبشر ، ولا أرى الناس يعرفونه ولا يشهدون له وجودا الا اسمه الاسطوري الذي تناقلته كتبهم وأقاصيص اسلافهم . ومن ثم أنكروا انه له وجودا حقيقيا . ولذا كابدت المرارة الرهيبة ودخلت في نقاش مع الناس كأنني مجنون بين عقلاء أو عاقل بين المجانين .. ص ٤٥ » .

غير ان الرحلة بدلا من ان تتجه الى واق الواق اتجهت الى جهة اخرى .. فقد شعر الزبيري وهو فوق مياه البحر الاحمر بأن روحا خفية تنتزعه اليها ، بعيدا عن واق الواق التي كان يزمع فيها ان يروي ظمأ اثنتي عشر سنة من الغربة والتجوال . وتبين له فيما بعد ان « **لميس ابنة اسعد الكامل** » هي صاحبة تلك الروح التي تهوم في اجواء اليمن منذ مئات السنوات ، وشكلت درعا واقيا يحول دون وصول خير أو غيث

او انقاذ سماوي الى أرضها أو شعبها ٠

والزبيري بلجوئه الى هذا الموقف انما يعيد تأكيد « **الاعتقاد** » العربي القديم ان النفس اذا ماتت مقتولة ظلت تحوم في الاجواء ، حتى يحين موعد ثأرها ، فتذهب الى لقاء ربها وادعة مطمئنة ٠ غير ان ثأر أمنا « **لميس** » ليس من هذا القبيل بل هو ثأر الذاتية اليمنية المفجوعة على مر العصور ٠٠ لذلك فأمنا « **لميس** » تطالب بأن يفيق اليمنيون ذاتيا ويلقوا غبار الهوان الذي تجرعوه لمئات السنوات ٠٠ منذ عصور القوة :

« **ان من مهمتي هنا ـ بأمر الله ـ ان أمنع حتى الملائكة من مساعدة هذا الشعب ٠ لان لعنة الله ستنزل به وتحل بأرضه الى الابد اذا لم يتول هو بنفسه غسل العار ٠٠ (ص٣٣)** »

وهي لا تنطق ولا تفعل ذلك جزافا بل هي ناطقة بلسان كل قتلى اليمنيين من الشهداء الذين استحالوا في الملأ الاعلى الى روح واحدة تشكل الواجهة والحقيقة في تاريخ اليمن كله ٠٠ القائم على مبدأ ان « الشهادة » ـ أو الموت ـ هو التدليل الفعلي على حقيقة الارتباط بحب الارض وقضيتها ، وبالتالي في تحديد تاريخها مستقبلا ٠٠ « **انه تقرر بصورة قاطعة لا تقبل النقاش ان الشهداء ومبادءهم وأهدافهم المحددة ومثلهم العليا التي ماتوا لاجلها كل هذه الاعتبارات هي صاحبة الحق الاول في تقرير مصير بلادنا (ص ٣٨)** » ٠

ومن هنا فهي اذ تعيد تأكيد هذا المبدأ ـ القرار تقوم بتذكير الزبيري بقناعته ذاتها عندما أوجزها في عبارته :

« **انما يملك التراب شهيده** » ·· وتأخذ عليه كيف انه ينوي الدخول الى بلاده مرة ثانية من غير باب الشهادة ··

« **اني لاشعر بالحرج اذا صارحتك بأنني لا أسمح حتى لك انت بالتسلل الى وطنك الا ان تذهب بجسدك الحي وتموت في ترابه ص ٣٨** » ·

والزبيري الذي يحاول ضمنا أن يؤكد على الامتزاج الذاتي بين القضية الوطنية وبين التعبير عنها وهو ما لا يتم الا عبر امتزاج عاطفي حار بين التراب والدم ، هو الزبيري ذاته الذي يلوم نفسه لانه بالغ كثيرا في محاولة التعريف بالقضية اليمنية اعلاميا وسياسيا في الخارج في وقت كانت الحاجة الوطنية تستدعي مزيدا من الفعل النضالي الدموي داخليا ·· ولذلك فقد أدان نفسه ـ على لسان الام لميس عندما أبلغها أنه متوجه الى بلاده ليقوم باثبات وجودها للعالم فردت عليه منتهرة اياه ـ « ما الذي يجدي على وطنك ان يقتنع بوجوده حفنة من علماء الازهر أو ملايين من سواهم (الصفحة ذاتها) ؟ » · وكأن هذه « المعرفة » من قبل الاخرين زجر غير مشرف لكل يمني يهمه اثبات وجود وطنه وينسى انها معرفة غير مشرفة ·· « ·· اذ هو وجود لو اقتنعوا به غير مشرف » ·

وهكذا فان الزبيري وقد كان في أشد حالات استرخاء الوعي (التنويم) أشد استيقاظا لما يتصل بالنضال الوطني وأشد وعيا بضروبه ومسالكه ·· بل اكثر من هذا ان الحنين الذي كان يزفره تشوقا الى رؤية الوطن بعد طوال الغربة قد استحال في لحظات التواصل بالحلم الى اتحاد يقظ بالقضية

من كل جهاتها ٠٠ وليس أعسر على المرء من ان يؤل أمله في لحظة التحقق الى نقيض لا يكشف الا عن مزيد من سوء الواقع والرغبات المفجوعة ٠٠ خاصة اذا كان ذلك راجعا الى نوع من التشبث العاتي بعدم التفريط بشيء مما يؤمن أنه ضروري وغير قابل للمساومة ٠ وضمن الاطار نفسه فقد خسر الزبيري اخر مراهنة كان يخوضها مع واقعه الذي يموت احتراقا كل يوم فيه لتحقيق أمله برؤية الوطن ٠ لكن ما ان هلت هذه الفرصة ـ الحلم ـ حتى انتفض فجأة وعاد من داخلها ليعاود مسلكه النضالي المعتاد من دون ان يريح نفسه ولو للحظات من جراء كل ما يحيط به من أعباء ٠

ان عظمة الزبيري في هذا الموقف انه سجل ـ من حيث لا يدري ـ بأنه كان يناضل حتى وهو في غير مواقع النضال ٠٠ أي في لحظات استرخائه العاطفي مع نفسه ٠ وبوعي أو بدون وعي ترتب على هذا الموقف (الجائر) ان ذهب الزبيري في رحلته الى استعراض اشكال العمل في النضال الوطني ، وتقييم ما هو قائم منها ، مرورا على تقييم المرحلة ومتطلباتها ٠٠ حتى انتهى من كل ذلك الى تصور نهائي شكل الخلاصة لما يعتقد بأهميته ضمن الظروف التي كانت قائمة ٠

أما كيف تم هذا ؟ فذلك ما يرسمه مسار المرحلة الجديدة بعد النقاش الذي دار بين « الزبيري » والام « لميس » حيث كانت الحصيلة ان يقوم الزبيري برحلته الى عالم الاخرة ٠٠ وينقل من داخلها مشاهداته في عوالم الجنة والنار ٠ وذلك ما تم فعلا ، فالتقى الزبيري بالشهداء الوطنيين في الجنة وحاورهم وعرض عليهم حقيقة المأساة في واق الواق من كل

جوانبها .. بادئا بجذورها التاريخية منذ سيف بن ذي يزن الذي يخاطبه على لسان الشهيد جمال جميل .. « انك استقدمت الفرس الى بلادك وسممت روح الشعب بالاتكالية . وتركت فيه عقدة الاعتماد على الاخرين .. ص ١٨٢ » ، ومعرضا بالبدايات التاريخية التي هيأت لاستلاب روحنا وحضارتنا اليمنية (٢) ثم تطوراتها على يد « الامامة » بابطال تاريخها المختلفين ، ومنتهيا بواقع الحال في التاريخ اليمني المعاصر قبل قيام ثورة السادس والعشرين من سبتمبر عام ١٩٦٢م .

وقد أتاح الاسلوب الفني غير المباشر الذي اتبعه الزبيري في حوارياته المتعددة ، وتنقله الحار بين المواقف المختلفة في طول وعرض التاريخ اليمني ، بالاضافة الى تنويع الاداء والعرض .. كل ذلك ساهم كثيرا ان يكون المردود بحجم القضية المثارة .

على ان اهم ما اشتمل عليه ارتحال الزبيري الى هذه العوالم عودته منها بصك روحي ينص على ان يختار الشعب طريقه في الحياة والحكم والسياسة بحسب ارادته وبما يتناسب وطموحه في ان يحيا كيف يشاء . وكان الزبيري يؤذن بهذا معلنا افلاس « الامامة » تاريخيا في اليمن ، واستعداد الشعب ـ بالمقابل ـ في ان يقدر على اختيار « نظامه » المناسب من دون أي وسطاء . وهو تبشير في محله .. فقد تحقق قيام النظام الجمهوري بعد سنتين من نبوءة الزبيري المشار اليها .

وبذلك فان « مأساة واق الواق » تكاد تكون المؤلف الوحيد ضمن ادبيات « الاحرار » التي تتناول طرح البديل السياسي في نظام الحكم ·· بعد فترة غير قصيرة من التخبط والعشوائية حول : ماذا وراء المعارضة ؟

القيمة الوطنية والتاريخية لواق الواق :

الى جانب المضامين والدلالات المتعددة « لمأساة واق الواق » عبر أصعدة كثيرة متفاوتة : شخصيا وفنيا والى حد ما فلسفيا فقد تركزت أهميتها البالغة في مضامينها الوطنية التي أخذت أكثر من اتجاه ·

وبوجه عام فان ثمة اتجاهات ثلاثة بارزة في مضمونها الوطني ·· الاول : اتجاه تاريخي يعكس حرص الزبيري على التعريف بحركتنا الوطنية اليمنية منذ بداياتها الاولى في مطالع العشرينات وحتى كتابة مؤلفه في بدايات الستينات من هذا القرن · وهو اتجاه وان لم يكن مباشرا ولا تفصيليا ـ كما هي العادة عند التصدي للتاريخ المباشر · فقد اضطر الزبيري تحت وطأة الاحساس بضرورة التعريف بواقع هذه الحركة ـ عبر ما ينيف عن الخمسين عاما من عمرها ـ الى التحايل فنيا في أكثر من موضع وعندما كان يحس بأن القالب الفني قد يعوقه من الايفاء بغرضه كان يضطر الى تجاوزه والاندفاع مباشرة الى طرح حقائقه بطريقة العرض المباشر ·· كما فعل في فصله الخاص المعنون « مراحل الصراع بين الشعب والحكومة » (ص ٦١ ـ ٧٥) حيث تناول فيه الموضوع كما يتناول أي كاتب

موضوعا سياسيا تاريخيا · على ان هذا كان نادرا ولم يقم به الزبيري الا لماما ·

الثاني : اتجاه وثائقي ·· وهو يتناثر بين موضع واخر ، وبطريقة يغلب الايماء فيها على التصريح · الا ان محصله العام يكشف عن فوائد تاريخية جمة لم تحتو عليها اية وثيقة اخرى من وثائق حركتنا الوطنية ويبدو هذا الاتجاه كأكثر ما يكون في المناقشات المتعددة التي أدارها الزبيري بين الشهداء ·· الامر الذي يمكن فيه للقارىء العارف بجانب من تاريخ حركتنا الوطنية ان يستخلص بأن هنالك نوعا من الخلافات التي كانت دائرة بين رجالات الحركة الوطنية ولا سيما اثناء حركة عام ١٩٤٨ ، وكانت سببا من اسباب انتكاساتها وضمن هذا الاتجاه قام الزبيري باسناد الادوار المجهولة الى اصحابها من الشهداء ، كما أعطى لكل شهيد دوره النضالي الحقيقي ·· بالاضافة الى انه قام بتصحيح بعض الشبهات حول هذا الشهيد أو ذاك ــ كما فعل على سبيل المثال مع **جغمان** » أول شهيد لقى حتفه على يد الامام « يحيى » قبل استلامه الحكم ــ وفي الوقت ذاته حاول أن يصحح بعض المفاهيم الوطنية التي فهمت خطأ لسبب أو لاخر ·

الثالث : اتجاه تحريضي دعائي · وقد ضمن فيه الزبيري ــ بحنكة بالغة ــ جملة المفاهيم النضالية التي تحتاج الى تقريب نفسي من الشعب ــ كما فعل هذا في مشاهد الجنة والنار حيث كانت الصور المتتالية المنقولة من داخلهما تنبىء عن حس فني هائل قابل للتهييج بأكبر قدر ممكن من ردود الفعل المحتملة ــ ·· كما لم يخل هذا التحريض من الاثارة المباشرة ·

كما فعل مثلا في مخاطبة قبائل حاشد على لسان أم الشهداء « **آل أبي دنيا** » وهي تخاطب شيخها المقتول على يد الطاغية « احمد » والذي لم يثر مقتله أي رد فعل تجاه قبيلته :

« ٠٠ اني أمجد فيك هذه الروح – روح التضحية – غير اني أنصحك اذا استطعت الاتصال بقبيلتك فلا تطلب نجدة الرجال ٠٠ ولكن عليك ان تستنجد بالنساء فليصنعن مثل ما صنعت أنا ٠ اني خرجت بنفسي ٠٠ أتحدى الظالمين وألاحقهم أينما ذهبوا وأنا عجوز ولم يكن بيدي سلاح بل ولم أكن أستطيع المشي الا بصعوبة بالغة ! ومع ذلك استطعت بدموعي وبكلمة الحق أن أهز عرش الطاغية ٠٠ ص ١٧١ » ٠

وبالقدر الذي استطاع فيه الزبيري أن يحقق اتصالا عميقا بين مبادئه وأهدافه من جهة ، وبين الشعب من جهة اخرى ، عبر وسيلة التحريض التي شدد عليها كثيرا في « مأساته » فقد استطاع من جانب اخر ان يعكس عبر الوسيلة ذاتها قدرا أكبر من مفهومه الاخلاقي ازاء الخير والشر ٠٠ ذلك المفهوم الذي وان كان ممتدا بجملة معتقداته الوطنية الا انه – من قبل ومن بعد – مفهومه الكلي عن الشر والخير في العالم كله ٠ لان « وطنية » الزبيري كانت اساس تعامله مع الاخرين كما شكلت زاوية نظرته الى العالم بما فيه ٠

ولعله من الطبيعي التساؤل عن نوعية الاهمية الوطنية الخاصة « لمأساة واق الواق » عبر تجربة الزبيري ذاته ٠٠ في الموقع الذي احتله في حركتنا الوطنية ؟ لا سيما في الفترة التي كان هو على رأس هذه الحركة منذ تجديد نشاطها بعد

فشل حركة عام ١٩٤٨ ؟ بمعنى ـ من وجه اخر ـ ما هو الصدى الملموس في « مأساة واق الواق » للخلافات التي أخذت تشتد بين جماعة حركة « الاحرار » أثناء فترة نشاطهم العلني في الفترة بعد ١٩٥٥ لانها الفترة التي شهدت أوج ازدهار نشاطهم بين ٤٨ ـ ١٩٦٢ ؟

ومن الوقوف على الواقع التاريخي « للاحرار » في الفترة المذكورة يمكن وصف نشاطهم فيها بانه اتسم بالتصاعد المتزايد ـ في جانب ـ وباتضاح نوع من الخلافات الملموسة بينهم ـ في جانب اخر ـ ٠

وقد ابتدأت الخلافات الفعلية مع خروج العديد من شخصياتهم المؤثرة من السجون في الداخل في عام ٥٤ وعام ١٩٥٥م ٠

وبعودة هذه الجماعة الى ممارسة نشاطها ضمن حركة الاحرار عاد الخط التقليدي للاحرار في طرح نفسه على مستوى « الممارسة » النضالية لنشاطهم ، وعلى مستوى صياغة « التاكتيكات » الخاصة بهم وبتحديد شعاراتهم المرحلية المعتادة فيها ٠

وكان من جملة ذلك العودة الى شعار « ضرب أمير بأمير » أو حطم صنما وارفع صنما ـ وتبني توزيع الادوار للاحرار بين من يعضد هذا الامير ويعارض ذاك ، وهو الامر الذي ترتب عليه ظاهريا تألب مجموعة من الاحرار هنا وجماعة هناك تبعا للمقتضى السياسي المرسوم ٠ بالاضافة الى عودة الامور الى سابق عهدها قبل ١٩٤٨ ٠٠ وقد كان ـ بحسب اقتضاء

المخطط ـ ان يكون الحكم اماميا دستوريا ، وتكون القضية اليمنية في الوقت ذاته لها نصيبها السياسي والاعلامي في عملية نشاط الاحرار في الخارج خصوصا ضمن أروقة جامعة الدول العربية وضمن الحكومات العربية المؤمل مساعدتها في القضية اليمنية ٠ وهذا الذي يفسر اعدام بعض جماعة الاحرار ممن كانوا قد خرجوا من السجن على التو ، في احداث ١٩٥٥ لانهم كانوا قد انزاحوا الى الصف المهزوم من الامراء كعبد الله والعباس ، ونجاة بعضهم بأعجوبة (٣) ٠ كما انزاح اخرون الى الفريق المنتصر فسببت نجاتهم نوعا من الارتياب بهم من قبل من لم يكونوا في الصورة (٤) ٠ كما ظل اخرون ـ والزبيري على رأسهم ـ في القاهرة يحيطون القضية وما كان يجري في الداخل كل الاهتمام اعلاميا وسياسيا ٠

وقد أفلحت حركة ١٩٥٥ في تحقيق جزء من أهداف « الاحرار » المرسومة ، لكن ذلك جر عليها من التبعات اكثر من ما تتصور ٠

فقد استطاع نفر من المشككين (٤) ـ وكانوا في أغلبهم ـ ممن فقدوا مواقعهم في حركة الاحرار أن يوجهوا الحراب الى من لحقتهم النجاة من الاحرار بقصد التشكيك والوصول لو أمكن الى مواقعهم القيادية ليكونوا البديل لهم بعد نبذهم من صفوف الاحرار نهائيا ٠

كما استطاع ـ من الجانب الاخر ـ التوجه المضاد لحركة الاحرار من الشباب وكانوا قد سأموا من القيادة التقليدية لحركة الاحرار ٠٠ وأخذوا يطالبون بأكثر مما كان مرفوعا من

مطاليب وشعارات وطنية في تلك الفترة ـ استطاعوا ان يبرهنوا يوما فيوما على الجدوى غير المحدودة لحركة الاحرار بما هي عليه • ولذلك نجحوا في تكريس مفهوم « اللامهادنة » مع الامامة ورفع شعار الجمهورية لليمن « الامامي » و « المحتل » معا (٥) •

وضمن ذلك كله كان على الزبيري أن يحدد موقفا واضحا وقد استطاع باصالته الوطنية وبصدقه ووضوح رؤياه ان يكون على مقربة من موقع « الوطنيين » الشباب » الذي يمكن اجماله بأنه كان خروجا على اجماع الاحرار • الامر الذي ترتب على هذا الموقف ـ وهو في رئاسة حركة الاحرار ـ ان يجابه بنوع من « المعارضة » التي استحالت سريعا الى خلاف ظاهر فيما بينهم •

وتمثل هذا الخلاف في :

١ ـ رفض ان تكون القضية اليمنية قضية سياسية عربية •

٢ ـ رفض ان تكون بعض الدول العربية المتحررة ـ كالجمهورية العربية المتحدة حينذاك ـ طرفا معنيا في القضية اليمنية •

٣ ـ رفض مبدأ حلول التسوية التي تطرحها بعض « جماعة الاحرار » بينها وبين النظام الامامي •

٤ ـ كل هذه الخلافات كانت تحاول ان تستمد تخريجاتها لدى الاطراف المختلفة من واقع تراث حركة الاحرار النضالي •• لذلك كان كل طرف يبادر لتزكية موقفه

في التدليل عليه بما يعرفه من هذا التراث لا سيما ما يتصل منه بالشهداء ·· فيعطيه اللون الذي يريده ·

والزبيري الذي كان احد اطراف هذا الخلاف عمل عبر كتاباته المختلفة على بسط رأيه بكثير من الوضوح ·· فقد ذكر حول النقطة الاولى في « ثورة الشعر » : « ·· ان كثيرين ينادون بأن تكون حركة الاحرار اليمنيين كحركة الجزائر وغيرها من القضايا العربية محل عطف الجميع وهؤلاء يطلقون الرأي من عل ، وبمعزل عن ظروف وتجارب الحركة اليمنية ، فهم لا يعرفون ان الاحرار كانوا يتخذون الرجعية العربية ملاذا ومفزعا ، ولم يكونوا يتوددون اليها على سبيل المجاملة أو طبقا لتكتيك سياسي بل كانوا يرونها فعلا جديرة بهذا الامل · وظلوا كذلك أعواما طوالا ·· ولم يكونوا يدركون بأنهم يشكون اليهم شكوى الجريح الى العقبان والرخم · (حيث) كانت المذكرات التي يبعثها الاحرار لا تلبث حتى (تقدم) الى الامام « يحيى » مشفوعة بتوصيات رجعية تنصح الامام بالصمود في وجه المطالب الوطنية والاستخفاف بها (ص ١٢٤) ·

وبوضوح أكثر يحاول الزبيري في « الخدعة الكبرى » ان يبين هذه النزعة وأسبابها ·· وذلك انه « حينما قامت الثورة اليمنية الدستورية عام ١٩٤٨ وحاربها ملوك العرب في ذلك الحين وأذنابهم لم يهتز ايمان احرار اليمن بالعروبة ولا بالوحدة العربية ، بل أقدموا على أول خطوة عربية من نوعها ، وهي اشراك بعض احرار العرب في حكومة الثورة

واستدعاء الجامعة العربية للاشراف على تأليف حكومة شعبية يرضاها الشعب ٠٠ بل ذهب الاحرار اليمنيون الى ابعد من ذلك وهو اعلان استعدادهم لقبول حكم عربي تشرف عليه الجامعة العربية ٠٠ ص (٥) » وماذا كانت النتيجة من وراء ذلك ؟

« ٠٠ كانت هذه النزعة العربية الثورية من أهم الاسباب التي أطاحت بحكومة الاحرار اليمنيين ٠٠ (الصفحة ذاتها) ٠

اما عن النقطة الثانية فيقول في ثورة الشعر :

« لنفرض جدلا ان الثورة العربية في مصر تجاوزت عن ظروفها الدولية والمحلية وصنعت لليمنيين ثورة وخلصتهم من حكم الامام الرجعي وأوضاعه من جذورها فهل يكون ذلك شرفا لليمنيين أم يكون عارا وشنارا ؟

٠٠٠ أما أنا فانى أضرع الى الله أن يثبت سياسة الجمهورية العربية على الابتعاد عن التدخل الثوري في الشئون الداخلية لليمن حتى لا تهزها العاطفة في يوم من الايام فتتصدى للقيام بعمل ثوري ضد الرجعية اليمنية نيابة عن الشعب ص ١٢٦ ـ ١٢٧ » ٠

وحول النقطة الثالثة يطرح في ثورة الشعر ايضا ٠٠

« كان الاحرار على عكس ما يظن الكثيرون متساهلين الى ابعد الحدود مع الحكام ، وكانوا ألين عريكة ، وأرحب صدورا عند الاخذ والرد مع الرجعية الحاكمة ، بل وقد بدأ التعامل معهم بالمداراة والتشجيع واثارة روح الطموح في

رجالها • وكانوا يؤيدون اية خطوة سليمة ولو متواضعة يحاول الامام ان يخطوها • ولكن عناد الحكم المتوكلي وتصلبه •• وتمسكه بالحق المطلق في التسلط واستخدام هذا الحق في تحطيم عجلة التطور أعطى تجربة المناضلين يقينا لا يعتوره الشك في ان كل محاولة لقبول انصاف الحلول وارباعها لن تكون الا من قبيل خداع النفس لان الحكام مصممون على رفض اية خطوة في سبيل تقدم حقيقي •

ولكن هذا اليقين كان منالا عسرا فلم تأت به الا أحداث هائلة واعمار غالية وتجارب ومذابح وآلام يعجز عنها الوصف •

فالذين يحاولون اعادة التجارب من جديد •• انما يعملون على اهدار تجربة ربع قرن من النضال ونصف قرن من تجارب العبودية قبله • وهم كذلك يستأنفون المجازفة بمصير الجيل الوطني الذي بلغ أشده من الرشد والوعي عندما يحاولون اقناعه بمعاودة التجربة من جديد والغاء تجارب الرعيل الاول » (ثورة الشعر ١٢٣ ـ ١٢٤) •

ذلك ما نصت عليه كتابات الزبيري المتعددة •• اما في واق الواق فقد عبر عن الموقف ذاته لكن بشيء من التفاوت • ويمكن الاشارة الى ثلاث نقاط من ما سبق :

الاولى : تشديد الزبيري المطلق على ان يصنع اليمنيون خلاصهم بذاتهم • وهو الموقف الذي كان موضوع نقاشه ـ السابق ـ مع الام « لميس » كما كان موضع اشارات متعددة في المأساة :

« ان اخوف ما يخافه الشهداء أن يتصدى لانقاذ شعبهم

شعب اخر حتى ولو كان شقيقا ، بل وان تتصدى لانقاذه حتى السماء ٠٠ ص ٣٣ » ٠

الثانية : رفضه لمبدأ حلول التسوية مع النظـام جملة وتفصيلا ٠٠ وذلك هو الموقف الذي أكده الزبيري من خلال قرارات « المؤتمر الكبير » في الجنة ، حيث دعى الشعب الى اختيار النظام البديل بالطريقة التي يجد أنها مناسبة ٠٠ بما في ذلك الجمهورية التي كان لا يزال يرى فيها بعض الاحرار دعوة سابقة لاوانها ٠

الثالثة : دعوته الشهداء لان يكونوا هم المرجع الاعلى في تفنيد خصومات الاحياء من الاحرار ٠٠

١ ـ لسبب ما لهم من مكانة لدى شعـب واق الواق ٠٠ « ان الشهداء ولا شك لهم منزلة في النفوذ الاعلى ولهم كذلك نفوذا وقدسية عند شعب واق الواق وعندهم أسرار خطيـرة ودروس غالية ٠ فقد انكشف لهم بلقاء ربهم وجوه الحق وتجلت لهم أخطاءهم في الحياة ٠٠ ص ٥٥ » ٠

٢ ـ وبسبب طهرهم الذي يفتقد اليه الاحياء من الاحرار ٠٠ « لقد حاول الاحياء الاحرار في هذا الشعب أن يجـدوا الوسيلة الناجحة للتجمع فحالت دون مرامهم طبيعة الظـروف المعقدة ٠٠ في واق الواق (التي) أفسدها الطغيان وأفسدتها الحاجة والخـوف والشهـوات الدنيئـة والذمـم الخربـة ٠٠ ص ٧٠ ـ ٧١ » ٠

٣ ـ وبسبب الاجتهادات المختلفة في فهم تراث الشهداء ٠٠ اما لان « معظمهم كانوا يعيشون تحت الارهاب فلم يخلفوا

تراثا » واضحا يمكن الرجوع اليه ، او لان بعض الاحياء من الاحرار لم يستطيعوا استيعاب هـذا التـراث بما يتناسب والظروف الجديدة ٠٠ « ونحن وان كنا بوحي من احساسنا الخفي ننشر ونكتب ونرسم الاهداف والمبادىء (للشهـداء) الا اننا نريد ان ينبثق كل ذلك من الواقع المتجدد لبلادنـا ٠ فنحن نؤمن بالوجود الحي للوطن والشعب ، ونؤمن بأن هناك أحداثا متجددة كبيرة ٠٠ وان شعبنا لا يمكن ان تتخلى عنـه وحدة نواميس الحياة ٠٠ ص ٣٩ » ٠

على انه قبل الانتهاء من هذا الاجمال السريع لمضمـون « واق الواق » وطنيا ينبغي الايضاح بأن موقف الزبيري الخاص بمسألة استقلال القضية اليمنية كان ينبع في أساسه من قناعة عميقة بضرورة وعي الشعب لذاته أولا ولمأساته ثانيا حتى لا تتكرر فصول تاريخه الدامية كما كان الحـال في عهد « ذي يزن » ٠٠ حيث استحال الانقاذ الخارجي الى تاريخ دامي من النهب والاستلاب « الذاتي » روحيا وحضاريا ٠

واق الواق ٠٠ والتجارب الفنية المماثلة :

من الملاحظ ان « واق الواق » وان اعتمدت على نوع من الاداء الروائي ـ حتى لتكاد ان تكون رواية شبه متكاملة لو شذبت من بعض النتوءات ومن العرض السياسي المباشر فـي بعض الاحيان ـ الا ان عنصر الحكاية فيها يعتمد على الخيال جملة وتفصيلا ٠ وهي قريبة بذلك من عمل أبي العلاء المعري (٩٧٩ ـ ١٠٥٨م) في « رسالة الغفران » ورحلته الى الجنة والنار ، كما هي قريبة من بعض الاعمال « الملحمية » المسيحية

ـ في القرون الوسطى ـ لا سيما ملحمة « دانتي » (١٢٦٥ ـ ١٣٢١م) المعروفة « بالكوميديا الالهية » وملحمة « الفردوس المفقود » للشاعر الانجليزي « جون ملتون » (١٦٠٨ ـ ١٦٧٤م) ٠

ومن الغريب فعلا ان هذا التشابه الفني بين هذه الاعمال وبين « مأساة الزبيري » قد اقترن به تشابه مماثل : على مستوى الظروف الخاصة لكل منهم ، وعلى مستوى الاغراض الروحية التي تتضمنها اعمالهم ٠ الامر الذي يؤكد بأن هنالك علاقة خاصة بين نوعية الظروف النفسية وبين اختيار هذا الشكل الفني ـ الروحي في كل هذه الاعمال ٠

والزبيري الذي كتب مأساته ضمن ظروف تتميز بتوتره وقلقه نفسيا من جراء عاملي الغربة وتعقد الاحوال السياسية المحيطة بالقضية اليمنية في نهاية الخمسينات يلتقي بذلك مع كل من ابي العلاء ، ودانتي وملتون ٠

ـ فقد كتب أبو العلاء رسالة غفرانه في حوالي ١٠٣٣م أي بعد ان جاوز قمة نضجه الثقافي والشخصي بعد سن الخمسين من عمره ٠٠ في ظروف تميزت على المستوى العام بتدهور الاوضاع سياسيا على مستوى الخلافة المركزية في بغداد ، ونشوء الدويلات الاسلامية المتفرقة التي اخذت تتنافس عواصمها ثقافيا ، كما اخذت ثقافتها تمتليء بالصراعات الفكرية والفلسفية المتعددة ٠ وتميزت ظروف أبي العلاء الخاصة بوصوله الى نوع من القناعة المطلقة بضرورة اعتزال الحياة والعالم ٠٠ ولذلك اختار « المعرة » ـ مسقط رأسه ـ لتكون

معتزله النهائي بعد فترة من التطواف الطويل شمل العديد من المدن الكبرى في الشام وبغداد ثم عاد مؤخرا ليعلن في المعرة نهاية اتصاله بالعالم • وقد صادف انه في السنة التي أزمع فيها اعتزاله قام باملاء « رسالة الغفران » كرد على رسالة ابن « القارح » له والتي كان قد تسلمها قبل فترة طويلة منذ ابتدائه في املاء الرد عليه •

اما رسالة ابن القارح الى أبي العلاء فقد ابتدأت بتقرير ان « العالم حادث وليس قديما » ، واشتملت على سرد بثبت الزنادقة والملحدين •• بدءا من المتنبي ـ الذي كان أثيرا لدى أبي العلاء ، وانتهاءا بالحلاج وابن الراوندي •• وغيرهم من من اعتبروا في نظر ابن القارح زنادقة وملحدين • وقد أخذ ابن القارح مع نهاية رسالته « بالاعتذار عن شبابه وبشكوى شيخوخته التي جاوز بها السبعين عاما وأصبح في ظلها لا يفكر الا في الاخرة وعذاب النار » (٦) •

وبحسب رأي « لويس عوض » في كتابه « رسالة الغفران » ان مقصد ابن القارح كان يتجه الى استثارة ابي العلاء ، اعتقادا منه بأنه كان زنديقا وكان يناوئه المعتقد في التشيع للفاطميين •

غير ان رد أبي العلاء الذي اتسم بالسخرية والتشاؤم المطلقين قد احتوى ـ هو الاخر ـ نوعا من الاستفزاز الضمني لصاحبه •• حيث قام أبو العلاء بنقل ابن القارح ـ الذي كان ما يزال حيا الى عالم الاخرة ـ وصوره وهو يجري المسوح في عالم الاخرة بغية الشفاعة له لدخول الجنة • ولئن أدخله الجنة

مؤخرا وعرفه على عوالم الجحيم فقد كان ذلك بعد طول صبر واسترضاء لا متناه للعديد من الشخصيات ٠٠ بدءا برضوان « خازن الجنة » الذي قام ابن القارح بمدحه شعرا حتى ضحك منه لانه لا يعرف العربية ، وانتهاءا بعلي ابن أبي طالب الذي قبل الشفاعة له وهو ممتعض من مسلكه المنفعي المنافي لاداب « ألصالحين » ٠

ـ اما ظروف الشاعر الايطالي « دانتي » فقد تميزت :

دينيا : بمحاولة التوفيق بين العقل والدين بعد فترة طويلة من غلبة الفكر الديني الذي استحال مع نهايته الى سلاح قمع رهيب بيد رجال الكنيسة يسلطونه على من أرادوا : صغيرا كان أو كبيرا ٠

سياسيا : كانت ايطالية ممزقة الى مجموعة مدن كل مدينة كانت تتمتع بحكم ذاتي مستقل « يتفاوت بين الديمقراطية والطغيان الفردي » ٠

فكريا : ازدحمت ايطاليا بالعديد من التيارات الفكرية والفلسفية التي امتزج فيها تأثير العصور الوسطى بتأثير التيارات الحديثة المبشرة بطلائع عصر النهضة ٠

شخصيا : حكمت السياسة على دانتي ـ كما حكمت على الزبيري مؤخرا ـ بحكم واحد ٠٠ فقد تحول دانتي مع نهاية حياته الى طريد يهيم خارج بلاده بعد ان اعتلى أعداؤه « الحكم في فلورنسا وحكموا عليه بالنفي ومصادرة املاكه واحراقه حيا » تماما كالزبيري الذي كان محكوما عليه بمثل ذلك لكن من دون نطق ـ حرفي بمجريات هذا الحكم ٠

وملحمة «دانتي» عبارة عن رحلة خيالية الى العالم الاخر . « وتقسم الى ثلاثة أبواب : الجحيم والمطهر والفردوس » مكتوبة شعرا بطريقة « ثلاثية القوافي » وبحجم متقارب عبر أبوابها الثلاثة .

– ومن القبيل ذاته كانت ظروف « جون ملتون » الشاعر الانجليزي فقد عرف عنه تشرده في البلاد الاوروبية .. لكن ما ان قامت « الثورة الانجليزية » وأعلنت الحكم الجمهوري في البلاد حتى عاد « ملتون » وتقلد منصب امين السر «الكرومويل» قائد الثورة ورئيس الجمهورية . وبموت « كرومويل » وعودة الملكية الى سابق عهدها ألقي ملتون في السجن « وأحرقت كتبه وصودرت أمواله » وأطلق سراحه من السجن بعد فترة طويلة في عهد الملك شارل الثاني ، وكان قد فقد بصره .. فلم يجد بدا من اعتزال الحياة . وأثناء فترة انعزاله اخذ يكتب ملحمة « الفردوس المفقود » .

وموضوع الملحمة مستوحى من سفر التكوين في التوراة ، وفيه يصور خروج آدم من الجنة وتوهانه في الارض الى ان جاءه الانقاذ على يد السيد المسيح .

والاعمال السابقة كلها – بما فيها عمل الزبيري – تلتقي عند فكرة واحدة وهي الانتقال من تصوير ما هو قائم الى وضع الخلاص له روحيا . وربما كان الاختلاف واضحا لدى أبي العلاء الذي وان كان قد أشار في مطلع رسالته الى ما وصل اليه الفساد في العالم الذي رأى – انه يجب ان يظهر – وان قلبه قد جف والفساد متأصل في طبيعة الانسان ، الا انه مع

ذلك لا يطرح الحلول المرتآة من قبله ·· وان كان يشير – ضمنا – الى امكانية واحدة – تأتي من عنده تعالى – وهي الرحمة التي قد « تطهر الذنوب وتؤهل للغفران » ·

اما « دانتي » – فانه على العكس من ابي العلاء – يعالج مواضيع متعددة من خلال تعرضه للجنة والنار وما بينهما – المطهر – وكان ذلك سببا لتلقيب ملحمته بالالهية ·· « لا لجمالها الفني والادبي » ولكن « لانها تؤدي في نهايتها الى التقرب من الله · وقد افتتحت طبعتها الاولى : « هنا تبدأ كوميديا دانتي وقد عالج فيها مواضيع الثواب والعقاب ، والفضيلة والرذيلة » ·· وقد قصد دانتي الى تصوير « عيوب الناس من شهوة وجشع وبخل وغضب وخيانة (وتلك عيوب سادت مدينة فلورنسا في ذلك العصر وأودت بها الى حرب أهلية طاحنة) ·· كما وصف مزايا البشر من توبة وحب وصفاء » ·

ولم تخل الكوميديا الالهية من تصوير ما هو قائم دينيا وسياسيا ·· فقد تعرض دانتي « الى جشع كنيسة روما ، ونفاق رهبانها » ولم يتورع ان « يضع احد البابوات في الجحيم ·· كما وضع في الفردوس بعض الاحرار الذين غضبت عليهم كنيسة روما كأحد تلامذة ابن رشد « سيجردوا برابان » والذين ماتوا دفاعا عن رأيهم » ·

والشيء ذاته قد يقال عن « ملتون » لانه ضمن ظروفه العصيبة أراد أن يلجأ الى الايمان من عالمه العاتي « الذي استبد به اليأس والقنوط » والظلم والتشرد · وكانت غايته الكبرى في فردوسه المفقود « حمل الناس على الخضوع للدين ،واعتبار

العصيان اثما بالغا » وان كان قد بدا بأنه يتعاطف احيانا مع « الشيطان » لكونه « يتحلى بالكبرياء والحرية والشجاعة .. » على عكس الانسان الذي يظل رهن قيوده في كل حال .

واق الواق .. الخصوصية والتشابه :

ولئن ظهر ان شاعرنا الزبيري في مأساته قد حاول أن يسلك منهج الخلاص ـ على نحو سابقيه من الكتاب الفلاسفة ـ فقد كان خلاصه الروحي سياسيا ، وذلك متفق مع نهجه السياسي الذي اندفع اليه منذ فاتحة « مؤلفه » وحتى اخره ، ومتفق مع طبيعة معاناته المعاشة كسياسي مبعد عن ارضه لانه تبنى قناعة متعارضة مع طبيعة النظام السياسي في بلاده .

على ان هذا البديل السياسي لا يخلو من دوافع روحية جرت اليه :

فمن جهة : انه لم يلجأ اليه الا بعد ان اكتشف ان العلم سيره السياسة ـ كما سبق الايضاح ـ وان من نتائج ارتباط العلم بالسياسة افتقاده لكل دليل منطقي ممكن للبرهنة بواسطته على وجود بلاده وقضيتها .. سواء في جغرافية العالم او في اهتمامات قواه السياسية .

ومن جهه : انه لم يلجأ الى طرح النظام السياسي البديل لما هو قائم في بلاده ، الا بعد عجزه على ايجاده واقعيا .. لذلك ذهب بواسطة التلمس الروحي لاثباته بطريقة أو بأخرى . وقد دفعه الى هذا التلمس اكثر : ان النظام الذي يزمع تغييره كان نظاما لاهوتيا يستمد وجوده من حقائق غيبية ، لا قدرة له على ردها ، فكان له ان يبحث عن الحلول في سدور الغيب ..

قصدا لاثبات وجوده للعالم اولا ، وقصدا لاثبات طموحه ثانيا.

ومن هنا فقد كان الزبيري مثاليا شأنه شأن كل الفلاسفة المثاليين الذين أرادوا صنع واقع في الغيب .. لكن احدى أوجه تميزه عنهم انه قدر - عبر تطلع شعبه - الى ايجاد هذا النظام فعليا . وهو أمر وان لم ينف مثاليته فقد أكد على انها من نوع المثالية المحتملة الوقوع .

ولا يخفى علينا ان « الزبيري » الذي ساير الاخرين من الشعراء المذكورين في التعبير - فنيا - عن طموحاتهم الشاعرية الى تغيير واقع العالم « المترهل » قد أكسب تعبيره الفني واقعية لا منتهية استمدها من طبيعة تجربته النضالية ومن معاناته اللامحدودة مع واقعه المعاش .. أي انه فيما كان يبحث عن البديل ضمن - قوالب الفن - كان يعيش تجربة البحث عن البديل على الواقع من كل أبوابها .. وللخاصة ذاتها اكتسب عمله « الفني » صفة « المحلية » المطلقة لانها كانت أولا وقبل كل شيء تعبيرا عن تجربة معاشة ، لا تعبيرا عن مجرد « فكرة ذهنية » قد توجد أو لا توجد في الواقع .

وعلى الرغم من هذا أو ذاك فقد كانت التجارب الفنية السابقة للزبيري خصوصا تجربة المعري ودانتي - مصدر الهام له ومصدر تأثير واضح عليه أثناء كتابته مأساته .

ويبدو هذا التأثير عبر وجهين أساسيين :

الاول : جنة المعري التي شكلت بالنسبة له مصدرا أساسيا أثناء تصويره لمشاهدها وواجهاتها المتعددة .

الثاني : جحيم دانتي الذي استقى من رعبه الهائل صورا ومناظرا واشكالا لا تحصى .

والذي سيقف عند جنة « المعري » سيكتشف بسهولة انها عالم مخصوص أعد للمحرومين ولكل ذوي الفاقة ..

فهي مليئة بالمآدب من كل لون وصنف .. « يعبر بين الاكراس ـ الجماعات ـ طاووس من طواويس الجنة يروق من رآه حسنا ، فيشتهيه أبو عبيدة مصوصا فيتكون ذلك في صفحة من الذهب فاذا قضى منه وطرا انضمت عظامه بعضها الى بعض ثم تصير طاووسا كما بدا . وتمر أوزة .. فيتمناها بعض القوم شواءا فتتمثل على خوان من الزمرد ، فاذا قضيت منها الحاجة عادت باذن الله الى هيئة ذوات الجناح .. الخ » (٧)

وخمرها « لم يحلم بمثلها كل وصاف خمر .. » وفيها تتحول الاشياء ـ أي الجنة ـ فيكون في ثمر شجرة « الحور » بنات حور لا يقدر انسان على وصفهن ، ويكون في كل منظر بهي من مناظر الجنة متعة « حسية » تذاق باحدى الحواس « مذاقا أو لونا أو شما .. أو غيره .. كما يكون الاغراء الجنسي أحد علاماتها .. » اذ تقول احدى حيات الجنة لابن القارح : « ألا تقيم عندنا برهة من الدهر ؟ » فاني اذا شئت انتفضت من اهابي فصرت مثل أحسن غواني الجنة ، لو ترشفت رضابي لعلمت انه افضل من الدرياقة التي ذكرها ابن مقبل في قوله :

سقتني بصهباء درياقة　　متى ما تلين عظامي تلن .. (٨)

« ثم انه لا يوجد في جنة أبي العلاء قبح » فكل قبيح

يصير فيها جميلا ، كما يكون فيها « رقص ولعب ولهو ودعابة ، وقد تعنف الحركة فيها حتى تصير عربدة » ‥ كل ذلك من اجل أن يؤكد أبو العلاء بأنها جنة السجين المكبوت ، وذلك أقصى ما يؤكد فيه على سخريته !

أما جحيم أبي العلاء فانه لا يعدو ان يكون نوعا من الواقع الذي لا يقدر الانسان على رفضه ‥ لكنه يخلو من صورة العذاب المتوقع ، ويتحول في اخرتها الى مجرد سلوة يلتقي عنده المعذبون فيتطارحون الاشعار التي هي اكبر عزاء لهم عن متع الجنة .

وعلى العكس من ذلك جنة « دانتي » فهي جو معطر بالقدسية ‥ وكل ما فيها ينبيء عن نوع من الحركة البطيئة ذات الايقاع المهيب . وهو الامر ذاته الذي يستحيل في جحيمه الى عنفوان مطلق ، والى درجات متعددة في درجات الشر التي تغوص بها قاعات الجحيم . وجحيم دانتي عبارة عن حلقات ‥

في الحلقة الاولى : عظماء العالم القديم .

في الحلقة الثانية : العشاق الاثمين .

وفي الثالثة والرابعة ‥ الخ (٩) حتى الحلقة الثامنة فئات الاثمين من مختلف طبقاتهم .

وما بين الجحيم والنار يكون الطرف الوسط عند دانتي الذي يسميه « المطهر » أو جبل الاعراف . وهو ايضا على طبقات تختلف عن طبقات جهنم من ناحيتين : نوعيتها وكونها مؤقتة تنتهي بانهاء ذنب الفرد ‥ التي بتركها يتهيأ الدخول الجنة .

وقد حدد الزبيري جنته منذ بداية رحلته : « بدأت منذ اللحظة الأولى أرى شموعا سماوية ملونة جميلة تتلألأ في الافق وتتجه بأشعتها الى قبر الامام الشهيد « سيدنا الحسين » لقد صنعت طريقا من النور متصلا بين السماء والارض شطره هنا ينصب على القبر والشطر الاخر ٠٠ آه يا الهي الى أين أراه ممتدا ؟

انه ممتد هناك الى كربلاء ٠٠ ص ٢٤ ـ ٢٥ ٠ وكأنه بذلك يريد ان يحدد ـ ضمنيا ـ مدى معينا للجنة كفعل « دانتي » من قبله حينما اعتبر الكون كله مسرحا لاحداث ملحمته فقسمه الى نصفين :

« النصف الشمالي المؤلف من اليابسة مركزه مدينة القدس ، وفيه هوة عميقة شبيهة بالقمع ، تصل الى أعماق الكرة الارضية حيث يقطن ابليس ، والنصف الجنوبي يتألف من بحار واسعة ، ارتفع في وسطها المقابل تماما لمدينة القدس جبل الاعراف ـ أو المطهر ـ اما الجنة فهي خارج الارض وأعلى من الكواكب المحيطة بها ، أشبه بوردة روحية متفتحة في سموات كلها ضياء وصفاء » ٠

ولئن حدد « دانتي » احداث ملحمته بهذا المكان ـ على هذا النحو الجغرافي الغريب ـ فقد كان ذلك مستمدا من « فلكية الكون » التي كان يراها الفلكيون في القرون الوسطى بأنها « مركزيا » في الارض الثابتة ٠ اما الزبيري فلم يحدد تماما موقفا جغرافيا لكنه ربط بين قبر « رأس الحسين » في مصر ، وبين جثمانه المقتول في كربلاء ٠

وبالقدر الذي بدت فيه جنة الزبيري كجنة « دانتــي » مهيبة وقدسية بالقدر ذاته لم تخل من بعض أوصافها لدى أبي العلاء ·· فهي ساكنة يمتد فيها الشيء بنقيضه من دون ادنى مسافات ·· « وركب العزي في واحدة من تلك الجياد في سرب مجنح ·· يحلق في اجواء الفراديس ·· لا يؤذي المحلق فيها شمس ولا رياح ولا برد ولا ظلام ·· وانما هي حضرة قدسية ·· تشبه ان تكون شعرا الهيا ، فكل شيء يتنفس فيه تطير بــه النشوة وتحلق في غير حاجة الى جيــاد ولا أجنحــة » ·· (ص ١٥٥) · كما كانت انعكاسات هذا الجو « الفراديسي » توحي في قمة نشوتها بما يصل الى كيان الانسان من مختلف المتع الحسية : « أليس في هذا الذي أعيشه ما هو أروع وألذ من كل طعام وشراب ·· وأجمل من كل جمال ·· وأشد اغراءا من الحب ومن حوريات الحب ··؟ » (الصفحة ذاتها) وكما وقف ابن القارح في رسالة أبي العلاء على احــدى شجــرات الحور التي كسرها فخرجت منها جارية حوراء عيناء تغازلــه نرى الزبيري يشاهد في الجنة اعشاشا ضخمة موشاة بألوان مختلفة يقرأ على واجهاتها كتابة شعرية ·· عبارة عن «مقطوعات من الغزل على لسان الحوريات يداعبن سكان الجنة ويتغزلن فيهم ·· واقترب من احدى هذه الشجرات ·· فاذا به يسمع صوتا أخاذا جميلا هو صوت لاحدى الحوريات » التي تسكن هذه الثمار ·· « لكنها لا تؤكل وانما تعشق عشقا لانها ثمرة حية في كل حية منها حورية تصبح ملكــا لمن يقطفهــا ·· » (ص ١٥٧) ·

وبمثل ما كان التحول في جنة ابي العلاء حيث صــار

القبح جمالا كصيرورة « حمدونة » التي كانت تسكن حلب « كنت في الدار العاجلة اعرف بحمدونة وأسكن في باب العراق بحلب وأبي صاحب رحى وكنت من أقبح نساء حلب ، فلما عرفت ذلك زهدت في الدنيا الغرارة ، وتوفرت على العبادة ·· فصيرني ذلك الى ما ترى ·· (١٠) » ·· فقد تحولت الى « شابة جميلة كأجمل فتيات الحور العين ·· كأنما صيغت من اللؤلؤ والمرجان ·· » (ص ١٦٨) وكان جمالها سببا في تخاصم الشهداء وتزاحمهم عليها لخطبتها ·· وفي الجو نفسه صار من لا يجيد قول الشعر شاعرا كالشهيد المسمري الذي كان يدندن بشعره فيسأل الزبيري :

« ألا ترى ان صوتي صار أحسن مما كنت تسمعه مني في رواق الازهر ··؟ والشعر ؟ ألا تراني أشعر مني بالامس ؟ أتستطيع أن تبارزني في الشعر او في انشاد الشعر ؟ كلا ولا تظنني يا صديقي مغرورا فقد احتاج الامر مني لكي أملك هذا الصوت أن يقطع رأسي ، وتتجمع معجزات الجنة كي تعيد النظر في بنائي ، وتكوين كل ذرة في كياني على قواعد الفنون الجميلة في الجنة ·· ص ١٥٦ » ·

غير ان هذا البناء الجديد الذي تخيله الزبيري احتاج الى جهد طويل وتضحية ، وهو متناسب في فعله ما يتطلبه الزبيري من مردود · وذلك بعكس الحال عند أبي العلاء الذي يكون التحول لديه مقرونا بالصورة الاخرى المخبأة في ذهنه للعالم فيمارس عند كشفها نوعا من السخرية بها وبالعالم كله !

اما جحيم الزبيري ــ العاتي ــ المرسوم لطغاة الحكام في

العالم وعلى الخصوص لحكام « واق الواق » فقد استمده من جحيم دانتي في أكثر من صورة ٠٠ ويكفي الاشارة الى ان المشاهد المتعددة في واق الواق بدءا من الخونة « المعممين والقضاة » الى « عماد الطغيان » وهي ثلاثة عشر مشهدا هي تقريبا ذات المشاهد التي ساقها دانتي لكن مع تفاوت بسيط هو ان الدائرة الجهنمية الواحدة من الدوائر الثمان عند دانتي ـ قد تتعدد الى اكثر من حلقة ٠٠ وهذا الذي يفسر زيادتها عند الزبيري ٠ وتأكيدا لهذا يمكن للدارس العودة الى نوعية الترتيب الذي اختاره كل منهما ، ليكتشف ان معظمه ترتيب واحد لفئات تكاد تكون واحدة ٠٠ بل ان مشهد « ابليس » الذي صوره دانتي بثلاثة وجوه قد صوره الزبيري بالوجوه ذاتها عبر تسميات مختلفة ٠٠ فقد كان في وجهه الاول وجه أسماه الزبيري « فأر كبير » ـ رمز للتاريخ اليمني المتقهقر ـ وقد كان وجهه الثاني : الوشاح « احمد » بكل ما تظاهر به من كذب القول والادعاء ٠٠ طوال تجربته السياسية وتجربة الزبيري معه ٠ وقد كان وجهه الثالث : وجه نيرون رمز الاضطهاد والقهر ٠

وعلى أية حال فان هذه المقارنة ينبغي ان تظل موضع اعتبار كل دارسي واق الواق حتى يتم تأكيدها أو الرد على جوانبها المتشابهة مستقبلا ٠

حول الشكل الفني في واق الواق :

كيف نتعامل مع واق الواق فنيا ؟ خصوصا وانه لا يمكن اعتبارها لا لونا ادبيا معاصرا ؟ ولا هي من قبيل العمل الملحمي ؟

ولا هي ذات علاقة بتراثنا العربي بما في ذلك رسالة الغفران التي تعتبر انها تقف معها على خط يكاد يكون واحدا ؟

وفي الحقيقة انها مع ذلك تمتلىء بكثير من صفات هذه الالوان جميعها ..

فهي أولا : تكاد تكون رواية ـ بكل ما في معنى الفهم المعاصر للرواية ـ لو استبعدنا منها النواقص المشارة اليها في بداية القسم السابق .

وهي ثانيا : تعكس بعض خصائص العمل الملحمي ، في جوانب منها ، اذا اعتبرنا ان الحماس الديني والسمو بالشهداء سموا روحيا يوازي مصاف الابطال والالهة هو من خصائص العمل الملحمي .

وهي ثالثا : قريبة من رسالة الغفران التي لا تزال حتى الان ـ تقريبا ـ غير مصنفة نهائيا ضمن أي لون أدبي متعارف عليه (١١) .

وكما يقال ـ منطقيا ـ بأن تعدد التعريفات دلالة على عدم تحدد الشيء « المعرف » ، كذلك فان تداخل خصائص « واق الواق » بين الالوان الثلاثة السابقة دلالة على عدم تحديد هويتها الفنية بشكل نهائي .. الامر الذي يحتم تعاملنا معها كشكل فني مستقل .

ومن هنا فلو أردنا تحديد شكلها الفني الخاص فلا بد من تحديد « خصوصيتها » الموضوعية اولا ثم دراسة تأثير هذه « الخصوصية » على مجمل بنائها الكلي ثانيا .. لنتمكن وراء

ذلك من الوصول الى تحديد ولو تقريبي لشكلها الفني • وتلك مسألة فوق احتمال هذا الجهد السريع • ولعل الله أن يقيض لها من هو أهلا لها في المستقبل القريب •

الهوامش :

(١) لاستجلاء حقيقة هذا الخلاف بامكان القارىء العودة الى منشورات الاتحاد اليمني وخصوصا كتابات الزبيري منها في : « نعمان الصانع الاول لقضية الاحرار » ، « ثورة الشعر » بالاضافة الى « مأساة واق الواق » • وقد عمل « عمر الجاوي » في دراسته « الزبيري •• شاعر الوطنية » على بسطها بشكل واضح وتحديد موقف الزبيري في هذه الخلافات •

(٢) انظر على سبيل المثال المحاورة التي أجراها الزبيري في الجنة بوجود الخليفة « عثمان بن عفان » وعبد المطلب بن هاشم (واق الواق : ص ١٧٦ وما يليها) •

(٣) كالقاضي عبد الرحمن الارياني الذي أعيد من ساحة الاعدام (راجع « الدم واغصان الزيتون » لعلي صبره) •

(٤) راجع « انهيار الرجعية » : احمد محمد نعمان ، « ولكي نفهم القضية » : محمد احمد نعمان (منشورات الاتحاد اليمني) •

(٥) عمر الجاوي : « الزبيري شاعر الوطنية » (مجلة الثقافة الجديدة : العدد الثالث ـ السنة الاولى •• وقد أعيد نشر الدراسة بكتيب مستقل بالعنوان ذاته) •

(٦) التقويس المشار اليه ، وما بعده عن الدكتور « بدر الدين قاسم الرفاعي » استاذ الادب الاوروبي في جامعة دمشق • وقد أمكن تسجيل هذه الملاحظات عنه في محاضراته التي ألقاها على طلاب السنة الرابعة من قسم اللغة العربية في كلية الاداب أثناء العام الدراسي ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨ •

(٧) رسالة الغفران « تحقيق وشرح الدكتورة بنت الشاطىء » لابي العلاء المعري (ص ٢٨١) •

(٨) رسالة الغفران ص (٣٧٠) ٠

(٩) د٠ بدر الدين الرفاعي ، (المرجع السابق) ٠

(١٠) رسالة الغفران ص (٢٨٦ ـ ٢٨٧) ٠

(١١) يرى الدكتور الرفاعي : ان رسالة الغفران من نوع الرسائل الادبية التي كانت شائعة في زمان أبي العلاء ٠ ويستدل على ذلك بتسميتها ، وبظهور رسائل مماثلة لها في المغرب العربي كرسالة « الانتقاد » لابن شرف القيرواني ورسالة « التوابع والزوابع » لابن شهيد الاندلسي ٠

صرخة الى النائمين

ناشدتك الاحساس يا أقلام
أتزلزل الدنيا ونحن نيام
قم يا يراع الى بلادك نادها
ان كان عندك للشعوب كلام
فلطالما أشعلت شعرك حولها
ومن القوافي شعلة وضرام
لما أهبت بها تطارد نومها
ضحكت عليك بجفنها الاحلام
وصرخت في أسماعها فتحركت
لكن ، كما يتحرك النوام

★★★

تخشى سيوف الظلم وهي كليلة
وتقدس الاصنام وهي حطام

وتـــذل أمتنـــا لفـــرد واحـــد
لا تستقـــاد لمثلـــه الانعـــام
نســدي لـه أموالنــا ونفـوسنـــا
ويـرى بأنـــا خـــائنـــون لئـــام
نبنـي لـه عرشـا يسـود فيبتنـي
سجنـا ، نهـــان بظلـه ونضـام
تحنو الرؤوس لـه خشوعـا ضلعـا
وتنـوء مـــن أصفـــاده الاقـــدام
كـم سبحتـــه الســـن ، فتجرعـت
منـه ، مـــذاق المـوت وهـو زؤام
كم مـن أب واسـى الامام بروحـه
مـاتـت جيـاعـا بعـــده الايتـــام
يمتص ثـــروة شعبـــه ويميتـــه
جوعـــا ، ليسمـــن آلـه الاعـلام
طعناتـــه قدسيـة ، نزلـت بهـــا
البـــركـــات والآيـــات والاحكـــام
عمل الـورى فـي رأيه كفـر ، ومـا
يأتيـه ، فهـو شريعـــة ونظـــام

★★★

مـاذا دها قحطـان ؟ فـي لحظاتهـم
بـؤس ، وفـي كلمـاتهـم آلام ؟
جهـل ، وأمـراض ، وظلـم فـــادح
ومخافـة ، ومجـاعـة ، واهـــام ؟

والناس ، بين مكبل ، في رجله
قيد ، وفي فمه البليغ لجام
أو خائف ، لم يدر ما ينتابه
منهم ، أسجن الدهر ، أم اعدام ؟
والاجتماع ، جريمة أزلية
والعلم اثم ، والكلام حرام
والمرء ، يهرب من أبيه وأمه
وكأن وصلهما له اجرام
والجيش ، يحتل البلاد ، وما له
في غير أكواخ الضعيف مقام
يسطوا وينهب ما يشاء ، كأنما
هو للخليفة معول هدام
والشعب ، في ظل السيوف ممزق
الاوصال ، مضطهد الجناب يضام
وعليه اما أن يغادر أرضه
هربا ، والا فالحياة حمام
نثروا بأنحاء البلاد ودمروا
عمرانها ، فكأنهم الغام
أكلوا لباب الارض ، واختصوا بها
وذو الخصاصة واقفون صيام

★★★

يا قوم هبوا للكفاح وناضلوا
ان المنام عن الذمام حرام

تستسلمون الى قساة ما لهم
خلق ، ولا شرع ، ولا أحكام
ولقد صبرتم ثلث قرن لم يصن
أعراضكم صبر ولا استسلام
لن يبرح الطغيان ذئبا ضاريا
ما دام يعرف أنكم أغنام
فتكلموا كيما يصدق أنكم
بشر ، ويشعر أنكم ظلام
وتحركوا كي لا يظن بأنكم
موتى ، ويحسب أنكم أصنام
طار الورى متسابقين وما لكم
في السبق أجنحة ولا اقدام

قصتي مع الشعر

– ١ –

قصتي مع الشعر ، هي قصتي مع الحياة ، وقد كان من الادق ، والاصح ، من حيث الواقع ، والمنطق ، أن أجعل العنوان : « قصة الشعر معي » وذلك لان الشعر نبضة من نبضات الحياة يدور معها حيث تدور ، وهو ظل يعبر عن ألوانها ، وتقلباتها ، وليس الامر بالعكس • ولكن الشعر في هذه المقدمة هو سيد الموقف ، فلا بد ان نضعه في مكانه فنسير معه أو ندور حوله •

على أننا سوف نرى ان النتيجة سوف تكون واحدة ، فسواء كنت مع الشعر ، أو كان الشعر معي ، فان الحقيقة الجوهرية في كلا الحالين هو أن هناك تلازما ، وتشابها ، وتشابكا بين أطوار الحياة ، وأطوار الشعر ، واذا كان لا يجرح كبرياء الشعر أن يكون تابعا للحياة ، فنحن نعلم انه لن يمس كبرياء الحياة لو جعلناها كائنا شاعريا ، لاننا نكون حينئذ قد رفعناها فوق مكانتها ، وفوق ما تستطيع ان تكون •

- ٢ -

طور واحد من أطوار حياتي لم يستطع الشعر ان يقترن به أو يعبر عنه ، وهو طور التكوين الروحي ، الذي انغلقت عليه أصول شخصيتي ، وانغرست في أعماقه جذور نوازعي ، واتجاهاتي ، وتشكلت في قوالبه أطوال نفسي وألوانها ، ومعاييرها ، فلم تستطع منها فكاكا حقيقيا .

ولقد أغلقت على قوالب هذا التكوين العنيدة كما تغلق الكبسولة على رجل الفضاء ، فبينما هو يزعم الانفلات من سلطان الارض ، وقوانينها الى مجاهل الكون الاجنبي القصي ، اذ هو يجد نفسه في الواقع سجين قوالبه ، ونواميسه ، ومعاييره الارضية ، أينما ذهب ، وراح ، وعند ان تستهويه طيوف الفضاء ، وألوانه ، وأوهامه وتغريه بالتمرد على الكبسولة ، وعلى دروعها السميكة ، أو يسمح بأن تتسرب اليه من خلالها ذرات من أنفاس الاشعة الكونية حينئذ تتعرض حياته للخطر ، ويحس بعوامل التشويه ، والتدمير تدب في أوصال كيانه .

- ٣ -

فلماذا اذن لم يسجل الشعر هذا الطور الاول من أطوار حياتي ...؟

الواقع ان الشعر هو الطيف الساحر الجذاب الذي استدرجني من الحياة المنغلقة في كبسولتي ، حتى جعل قبضتي تتراخى ، وتسمح بتسرب العوامل الخارجية ، فتحدث الارتباك في جو القالب المدرع العنيد ، وأذهلني الشعر المتسلل الى حياتي عن تصوير الطور الروحي من أطوارها ، وجعلني أحلم

بأني قد أفلت منه ، رغم اني لا زلت في قبضته القوية ٠

تسلم الشعر زمام نفسي ، وأخذ يوجهها داخل النطاق الروحي ، دون أن يدري ، ويغامر بهـا في تجارب الاحلام ، ويطير بها عبر ضروب عديدة من المسارات ، فشرق بهـا ، وغرب ، وشمأل ، وجنب ، وأقدم ، وأحجم ، وهادن ، وحارب ، واقتحم بها دنيا العصر الحديث قفزة طافرة ، اجتازت القرون في سنين ، وخاضت مع جيل العصر مختلف الافكار ،والتيارات، ومصطرع المذاهـب الدينيـة ، والسياسيـة ، والادبيـة ، والاجتماعية ٠

وتفاعلت نفسي مع الشعر ، وتفاعل معها ونمـا خلال نموها فكانت طفولتي طفولته ، وشبابي شبابه ، ونضجي نضجه ، وكان يسير جنبا الى جانب حيث أسير ، فهو ساذج في سن المراهقة ، وطائش عندما أطيش ، وحزين عندما أحزن وحالم بالسعادة وقت ما أحلم ، اذا لعبت لعب مثلي ، واذا جديت قلد جدي ، وعندما كانت يدي تلعب بقطع الشطرنج للتدريب على فنون الكر ، والفر ، والهجوم ، والدفـاع ، كان هو يعبث برؤوس الملوك يقذفها جوا ، ويطرحها أرضا ، ويزغرد بها فرحا ، ويئن منها جزعا ٠

يطاردها وتطارده ، ويقتلها وتقتله ، السن بالسـن ، والعين بالعين ، والحروب سجال ٠

ـ ٤ ـ

واذا كانت اللسان غير معصومة في ثرثرتها ، وهذرها ، وانطلاقتها خلال الغدو ، والعشي ، والجد ، والهزل ، والرضى، والغضب ، فكذلك يكون الشعر عندما يكون عملا عاديا تلقائيا

من أعمال القلب واللسان ، ونتاجا طبيعيا من نتاج الحياة وصدى من أصدائها ، ومظهرا من مظاهرها .

وأنا لست أدري لماذا يوضع الشعر وحده في قفص الاتهام ، ولا توضع اللسان كذلك من جراء هذرها اليومي .

ألمجرد أن الشعر تجمل وتزين ، وأدخل على نفسه فن اللذة ، وسحر الجمال ..؟

أم لانه من الكائنات الحية التي ترفض أن تموت ، كما رفض الشيطان فحقت عليه لعنة المنظرين ...؟

ـ ٥ ـ

مهما يكن من أمر فان الحقيقة الواقعة ان الشعر هو الذي أخرجني من القمقم وقادني الى غمار الحياة الواسعة الزاخرة بالمفارقات والمتناقضات .

واذا كانت مناكب الارض ليست مهادا معبدا أملس يجري فيها الانسان كما يجري النغم في جو رهو صحو ، فكذلك الحياة كلها منحنيات ، وعقابيل ، وعراقيل ، وكذلك فان الشعر لا يجري الا كما تجري الحياة على ظهر الارض ، اذ هو صدى من أصدائها ، ونتيجة من نتائجها .

وقد يكون الشعر كما أتصور يعني الصدق الذاتي ، كما يعني الصدق الموضوعي ، والذات منها الاعماق ، ومنها السطح ، ومنها القشور ، ومنها اللباب ، فيها السوي والمعوج ، وفيها الشر والخير ، وفيها العدل والظلم ، وفيها الحيلة والالتواء ، وفيها الاستقامة والوضوح .

واذا كانت الحرب خدعة ، فالشعر أحيانا سلاح من

أسلحة الحرب ، ولا بأس في ميدان الصراع أن تكون الخدعة سلاحا شاعرا ...

على أن المعيار الحق في وزن أقدار الرجال وآدابهم وأشعارهم لا يتجه الى الاستثناءات والمواقف المؤقتة ، والجانبية والسطحية ، وانما ينبغي أن يتجه الى تقييم الاهتمامات الرئيسية ومظاهر السلوك ، وأهدافه والطابع العام الاعمق ، والنهايات الكبرى .

تلك هي ما ينبغي للمنصفين أن يضعوها في الميزان عند أن يدرسوا حياة الناس ، وآثارهم كبشر ، لا كمخلوقات خرافية ، أو ملائكية سماوية وهذا التمييز بين ما هو رئيسي ، وثانوي وبين ما هو حقيقة جوهرية ، وعملية تحايل في سبيل الحقيقة ، هو طريق الامن السوي وسط الدروب المشبوهة الماكرة ، والمتاهات المظلمة المظللة .

- ٦ -

بدأت حياتي طالب علم ينحو منحى الصوفية في العزوف، والروحانية . وتعشقت هذا اللون من الحياة رغم اليتم والشظف والقلة ، ونعمت به كما لم أنعم بشيء اخر بعد ذلك .

ولم يستطع أن ينتزعني من هذه الاجواء غير نشدان الشعر والادب ، وتعشقت الحياة الادبية ، وهمت بها هياما ، ولم أستطع أن تصرفني عنها ، وتصدني عن التفرغ لها الا المعارك النضالية السياسية التي تمخضت عنها الحياة الادبية .

فروحانيتي جنى عليها الادب ، وأدبي عوقب بالسياسة ، فزجت به في المعارك المريرة الطويلة المدى ، وانتقمت منه شر انتقام .

على أن هذه المراحل كلها انما تتباين هكذا في مظاهرها السطحية ، أما في أعماق الواقع ، فانها مراحل متداخلة تسودها روح واحدة ، وتحوطها منها كما أسلفت بدروع كدروع الكبسولة التي تخوض غمار الفضاء الخارجي الرهيب وهي ترتعد ٠

وشعري أو معظمه تطغى عليه السياسة سواء ما كان منه مدحا ، وما كان رثاء ، وما كان ثورة ، وما كان شكوى ، أو ما كان شيئا غير ذلك ٠ وهذا هو المنطق الواقع ، فان حياتي كلها ليست حياة شخصية منفكة عن الحياة العامة بأي حال من الاحوال ٠

— ٨ —

كنت مفتونا بشعري الى أبعد حدود الفتنة ، فلقد كنت أتناوله في جو روحاني يمنحني الغبطة مضاعفة ، ويعطيني ثقة خيالية بالنفس ، وأمنا غامضا لا مبرر له من الواقع المحسوس ، كما كان يشعرني بقوة الاستغناء عن كل ما في الحياة ، وبنزوع الى الاستعلاء على الاهتمامات العادية ، والايمان بقدرة لا أمتلك في يدي شيئا منها ، **كنت أحس احساسا أسطوريا بأني قادر بالادب وحده على أن أقوض ألف عام من الفساد ، والظلم ، والطغيان** ، لست أدري أذلك من تخريف الخيال الشاعري الجامح ، أم هو ومضة من ومضات الذخر الصوفي السجين في أعماقي ٠

« ١٩٦٢ »

الفهرس

الموضوع	بقلم	الصفحة
تقديـم	**الاستاذ عبد العزيز المقالح**	٥
الزبيري شاعرا ومفكرا	**الدكتور أبو بكر السقاف**	٩
رحلة في بيت من شعر الزبيري	**عبد العزيز المقالح**	٤٩
الزبيري ‥ شاعر الوطنية	**عبد الله البردوني**	٦٣
الزبيري : حياته ‥ نضاله وشعره	**محمد سعيد جرادة**	٧٧
الزبيري ‥ شاعر الحرية	**زكي بركات**	٩١

الزبيري ومعركة النقاد ١٦٧

عبد الباري طاهر

الزبيري بين الدين والثورة ١٩٥

محمد الشرفي

نماذج من كتابات الشهيد الزبيري لم تنشر من قبل

من نحارب ومن نسالم ٢١١

عن المأساة والفن في واق الواق ٢٢٣

عبد الودود سيف

قصتي مع الشعر ٢٦٥

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة

مكتبتي الخاصة

على موقع ارشيف الانترنت

الرابط

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem